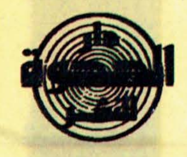
الدكتور مسعود فلوسي
أستاذ مساعد بالمعهد الوطني للتعليم العالي
للعلوم الإسلامية - باتنة «الجزائر»

الشيخ محمد الغزالي

رائد منهج التفسير الموضوعي في العصر الحديث








الشيخ محمد الغزالي
رائد منهج التفسير الموضوعي
في العصر الحديث

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب٢٣٠

ت :٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس٣٥٩٧٧٨

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣



دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

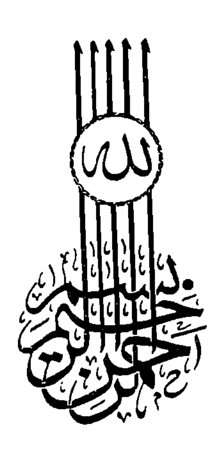
مدينة الهدى ـ حدائق حلوان ـ القاهرة

ت:٣٦٩٠٠٧١



تأليف

الدكتور مسعود فلوسي
أستاذ مساعد بالمعهد الوطني للتعليم العالي
للعلوم الإسلامية - باتنة "الجزائر"


بسم الله الرحمن الرحيم

• بسم الله الرحمن الرحيم •

إهـــداء...

* يسعدنى أن أهدى هذه الباكورة الثانية من إنتاجى الفكرى، إلى ولدى الحبيب أحمد أمير ، بمناسبة إتمامه للسنة الثانية من عمره.

* داعيا الله ـ عز وجل ـ أن يُنبته نباتا حسنا ، ويهديه سبيل الرشاد ، وألا يقسم له من هذه الحياة إلا ما فيه صلاحه وسعادته فى الدنيا والآخرة .

* كما أهدى هذا العمل أيضا إلى والدىَّ الكريمين .

* وإلى زوجتى الفاضلة .

* وإلى أشقائى وشقيقاتى .

* شاكرا لهم مؤازرتهم لى، وسائلا الله ـ عز وجل ـ أن يثيبهم جميعا بأحسن الجزاء.

إنه ـ عز وجل ـ مجيب الدعاء .

مقدمـة

الحمـد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علـى أشرف خلق الله أجمعين ، محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين ، ومن تبع هداهم واقتفى أثرهم وسار سيرهم إلى يوم الدين ، والعاقبة للمتقين .

وبعد :

فلم يتح لى، وأنا أطلب العلم ، أن أجلس تلميذا بين يدى أستاذ الأجيال ، الشيخ محمد الغزالى رحمه الله ، كما لم أحضر دروسه ولا محاضراته الكثيرة التى ألقاها فى مختلف أنحاء الجزائر ، فيما عدا محاضرة واحدة نُظمت له بدار الثقافة بباتنة سنة ١٩٨٥م ، بسعى وإدارة من أستاذنا الجليل الدكتور الطاهر حليس رحمه الله ، وهى المحاضرة الوحيدة التى حضرتها ، وكان لى شرف الحصول على مكان داخل القاعة التى كانت تغص بالحضور الذين أقبلوا ليستمعوا إلى الشيخ ، وليتملوا من طلعته البهية ، ولما لم تكفهم القاعة وقفوا خارجها بالمئات يستمعون إلى المحاضرة التى كانت تُنقل إلى الخارج عبر مكبرات الصوت .

ولكن مع ذلك ، فأنا أعتبر نفسى أقرب إلى الشيخ من كثير من تلاميذه الذين كانوا يتمسحون بأثوابه ولا يتأسون به فى منهجه والأهداف التى نذر لها نفسه.

وقد بدأت صلتى بالشيخ رحمه الله ، منذ أيام المرحلة الثانوية ، حين أتيح لى أن أقرأ بعض مؤلفاته ، ومنها : فقه السيرة ، وخلق المسلم ، وعقيدة المسلم ، وهى المؤلفات التى تأثرت بها أيما تأثر ، وأعجبنى أسلوب الشيخ فى كتابته ، فصرت أقرأها وأعيد قراءتها حتى حفظت الكثير من الفقرات منها.

منذ ذلك الحين وأنا أتتبع ما أنتجه الشيخ الغزالى وينتجه ، أجمعه وأقرؤه . وقد ازدادت هذه الصلة توثقا بدخولى إلى الجامعة ، حيث استطعت الحصول على الكثير من مؤلفات شيخنا ، إما شراء أو تصويرا أو إعارة ، وعكفت على قراءتها وتفهمها والنهل منها ما أمكننى أن أنهل ،حتى فاق مجموع ما قرأته منها خمسة وأربعين كتابا ، قرأت بعضها أكثر من مرة ، وأكثر من مرتين . . ناهيك عن مقالاته الكثيرة التى قرأتها ودروسه التى كنت أتابعها عبر التلفزيون أو الإذاعة .

ولما أصدر الشيخ كتابه: « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » ، وثارت حولـه تلك الزوابع الكثيرة ، أتيح لـى أن أقرأ كتابا مـن تلك الكتب التـى ألفت فى الرد عليه ، وكان هو كتاب : « كشف موقف الغزالى من السنة وأهلها ونقد بعض آرائه » ، الذى نشر فـى الجزائر إلـى جـانب كتـاب الغزالـى ، وقـد أغاظنى مـا اتهم بـه المؤلفُ الشيخَ من تُهم باطلة ، وما نسبه إليه من كلمات مشبوهة ، وما حكم به عليه مـن أحكـام قاسية وغير علمية . ودون قصد منـى وجدت نفسى أخط مقالا بعنوان : « تجريح فـى غياب الموضوعية والإنصاف » ، صدر فـى أحـد أعداد أسبوعية « الأوراس » التى كانت تصدر فى باتنة فى ذلك الحين، وقد قرأه الكثير من الأصدقاء، وأبـدوا إعجابهم بـه ، وهنأونى علـى حبى للشيخ وانتصارى للحق الذى رأيته فى جانبه .

ومضت على ذلك المقال ست سنوات كنت خلالها دائم التتبع لما يصدره الشيخ من كتب جديدة ،وما يديره من معارك فكرية ، وكنت أستفيد كثيرا من هذه الكتابات ، بل وأحتذى حذوها فى بعض الأحيان ، فيما كنت أنشره خلال هذه السنوات فى الصحف والمجلات الوطنية .

وحين توفى الشيخ رحمه الله ، سنة١٩٩٦م ، كتبت مقالا آخر بعنوان : « الشيخ محمد الغزالى فى جوار الله ؛ انتزاع العلم بقبض العلماء » ، نشر فى أسبوعية «الأوراس الكبير » التى كانت تصدر أيضا فى باتنة وهى غير الأسبوعية السابقة .

وقد جمعنى فى تلك الأيام لقاء بمجموعة من الإخوة الأساتذة ، منهم صديقى الأستاذ عبد الحميد خزار ، رئيس جمعية الإصلاح الاجتماعى والتربوى لولاية باتنة، ومدير مجلة الرواسى ، فاقترح علينا ـ حفظه الله ـ أن نعمل على كتابة مجموعة أبحاث عن الشيخ الغزالى ، تصدر فى كتاب خاص بالشيخ ضمن سلسلة كتاب الرواسى التى تصدرها الجمعية ،أو على الأقل تصدر فى عدد خاص بالشيخ من مجلة الرواسى . . وتقاسمنا المجالات التى يمكن أن نكتب فيها عن الشيخ ، واخترت أن أكتب عن منهج التفسير الموضوعى عنده ـ رحمه الله .

وبدأت العمل فى البحث ، أقرأ وأجمع ، ورأيت ألا أكتفى بكتاب: « نحو تفسير موضوعى لسور القرآن » ، بل أقرأ كل ما كتب الغزالى عن القرآن أو فى إطار التفسير الموضوعى ، وهو كثير جدا ، وجمعت مادة كثيرة ، ثم لما بدأت أحرر الموضوع ، قـررت أن أتوقف بـه عند أربعين صفحـة علـى الأكـثر . . لكنـى لما كتبـت البحث علـى تلك الصورة التى رسمتها له ، وجدت أنى تركت مادة كثيرة مهمة وتستحق أن

تُدخل ضمن البحث .

ولما كان المشروع الذى كنا فكرنا فيه لم يتحقق ، نتيجة عدم وفاء بعض الزملاء بما التزموا به ، وكذلك نتيجة العسر المادى الذى أصبحت تعانى منه الجمعية بفعل تكدس أعداد مجلتها وسلسلة كتبها ، فقد قررت أن أحول البحث إلى كتاب أنجزه عن الشيخ ، يكون عبارة عن تجميع وتحليل متكامل ـ ما أمكن ـ لتراثه فى التفسير الموضوعى .

وبدأت العمل، أقرأ وأجمع وأوازن وأختار ، وأمكننى أن أحرر ثلاثة فصول كاملة فى ظرف وجيز . ولكنى توقفت نتيجة الأشغال والأعباء العلمية والحياتية المختلفة ، وظللت أعقد العزم على استكمال الكتاب والانتهاء من تحريره ، وتحول دون ذلك أشغال، حتى منَّ الله عز وجل علىّ بعزيمة صادقة ، وهمَّة قوية ، تمكنت بفضلهما من تحرير بقية الفصول فى ظرف لا يتجاوز الخمسة عشر يوما . فلله الحمد والمنة .

وبذلك استقام هذا الكتاب على الصورة التى بين يدى القارئ ، والتى لا أدعى أنها الصورة المثلى التى ينبغى أن يكون عليها ، ولكنها أيضا الصورة التى استطعت ـ فى ضوء ظروف حياتى بالجزائر ـ أن أحققها ، فإن كانت صورة جيدة فالحمد لله وحده ، وإن كانت الأخرى فعذرى أنى إنسان ، ومن طبيعة الإنسان القصور والعجز عن البلوغ إلى الكمال .

يتوزع البحث فى هذا الكتاب على ستة فصول:

خصصت الفصل الأول للحديث عن سيرة الشيخ الغزالى الشخصية ومساره الفكرى ؛ لأنى رأيت أن الحديث عن منهج الشيخ فى التفسير ، لا يمكن أن يأخذ صورته المكتملة إلا إذا عرف القارئ سيرته وأطوار حياته ، ومجالات اهتمامه وعلاقاته، والقضايا التى نذر لها حياته .

كما أن الفصل الثانى يعتبر تكملة للفصل الأول ، وإن كان دراسة خاصة بروافد وأصول الاتجاه الموضوعى فى التفسير عند الغزالى ،إذ كان الفصل الأول دراسة عامة ، وكان الفصل الثانى دراسة أكثر خصوصية . ولهذا الفصل أهميته البالغة فى البحث ؛ لأن منهج التفسير الموضوعى عند الشيخ الغزالى لم يكن وليد اهتمام فكرى أو أكاديمى بحت ،وإنما كان وليد معاناة فكرية ونفسية واجتماعية وثقافية .

ثم يأتى الفصل الثالث، والمتعلق بنشأة وتطور الاتجاه الموضوعى فى التفسير عند الشيخ، وهو عبارة عن تتبع لمسار هذا الاتجاه فى مختلف مؤلفات وخطب ومحاضرات الغزالى.

أما الفصل الرابع ، فهو دراسة لما قدمه الغزالى فى الجانبين النظرى والتطبيقى للتفسير الموضوعى ؛ إذ عرضت فيه تعريفه للتفسير الموضوعى ، وتفريقه بينه وبين التفسير الموضعى، كما عرضت كذلك لحديثه عن نوعى التفسير الموضوعى، ثم عرضت نماذج من دراساته التطبيقية فى هذا المنهج بنوعيه.

ويمثل الفصل الخامس محاولة لحصر المحاور الكبرى التى يدور عليها التفسير الموضوعى عند الشيخ ، ذلك أن الشيخ وجَّه التفسير لخدمة أهدافه وغاياته فى الدعوة إلى الله عز وجل ، ولم يكن التفسير سوى وسيلة لتحقيق تلك الغايات. لذلك وجدنا اهتماماته فى التفسير صدى واضحا لاهتماماته وأهدافه التى ظل طول حياته مشغولا بها ومهموما بتحقيقها .

أما الفصل السادس والأخير ، فخصصته أيضا لحصر الوسائل العلمية والأدوات المنهجية التى يستثمرها الشيخ فى تفسيره وهى وسائل تعبر عن عمق ثقافته وتنوعها وإحاطتها بالعلوم المختلفة،ويظهر فيها فقه الشيخ الدقيق للواقع والتاريخ وسير الأحداث.

هذا ، وقد كان فى نيتى أن أضيف فصلا سابعا أتحدث فيه عن مظاهر ريادة الشيخ فى منهج التفسير الموضوعى فى العصر الحديث ، ثم بدا لى أنى سأكرر ما قلته فى الفصول السابقة ؛ ولذلك اكتفيت بعرض أهم هذه المظاهر فى خاتمة الكتاب، كخلاصة جامعة لأطراف الموضوع .

أخيرا لا يسعنى وأنا أقدم هذا الكتاب إلى القارئ الكريم ، إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من مد لى يد العون ، وأذكر هنا بصفة خاصة أستاذنا الجليل وصديق الجزائريين العزيز الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس حفظه الله ، الذى أرسل لى من القاهرة كتاب: « الشيخ محمد الغزالى: صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره »؛ الذى ألفه رفقة الأساتذة الدكاترة : عماد الدين خليل ، ورمضان عبد التواب، ومحفوظ عزام ، حفظهم الله جميعا ، وكذلك كتاب : « الشيخ الغزالى كما عرفته ؛ رحلة نصف قرن » للأستاذ الدكتور الشيخ يوسف القرضاوى حفظه الله .

كما أشكر كل من شجعنى من الزملاء والأصدقاء ، وهم كثيرون ، أذكر منهم على وجه الخصوص زملائى الأفاضل: الدكتور محمد زرمان ، الذى ما فتئ يشجعنى على إتمام البحث ، وقد تفضل فصور لى كتاب : «الشيخ محمد الغزالى؛ الموقع الفكرى والمعارك الفكرية» للدكتور محمد عمارة ، والأستاذ حسين شرفة ، الذى تفضل بإعارتى كتاب: «الشيخ الغزالى ومعركة المصحف فى العالم الإسلامى» للأستاذ محمد شلبى .

ثم أخى الحبيب وصديقى العزيز الأستاذ جمعى بوقفة ، الذى ما فتئ يُؤْثرنى بما يتحصل عليه من كتب ومجلات ،ويشجعنى على استثمارها فى أبحاثى ومحاضراتى ، وقد تفضل فأعارنى العدد الخاص بالشيخ الغزالى من مجلة «إسلامية المعرفة» التى تصدر فى ماليزيا . والشكر كذلك لصديقنا العزيز الأستاذ الدكتور أحمد رحمانى رئيس مجلس البحث العلمى بالمعهد الوطنى للتعليم العالى للعلوم الإسلامية بباتنة ، الذى ما فتئ يبذل الجهود المتواصلة فى سبيل ترقية البحث العلمى بالمعهد.

ولله الحمد فى الأول و الآخر.

باتنة فى الأربعاء ١٨ رجب ١٤١٨هـ

١٩ نوفمبر ١٩٩٧م

أبو أحمد

مسعود فلوسى

الفصل الأول

محمد الغزالى السقا

السيرة الشخصية والمسار الفكرى

محمد الغزالى السقا السيرة الشخصية والمسار الفكرى

١ـ المولد والنشأة :

فى الثانى والعشرين من سبتمبر سنة ١٩١٧م ، ولد محمد الغزالى السقا، فى قرية « نكلا العنب » مركز « إيتاى البارود » محافظة « البحيرة »، وهى إحدى المحافظات الكبرى بالوجه البحرى بمصر. . وقرية « نكلا العنب » لها تاريخ طيب ، فمنها خرج المجاهد الشاعر « محمود سامى البارودى » ، كما أن منطقة «إيتاى البارود » خرج منها عدد كبير من الرجال المخلصين،مثل الشيخ سليم البشرى ، والشيخ إبراهيم حمروش ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ حسن البنا، والدكتور محمد البهى ، والشيخ محمد المدنى ، والشيخ عبد العزيز عيسى ، والشيخ عبد الله المشد ، وغيرهم (١).

كان محمد الغزالى أول سبعة أولاد أنجبهم والده الشيخ أحمد السقا ، وقد برز إلى الدنيا فى ظروف صعبة جدا كان يعيشها المجتمع المصرى فى أوائل هذا القرن ، وهى ظروف لا تختلف عن تلك التى كانت تعيشها البلاد العربية والإسلامية كلها تقريبا ؛ إذ كانت تئن تحت وطأة الاحتلال الأجنبى وتعانى مظالمه وويلاته ، ويصف الغزالى طرفا من هذه الظروف التى كانت تعيشها مصر ، فيقول:

« لفت نظرى أنى برزت إلى الدنيا فى كبوة من تاريخ الإسلام ، وأيام كئيبة كان الإنجليز فيها يحتلون مصر ، كما احتلوا أقطارا فيحاء من أرض الإسلام الجريح !!

ومع الهزائم المرة التى أحرجت الآباء والأولاد فإن المقاومة الشعبية كانت عامة، ورفْض الاستسلام للغاصب الكفور كان يعمُّ الأرجاء .

وأذكر أن قريتى الصغيرة (نكلا العنب ـ محافظة البحيرة) ، شاركت فى الثورة العامة ضد الإنجليز ،وقطعت أسلاك الهاتف ، وأعلنت التمرد !

وجاءت فرقة من جيش الاحتلال وعسكرت أمام أحد المساجد ، واستخفى الناس

---

(١) د / عبد الحليم عويس : الشيخ محمد الغزالى ، مراحل عظيمة فى حياة مجاهد عظيم . ضمن كتاب : الشيخ محمد الغزالى ، صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره، ط : ١ ، دار الصحوة ـ القاهرة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ص: ١٥ .

فى البيوت، وقُتل أحد الفلاحين الذين لم يلتزموا بتعليمات منع التجول . .

وقد علِق بذاكرتى ماحدث فى ذلك اليوم ، وكانت أمى تحملنى على ذراعها ونحن ننظر إلى الجيش الزاحف ـ من فوق سطح بعيد ـ أظننى يومئذ فى الثالثة من عمرى ، فقد ولدت فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٧ ، وكانت هذه الثورة سنة ١٩٢٠ للميلاد » [١].

أما الظروف العامة للعالم الإسلامى فكان يميزها السقوط النهائى للخلافة الإسلامية ، وما ترتب عليه من ضياع شبه كامل للمسلمين وبقائهم بلا راع ولا قائد:

«القرن الذى ولدت فيه من أسوأ القرون التى مرت بديننا الحنيف ؛ ولم أبلغ سبع سنين حتى كان المرتد التركى مصطفى كمال قد رمى بالخلافة الإسلامية فى البحر »[٢].

٢ـ حياة الكُتَّاب :

كان والد محمد الغزالى،وهو الشيخ أحمد السقا رحمه الله ، رجلا فقيرا متدينا، وكان يعلق آمالا كبيرة على ولده البكر .

ولذلك ، شرع يهتم به ويوفر الظروف اللازمة لتربيته وتهذيبه وتعليمه، فما إن بلغ الخامسة حتى أدخله الكُتَّاب؛ ليحفظ القرآن مع غيره من الصبية . ولما كان هو أيضا من الحفاظ ، فقد تعاون مع فقهاء الكتاب على ألا يضيع ولدُه الوقت سُدًى [٣] ، « فكان يحفظ حصته المقررة على الشيخ ، ويضيف إليها حصة أخرى على والده ، فما إن بلغ العاشرة حتى كان قد حفظه كله » [٤] .

كما « كانت أمه سيدة بارة صالحة محسنة ، تحب الخير والإحسان للناس ، وكان الغزالى حين يذهب إلى قريته ـ بعد ذلك ـ تطلب منه والدته أن يحسن للجميع ، وكان يتوقع دائما منها هذا الطلب عندما يذهب إلى قريته ، فكان يعد أكبر مبلغ من المال لإنفاقه فى أوجه الخير والبر ،أو يعطيه لأمه للإنفاق منه ، ولكنها كانت دائما تكلفه أكثر مما أعد للإنفاق» [٥] .

---

(١) قصة حياة ؛ مقتطفات من مذكرات الشيخ ، ضمن مجلة «إسلامية المعرفة » ـ ماليزيا ، السنة الثانية ، العدد السابع ، رمضان ١٤١٧ هـ/ يناير ١٩٩٧ م ، ص: ١٥٥ .

(٢) م . ن ، ص: ١٥٦ . (٣) م . ن ، ص:١٥٧ .

(٤) محمد المجذوب: الشيخ محمد الغزالى السقا. ضمن كتاب:«محاضرات الشيخ محمد الغزالى فى إصلاح الفرد والمجتمع » ، جمع وإعداد : قطب عبد الحميد قطب ، مكتبة رحاب ـ الجزائر ، (د . ت) ، ص: ١٨.

(٥) محمد شلبى: الشيخ الغزالى ومعركة المصحف فى العالم الإسلامى ، ط: ١ ، دار الصحوة ـ القاهرة ، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م ، ص: ٢٥ .

ويصف الغزالى بعض الظروف التى مرت بها حياته فى الكُتَّاب، فيقول :

« لم أكن بليدا ولا نابغا ، كنت متوسط الذكاء ، ضئيل الجسم ، قصير القامة! وكان وقع العصا على جلدى رهيبا عندما أخطئ ، وربما أكرهتنى الهيْبة على التلعثم، فإذا ارتفعت العصا أسرعت إلى استعادة وعيى وتابعت القراءة ، فإما نجوت ، وإما ضربت ضربة خفيفة . . !!

إن الكُتَّاب شيء مقلق ، قاعة واحدة واسعة مليئة بعشرات المستويات ،تضم قريبا من مائة صبى بين السادسة والسادسة عشر ، كل منهم عاكف على اللوح الذى يكتب فيه أو يقرأ منه ، وهناك من يقرؤون فى المصاحف ، بعدما انتهوا من مرحلة الكتابة .

وعلى بعد مائة ذراع تسمع هدير التلاوة ، تقطعه بين الحين والحين استغاثة مضروب لم يحسن الأداء ، يتوجع من لذع العصا .

والآباء يوصون المعلمين بألا تأخذهم شفقة فى التعليم والتأديب ، فعصا الفقيه من الجنة كما يقولون !!

بقيت فى الكتاب إلى سن العاشرة ، فأتممت حفظ الكتاب العزيز ، وعرفت مبادئ الحساب ، وشيئا قليلا من قواعد الإملاء ، ورأى أبى أن يقدم على مرحلة تعد عصيبة بالنسبة له ، لكنها مهمة بالنسبة لى» (١) .

٣ـ فى معهد الإسكندرية الدينى :

بمجرد أن حفظ محمد الغزالى لقرآن الكريم ، قرر والده أن يلحقه بالمعهد الدينى للإسكندرية؛ليواصل تعليمه فى المرحلة الابتدائية. ولذلك باع دكانه الذى يرتزق منه فى قريته ، ورحل إلى الإسكندرية التى اشترى فيها مكتبة بحى «كرموز» كانت تبيع الأوراق والكراريس ، والروايات المترجمة ، والكتب المدرسية والعلمية، والقصص الشعبية ، والأسفار الدينية المختلفة .

وقد تحمل الشيخ أحمد السقا نفقات هذا الانتقال ومغارمه بنفس راضية مطمئنة ، ولم يكن يهمه سوى أن يلحق ابنه بالمعهد . وقد تحقق له ما أراد حين ظهر اسم ولده بين أسماء مائتى طالب ناجح فى امتحان القبول الذى عقدته مشيخة معهد الإسكندرية الدينى .

---

(١) قصة حياة ، م . س ، ص: ١٥٧ ، ١٥٨ ، بتصرف .

كان من نتائج هذا النجاح أن محمد الغزالى أصبح ملزما بارتداء العمامة والجبة المقررة ، وهو الوضع الذى ربما لم يسترح إليه وإن كان ملزما به ، ولذلك يقول فى وصفه:

«يظهر أن منظرى ـ وأنا فى هذا السن الصغيرة ـ كان مثيرا للضحك ! مما جعلنى أتنكر لهذا الزى المفروض أمدا طويلا .

أصبحت الشيخ محمد ، وأنا لم أبلغ الحلم ! كنت أحب اللعب ، ولكن كيف يلعب شيخ ؟! كنت كثير الضحك وجزائى على ذلك طول الزجر والتوبيخ »[(١)].

دخل محمد الغزالى ـ إذا ـ معهد الإسكندرية الدينى ،سنة ١٩٢٨ م، وكان عمره حينئذ أحد عشر سنة، لينتظم فى صفوف الطلاب، مدة تسع سنين كاملة، وكانت الدراسة فيه وفق نظام اليوم الكامل، تبدأ صباحا وتنتهى فى الأصيل، وكان منهاج الدراسة مزيجا من العلوم الدينية والمدنية ،ما عدا اللغات الأجنبية التى لم تكن مقررة .

كما أن الدراسة كانت نصف داخلية ، يصرف الطالب نحو ثلاثين قرشا يستعين بها على طعامه اليومى ، وقد نفع الغزالى هذا أكبر النفع ، عندما اضطربت أحوال أبيه الاقتصادية وقارب الإفلاس ، واضطر بعد أربع سنين أن يعود للقرية من حيث جاء . . « وثلاثون قرشا ليست يومذاك شيئا تافها ، فإن القرش الواحد كان يشترى عشر بيضات تساوى فى عصرنا الآن مائة وخمسين قرشا » [(٢)] .

وعلى الرغم من صغر سن محمد الغزالى فى ذلك الحين، إلا أنه مع ذلك كان يهتم بالأحوال العامة، ويكترث للمبادئ التى تقوم عليها شؤون السياسة والحكم.

وذلك ما جعله يقود مظاهرة عنيفة لطلاب معهده ، انتهت بالتحقيق معه ، والإفراج عنه مقابل كفالة قدرها جنيهان ، دفعها أبوه وهو يلهث من الإعياء .

ثم قاد مظاهرة أخرى داخل معهده ، انتهت بفصله سنة من الدراسة ،وكان فى ذلك الحين فى السنة الثانية الثانوية ، فاضطر إلى التوقف عن الدراسة ، وقرر أن يتقدم لامتحان «الشهادة الثانوية ـ القسم الأول» من الخارج ، كل ذلك ووالده الشيخ أحمد السقا يتضور ألما ويكاد يقتله الهم مما يحصل لولده .

وفى هذه الظروف ، دهمت الغزالى علة فادحة طرحته على الفراش ثلاثة شهور ،

---

(١) م . ن ، ص: ١٥٩ .

(٢) م . ن ، ص: ١٥٩ ، ١٦٠ .

حتى شارف على الموت ، وكان والده قد باع تموين بيته كله فى مقابل نفقات تطبيبه وعلاجه ليصح (١).

وبعد أن قام الغزالى من مرضه ، قرر أن يدخل الامتحان ، مهما كانت الظروف ، وفى ذلك يقول :

« نهضت من المرض جِلْدًا على عظم ،وأرسلت لأصدقائى فى المعهد أن يبعثوا إلىَّ بالكراسات التى يكتبون فيها مسائل الرياضة ، وبعض الكتب المقررة ، وكانوا عند حسن الظن ، فأنجدونى بما يعيننى على المذاكرة !

كان علىَّ أن أستعد للامتحان فى نحو عشرين علما ، هى المقررات الرسمية للسنوات الأولى والثانية والثالثة الثانوية ، وذلك وفق ما يقضى به قانون الذين يُمتحنون من منازلهم!

كان زملائى يحضرون فى معمل الطبيعة والكيمياء ، وكانوا يسمعون المدرس وهو يشرح الجبر والحساب والهندسة ، أما أنا فكنت ممددا على عيدان الذرة الجافة فوق سطح دارنا ، أقرأ وأعانى وأستعين بالله .

إن حالتى فى المعهد كانت عادية ، كنت سباقا فى علوم اللغة والأدب فقط ، أما فى الفقه والتفسير وغيرهما فقد كان نفورى شديدا من كتب: نور الإيضاح ، ومتن القدورى ، ومجمع الأنهر على ملتقى الأبحر ، التى كانت تقدم لنا الفقه الحنفى ، كما كنت ضائقا بتفسير النسفى وأبى السعود وغيرهما .

لابد مما ليس منه بد! وبعد عام من فصلى ذهبت مرة أخرى إلى المعهد متقدما من الخارج فى امتحان صعب ، وكان زملائى يرثون لحالى ، ولكنهم لا يحبون أن يجرحوا كبريائى فيسكتون مشفقين .

لا أدرى كيف أديت الامتحان بهدوء ! وكرهت أن أعود إلى أبى أنتظر النتيجة فى جواره ! وعشت فى مساكن المعهد حتى تم إعلان النتيجة ، وكانت المفاجأة : نجحت فى هذا الامتحان الصعب ، بل كنت من الأوائل فى القطر كله ، والأول فى معهد الإسكندرية »(٢) .

عاد الغزالى بعد نجاحه فى هذا الامتحان إلى الدراسة مع زملائه ملتحقا بالسنة الرابعة ، فلم يُضع سنة من السنوات . . ولكنه عاد والأزمات المالية تلاحق أباه، خاصة

(١) م . ن ، ص: ١٦١ ، ١٦٢ .
(٢) م . ن ، ص: ١٦٢ .

بعد أن أصبح أفراد أسرته كثيرين ، مما دفع بالغزالى إلى أن يُدَرِّس لبعض الأطفال نظير أجر زهيد ، محتالا على البقاء فى المعهد رغم الظروف الكالحة ، حتى نال الشهادة الثانوية (١) .

وفى السنة الأخيرة من مقامه بالإسكندرية التقى بالأستاذ الإمام حسن البنا ، ويصف الغزالى هذا اللقاء فيقول :

«كنت جالسا فى مسجد عبد الرحمن بن هرمز بحى رأس التين أقرأ وردى القرآنى، وانتظرت لأصلى المغرب وأخرج ، فإذا رجل يقوم بعد الصلاة يلقى درسا جامعا يتسم بالوضوح والتأثير والصدق .

قررت من يومها أن أتبعه ، وأن أسير معه على درب واحد لخدمة الإسلام والمسلمين »(٢) .

٤ـ فى كلية أصول الدين بالأزهر :

فى سنة ١٩٣٨ م ، التحق الغزالى بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف ، وقد حصل له فى أول يوم من التحاقه بهذه الكلية حادث طريف دل على خصائصه النفسية، القائمة على حب الصراحة وبغض النفاق ، والاشمئزاز من تمجيد الغرب والتغنى بأمجاده الحضارية الزائفة . ذلك أن عميد كلية أصول الدين جمع الطلبة الجدد فى مسجد «الخازنداره» فى حفل عام للتعارف واستقبال العام الجديد ، وتوثيق العُرى بين الطلاب وهيئة التدريس . وهنا وقعت حادثة كان بطلها الطالب الجديد محمد الغزالى ، ونترك وصف ما حدث للغزالى نفسه فيقول:

«حدث فى هذا الحفل أمر ذو بال ، فقد كان من بين من تحدثوا الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة والأخلاق بالكلية،وجرى على لسانه ثناء حار على المجتمع الفرنسى،وتنويه بما يسوده من أمانة ونظام، وأهاب بنا أن نتمسك بهذه الخلال!!

وغاظنى ما سمعت ، فانتفضت قائما أصيح : أى خلال يا أستاذ ؟ هؤلاء تقدموا فى اللصوصية ، اللص عندنا يسرق آنية من بيت ، أو حافظة من جيب ، أو ثمرة من حقل ، وهؤلاء يسرقون الشعوب تحت الشمس ، ويختلسون العقائد من القلوب !! أى خلال تعنى يا أستاذ نلتمسها من هؤلاء المعتدين على إخواننا فى أقطار المغرب ـ وكانت كلها محتلة ـ ولماذا لم تذكرنا بسلفنا العظيم ؟

---

(١) م . ن ، ص: ١٦٣ .

(٢) م . ن ، ص: ١٦٤ .

وانطلقت بطريقة همجية اضطرب بها نظام الحفل ، ثم أمسك بى بعض المشرفين ، وقادونى إلى عميد الكلية الشيخ عبد المجيد اللبان ، فرأى شابا فى العشرين أفقده الحماس وعيه ، فقال لى بصوت وديع: اقعد يا ولد !! فجلست أمامه ، وكلف شيخا آخر بالتحدث إلى الطلاب الذين بدا أنهم متعاطفون معى ، بل بدا أن أكثر المدرسين لم يستريحوا إلى توجيه الدكتور محمد يوسف موسى وأنهم يؤيدون موقفى . . !

لم يعاقبنى عميد الكلية ، مكتفيا بإسداء بعض النصائح ، وصرفنى بعد انتهاء الحفل»[1].

سارت الحياة بالغزالى وزملائه فى الكلية بعد ذلك على عادتها ؛ يتلقون الدروس ويجتازون الامتحانات .

بيد أنه كان هناك فى الحياة العامة صراع شديد بين القصر الملكى والأحزاب السياسية التى كانت تموج بها الحياة المصرية فى تلك الأيام . وقد كان طبيعيا أن تنشأ فى كلية أصول الدين شعبة للإخوان المسلمين ،وأن يكون الغزالى واحدا من أعضائها النشطين . وقد لاحظ الأستاذ البنا نشاط الغزالى وسعيه الدائب فى خدمة الدعوة . فشجعه وأتاح له مساحة يكتب فيها فى مجلة (الإخوان المسلمين)، وقد «ظهر أول مقال له وهو طالب فى السنة الثالثة فى الكلية. . وقد كان الشيخ البنا معجبا بكتابة الشيخ الغزالى ، وكان يشجعه ويقول له : اكتب دائما وروح القدس يؤيدك ، والله معك . . ثم أصبح سكرتيرا لتحرير مجلة الدعوة »[2] .

وهكذا ظل الغزالى ـ خلال سنى دراسته الأربعة فى الكلية ـ ينشغل بدراسته أحيانا، وبالعمل فى شُعَب جماعة الإخوان تارة ، حتى تخرج من الكلية سنة ١٩٤١م، بعد جهد جهيد ، ميزه الفقر المدقع والبلاء الموصول، وفى ذلك يقول:

«لا أدرى كيف حصلت على شهادتى العالية ؟ لأنه لولا عون الله ما تم ذلك! لم أكن متقدما فى ترتيب الناجحين ، فهل أحزننى أنى لم أكن من العشرة الأوائل؟ كلا ! إننى ما تأخرت عن بلادة أو تقصير ، كانت الأحوال التى تكتنفنى رديئة ، لا أذكر أننى ملكت كتابا طول السنوات الأربع ، وأنَّى لى ذلك ؟

وعندما عُرض علينا شرح النووى لصحيح مسلم بنصف جنيه مقسَّطا على عشرة

---

(١) م . ن ، ص: ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) د / عبد الحليم عويس: الشيخ الغزالى ؛ مراحل عظيمة فى حياة مجاهد عظيم ، م . س ، ص: ١٦ .

شهور ، هززت رأسى بأسىً ، وقلت : ما معى يكفى للأطعمة والملابس . . واختفيت دون أن يشعر بى أحد »[1].

٥ـ فى حقل الإمامة:

تخرج الغزالى من كلية أصول الدين سنة ١٩٤١م ، وكان عليه أن يواصل دراسته التخصصية التى تدوم عامين ، حتى ينال « العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد » . ولكنه رأى أن شهادته العالية تمكنه من الحصول على وظيفة . وكان أن أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة بين خريجى الأزهر لشغل وظائف « الإمامة والخطابة والتدريس » الخالية بمساجدها .

انتهز الغزالى الفرصة ولم يفوتها ، وتقدم للمسابقة مع مئات كثيرة من « العلماء العاطلين » ، كما سماهم ، وكانت تحريرية وشفوية .

ومن طبيعة الامتحانات الشفوية أنها عادة ما تكون سببا فى رسوب الكثير من الطلبة ، رغم نباهتهم وتفوقهم ؛ وذلك نتيجة عدم صبرهم على استفزازات الممتحنين. وقد واجهت الغزالى فى هذا الامتحان حادثة من هذا القبيل ، كادت تعصف بنجاحه فى هذه المسابقة لولا لطف الله . يصف هذه الحادثة فيقول :

«فى الامتحان الشفوى ، وقعت بينى وبين أعضاء اللجنة مجادلة حادة ، بدأت بعمل منى كان طائشا . . كان أحد الأعضاء يسألنى فى القرآن الكريم،وكنت أحفظه جيدا ، وأجبت عن كل ما سئلت عنه ، والرجل يتابعنى فى مصحف كبير، وينتقل بى من صفحة إلى صفحة وأنا ماض فى التلاوة .

وردَّنى فى كلمة ، فتوقفت ثم مددت بصرى إلى المصحف الذى معه ، فقال لى بدهشة : ماذا تفعل ؟ قلت: أريد أن أستوثق هل أخطأت حقا ؟ فأنا أحفظ جيدا . . !

وشتمنى رئيس اللجنة ، وكان الأستاذ أحمد حسين ، أخا الدكتور طه حسين، وهو يومئذ مفتى الأوقاف .

وجاء دور الأستاذ أمين الخولى ، الذى طلب منى تفسير آيات قرأتها ، وأجبت فخطَّأنى ، وذكرت رأيا آخر فى التفسير فخطَّأنى ، فقلت وأنا أضبط أعصابى: وددت لو عرفت الحق ، فقد ذكرت كل ما أعرف ؛ قال: ذاك فى قاعة الدرس ، لا فى لجنة الامتحان .

---

(١) قصة حياة ، م . س ، ص: ١٧٣ ، ١٧٤ .

وتدخل مدير المساجد الشيخ سيد زهران قائلا للشيخ أمين: لقد اعترف الطالب بعجزه ، فدُلَّه على الجواب ؛ فقال مرة أخرى: ليس هنا .

فقلت بنزق: لاجواب إلا ما قلت ، وأتحدَّى إذا كان هناك جواب آخر ؛ وعاد الشيخ أحمد حسين إلى توبيخى ، أما الأستاذ أمين الخولى فأدار ظهره معرضا عنى ومنهيا المناقشة .

ولكن سؤالا وُجِّه إلىَّ من مدير المساجد: ألْقِ الخطبة التى أعددتها فقلت: اقترح أى موضوع أتحدث فيه، وقمت فتحدثت فى موضوع اقترحه، وانصرفت..

وظهرت النتيجة بعد أسبوعين ، وكنت الخامس بين الناجحين ، وتم ذلك بما يشبه خوارق العادات » (١).

إثر نجاحه هذا فى هذه المسابقة ، تم تعيين الشيخ الغزالى ، إماما وخطيبا ومدرسا بمسجد « عَزَبان » بالعتبة الخضراء ، وكان هذا المسجد صغيرا محدود المساحة، لكن موقعه فى قلب القاهرة ،وفى سوق تزدحم بالناس سحابة النهار وزُلَفا من الليل . وهو حظ لم يلق مثله أحد من زملائه (٢).

وقد استطاع الغزالى فى ظرف وجيز أن يجعل هذا المسجد قبلة يؤمها المصلون ويتوافدون إليه ؛ إذ « لم يمض شهر حتى كان جزء كبير من ميدان العتبة يُفرش بالحُصر، وتُنقل له الخطبة بالمكبرات » (٣) .

ولكن حصل له فى هذه الأثناء ما جعله يعيد النظر فى ثقافته التى اكتسبها ؛ إذ رأى أنها قليلة ولا تمثل زادا كافيا لخطيب يؤم الناس فى الصلوات ويرشدهم إلى الخير فى الخطب والمحاضرات ، وفى ذلك يقول :

«أدركت بعد شهر واحد أننى جاهل،وأن حصيلتى العلمية استنفدت خلال أسابيع، وأننى إذا لم أجدد نفسى ، وأقع على ينابيع ثرَّة تمدنى بالمعرفة ، افتضحت حتما.

لقد كنت مغرورا بعدد من المحاضرات والدروس أجيده ، وأتنقل به فى أنحاء البلاد ؛ أما الآن فأمامى منبر واحد يثوب إليه الناس من كل فج ، وينبغى أن أقدم كل يوم درسا ، وكل أسبوع خطبة !

إننى فى هذا المسجد عدت تلميذا مرة أخرى ، وكان الكتاب الدينى وغير الدينى

---

(١) م . ن ، ص: ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) م . ن ، ص: ١٧٨ .

(٣) م . ن ، ص: ١٧٨ .

أستاذى ،وكان إذا حضر عميد كلية أصول الدين فى طريقه إلى مجلس الأزهر الأعلى، أحبسه لأستفيد منه حلولا كثيرة لمشكلات علمية تعترضنى » (١).

وكان الغزالى فى هذه الأثناء قد خطب فتاة اختارها،فمنعه والدها الذى كان يشتغل فى وزارة العدل ، وكان يطمع فى زوج أغنى منه ، خاصة بعد أن علم أن مرتبه لا يزيد على ستة جنيهات ، يعطى أباه نصفها ليعول به أمه وإخوته الصغار .

ولم يوافق والد الفتاة على تزويجه منها ، إلا بعد أن تدخل الأستاذ البنا ، وأقنع الرجل أن الغزالى أفضل من غيره (٢). وبذلك تم الزواج الذى كان مباركا ، توج بتسعة أطفال عاش منهم سبعة فى حياة الغزالى ، ولدان ، وخمس بنات ، كلهم جامعيون . وحين توفيت الزوجة ، وكان الغزالى بالجزائر ، بكاها بكاء مرا ، معترفا بطيبتها وبحسن عشرتها، وما لاقاه معها من خيرات وبركات(٣) .

٦ـ فى صفوف جماعة الإخوان المسلمين:

رأينا من قبل أن الغزالى كان قد تعرف على حسن البنا قبل أن يأتى للدراسة فى القاهرة ،وأنه اندمج فى صفوف الإخوان ، وكان يقوم ببعض المهمات فى هذا الإطار ، وهو طالب فى كلية أصول الدين .

والحق أن نشاط الغزالى قد تكثف فى صفوف الإخوان ، بعد تسلمه لوظيفته كإمام فى مسجد العتبة الخضراء ، وهو ما يؤكده إذ يقول:

« فى هذا المسجد ، وفيما تلاه من ميادين عمل ، كانت لى صفة مزدوجة ، فأنا من رجال الإخوان المسلمين ، وأنا من علماء الوزارة ، ولم أكترث أو أشعر بحرج ما فى المزج بين الصفتين: الرسمية والشعبية .

وانضم إلى ذلك أنى أنتسب إلى تخصص الدعوة والإرشاد ، فضممت صفة ثالثة، صفة طالب يستطيع القيادة لزملائه»(٤) .

وقد حدث أن الغزالى حين كان يزاول تخصص الدعوة والإرشاد للحصول على درجة التخصص فى التدريس،إلى جانب عمله فى الخطابة والإمامة ، أنشأ اتحادا لإعادة التشريع الإسلامى ، وسار فى هذا الاتحاد خطوات كبيرة ، دون أن يستشير المرشد الأستاذ حسن البنا ، وفى ذلك يقول: « لما انتظمت فى تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين ، عنَّ لى أن أؤلف اتحادا لإعادة التشريع الإسلامى ، يزاحم الاتحادات

(١) م . ن ، ص: ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢) م . ن ، ص: ١٨٠ .
(٣) م . ن ، ص: ١٨١ .
(٤) م . ن ، ص: ١٧٩ .

الطلابية الأخرى ، ويظهر أن الأرض كانت ممهدة ، فسرعان ما اكتسحنا الساحات الأخرى ، وأخذنا نوزع ألوف المنشورات لنبلغ غايتنا ! طلبنا مقابلة رئيس الوزراء ، وكان مصطفى باشا النحاس ، للتفاهم معه، فحدد لنا الرجل موعدا ضحى أحد الأيام، ودخلت أتقدم زملائى ، فرأيت الباشا متجهما.

فقلت له : إنك تحكم بلدًا يصدر تراخيص الزنا ، ويفتح حانات الخمور ، ويحل ما حرم الله ! .

وقدمت له مطالبنا ، فأخذها ورمى بها فى وجهى ، وكان معه الشيخ محمد البنا ، وكيل الوزارة للشؤون الدينية ، فقال بأدب جم: مهلا يا رفعة الباشا ، إنهم يطلبون بعض الإصلاحات الاجتماعية التى تفكر فيها والتى سبق أن كلمتنى عنها ، وأخذ ورقة المطالب وانسحب إلى غرفة أخرى .

وبعد جدال ممل انصرفنا ، وعلم الأستاذ المرشد بما وقع ، فاستدعانى ولامنى على تأليف الاتحاد ، وعلى السير به إلى هذه المرحلة ، وأفهمنى أن منهج الإخوان وحده هو الموصل للهدف المنشود ، وإن طال المدى، ومن الخير أن أكرس جهودى كلها له ، وتم الوفاق على ذلك ، وأنهينا التشكيل الذى صنعناه .

استأنفت العمل ناشطا راغبا فى ميدان الدعوة ، وسرنى أن الأستاذ المرشد العام جعلنى سكرتيرا لمجلة الإخوان المسلمين فكنت أكتب كثيرا ، تارة بتوقيعى ، وتارات بتوقيعات أخرى ، وكنت أتردد على مكتبى بانتظام ، وأجمع بين عملى فى المسجد وعملى فى التحرير» [1] .

وجمْع الغزالى للوصفين الشعبى والرسمى ـ بحكم منصبه وانتمائه لجماعة الإخوان ـ كان يتيح له أن يتكلم فى مختلف المحافل والمساجد . وقد كان يجتهد إذا تحدث فى أمر ما أن يستوفى عناصره العلمية ، وأن يربطه بالمناسبات العابرة على نحو معقول ، وأن يجرد كلامه من أى زلفى للحاكمين ، وأن يضمنه تصريحا أو تلميحا ما ينصف به دينه ويسترضى ربه [2] .

كان الغزالى يكتب فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ، فى باب ثابت تحت عنوان: «خواطر حرة »، ويكتب فى التاريخ تحت عنوان: « صحائف المجد »، وكان يخوض من خلال هذه الكتابات معركة ضد الظلم الاجتماعى، والامتيازات الطبقية ، والفوارق الاقتصادية الفاحشة .

---

(١) م . ن ، ص: ١٨٢ ، ١٨٣ .   (٢) م . ن ، ص: ١٨٧ .

وقد ظهر له فى هذه الفترة كتابه البكر: « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » ، وهو أول ما دخل به ميدان التأليف ، وهو فى مقتبل شبابه .

ثم ظهر له بعد ذلك كتابه الثانى فى نفس الاتجاه: «الإسلام والمناهج الاشتراكية ». وكتب جملة مقالات فى مجلة (الإخوان) ، ضمها فيما بعد كتابه: «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين» .

وكان الشهيد سيد قطب ـ قبل الانتماء إلى جماعة الإخوان ـ قد أصدر مجلة (الفكر الجديد) ، وهى مجلة ثورية تُعنى بالمسألة الاجتماعية ، وتستلهم الإسلام ، ولم تستمر أكثر من بضعة أشهر ، وكان الغزالى أحد كتابها [١].

ظل الغزالى على هذه الحال ، من العمل الدائب فى حقل الإمامة والخطابة والكتابة ، حتى «جاءت محنة ديسمبر ١٩٤٨م ، حين صدر قرار حل جماعة الإخوان ومصادرة ممتلكاتها ، والتنكيل بأعضائها ، واعتقال عدد كبير منهم ، وانتهى الأمر باغتيال الحكومة جهرة لمؤسس الجماعة ومرشدها الأول الإمام حسن البنا »[٢] .

وقد كان الغزالى «واحدا من عدد محدود من قادة الجماعة الذين أوصاهم الشيخ البنا ـ قبل استشهاده ـ بحمل أمانة قيادة الإخوان » [٣] .

ولم تمر هذه المحنة دون أن يكتوى الغزالى ـ مع ألوف من أفراد الجماعة ـ بنار الاعتقال والتعذيب ، حيث تم اعتقاله ووضعه فى معتقل الطور بصحراء سيناء ، حيث قضى قرابة العام .

وهناك أدى دورا بارزا فى توعية المعتقلين وتوجيههم وقيادتهم؛حيث كان يؤمهم فى الصلوات،ويخطبهم فى الجمعة ،ويدرسهم فى الحلقات ، صحبة أخيه ورفيق دربه الشيخ السيد سابق . وكان الغزالى يلقى محاضرات فى موقف الإسلام من استبداد الحكام،كانت نواة لكتاب أصدره بعد ذلك ، وهو:«الإسلام والاستبداد السياسى».

وبعد استدعاء الأستاذ البهى الخولى إلى القاهرة من المعتقل لمحاكمته فى قضية أخرى فى إطار النظام الخاص ، اختار الإخوان الغزالى أميرا عليهم فى المعتقل ، برغم أن فى المعتقلين من هو أكبر منه سنا . فكان الغزالى يطالب بحقوق المعتقلين ويعمل

(١) د/ يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ؛ رحلة نصف قرن ، ط: ١ ، دار الوفاء ـ القاهرة ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م ، ص: ١١ ـ ١٤ .

(٢) م . ن ، ص: ١٤ .

(٣) د / محمد عمارة: الشيخ محمد الغزالى ؛ الموقع الفكرى والمعارك الفكرية ، ط: ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م ، ص: ١٤ .

على استخلاصها لهم من حكام المعتقل ، وقد قاد مرة مظاهرة هادرة أرغم بها حكام المعتقل على أن يسلموا للمعتقلين المقررات الجافة من الأطعمة ليتولوا هم طبخها وتوزيعها بمعرفتهم (١) .

لقد كان الغزالى يدرك ـ وهو فى معتقل الطور ـ أن ما حل بالإخوان المسلمين، كان لهم بعض التسبب فيه ؛ لأنهم لم يحسنوا استغلال الظروف التى أتيحت لهم . وقد أحزنه أنهم لا يعترفون بخطئهم ويرون أنهم على صواب وأن ما أحاط بهم محض ابتلاء لا يد لهم فيه ، وفى هذا يقول:

«كان ظنى أن الإخوان بعد مقتل مرشدهم وحل جماعتهم فى ظل استبداد مسعور، سوف يستفيدون من التجربة ، ويستبقون فى مصر ضمانات الكرامة الإنسانية ، ومعالم الحريات العامة ، أفذلك وقع ؟ كلا ، لقد مشى الأمر فى طريق آخر .

وقد أحزننى وأنا فى «الطور» أن الإخوان عموما يرفضون أى اتهام لسياستهم، وقد قلت: إنه بعد هزيمة «أحد» وقع اللوم على البعض من الصحابة، فلماذا لا نفتش فى مسالكنا الخاصة والعامة، فقد يكون بها ما يستدعى التغيير وما يفرض تعديل الخطة ؟. . . لكن هذا التفكير لم يلق ترحيبا !!» (٢).

بعد خروج الإخوان من المعتقل أواخر سنة ١٩٤٩م، أصبح الغزالى «هو اللسان الأول الناطق باسم الدعوة إلى الإسلام ، والمحامى الأول عن حرماته ومفاهيمه .

فهو يسطر المقالات الممتعة فى مجلة «المباحث» التى استأجرها الإخوان ؛ لتعبر عن رسالتهم ، ويؤلف الكتب التى تخاطب عقل المسلم وقلبه ، وتعمل عملها فى إيقاظ الوعى الإسلامى العام .

وهو يقف بالمرصاد لكل متطاول على قيم الإسلام وأحكامه ؛ ليرسل عليه شواظا من نار ، مسلحا بقلم لا يصدأ ، ولا يفل ، ولايستكين !! (٣) .

فى هذه الفترة صدر له عدد من الكتب المهمة ، كان أشهرها كتاب : « من هنا نعلم » ، وهو كتاب فى الرد على كتاب : « من هنا نبدأ » للشيخ خالد محمد خالد ، الذى كان صديقا للغزالى من قبل . كما صدر له كتاب آخر فى الرد على كتاب ألفه أحد الأقباط يتحامل فيه على الإسلام ، وكان كتاب الغزالى بعنوان : « التعصب

---

(١) د / يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ١٦ .

(٢) قصة حياة ، م . س ، ص: ١٨٨ .

(٣) د / يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ١٧ .

والتسامح بين المسيحية والإسلام » ، ألفه بتكليف من الأستاذ حسن الهضيبى، مرشد الإخوان حينئذ .

لقد كان لكتب الغزالى فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ مصر فى عهد الملكية، دور هام فى إيقاظ العقول ، وتنبيه القلوب ، وإذكاء المشاعر ، وتهيئتها للثورة على الأوضاع الظالمة [1] .

وما دمنا بصدد الحديث عن نضال الغزالى فى صفوف الإخوان المسلمين ، فلابد من أن نبرز علاقته بالأستاذ حسن الهضيبى رحمه الله ، الذى خلف الإمام الشهيد حسن البنا فى قيادة الجماعة ، باعتباره مرشدا عاما لها .

كانت هذه العلاقة طيبة ، فقد كان الهضيبى يصطحب الغزالى معه فى رحلاته الدعوية إلى الأقاليم ، ويكلفه ببعض الكتابات الدعوية. وقد ظلت هذه العلاقة حسنة، حتى ظهرت ثورة ٢٣ يوليو ، وعجزت عن احتواء الإخوان الذين وقفوا إلى جوارها وشدوا أزرها وحموا ظهرها، فلجأت إلى محاولة الإيقاع بين قادة الجماعة ، حتى يسوء ظن بعضهم ببعض ، واستطاع جمال عبد الناصر أن يستغل بعض المواقف للاصطياد فى الماء العكر . وهكذا استطاع أن يوقع بين قيادة النظام الخاص وقيادة الجماعة،حتى أدى ذلك إلى احتلال مجموعة من الشباب المتحمس المركز العام ، والتمرد على قرارات القيادة المبايَعة. كما استطاع أن يوغر صدور جماعة من القادة القدامى ، حتى وقفوا مع هذا الشباب الثائر ضد قيادته ، كان من هؤلاء أربعة معروفون من خيرة الإخوان جهادا وسابقة وخدمة للدعوة، ومحبة لدى جماهير الإخوان، كان منهم الشيخ محمد الغزالى.

وفى هذا الجو الملبد بغيوم الفتنة المحبوكة ، صدر قرار القيادة بفصل الأعضاء الأربعة من الجماعة ، وبهذا بلغت الفتنة هدفها ، وحققت مآربها .

كان ذلك سببا إلى أن يهيج الغزالى ويغضب ، فجعل يكتب عن سياسة الهضيبى ؛ منتقدا هذه السياسة بعنف ، وقد ظهر بعض ما كتبه فى مجلة «الدعوة » وفى كتابيه: «فى موكب الدعوة» و «من معالم الحق».

وقد كان خلاف الشيخ الغزالى مع الأستاذ الهضيبى وقرار فصله من الجماعة ، سببا فى نجاته من الاعتقال أوائل سنة ١٩٥٤م ،وأواخرها .

ومع هذا حين تبين له طغيان عبد الناصر ، وسوء موقفه من الإسلام ، ومن دعوة

---

(١) م . ن ، ص: ١٨ ، ١٩

الإخوان ، وسمع ما سمع من التنكيل والتعذيب الذى تجرع مرارته إخوانه فى السجون والمعتقلات ، وعن صلابة الأستاذ الهضيبى وثباته فى وجه الجبابرة ، وأنه لم يُحْنِ لهم رأسا ، ولم يوطئ لهم ظهرا - غيَّر موقفه من المرشد الهضيبى ونوه بموقفه ، وأشاد بإيمانه ورجولته ، وحين أفرج عنه، سارع بالذهاب إلى منزله ؛ ليهنئه ويصافحه بحرارة وإخلاص ، وقد قابله المرشد بنفس الحرارة وروح الأخوة (١).

وبذلك ارتفع ما بين الرجلين من خصام ونفور وعادت العلاقة بينهما كما كان ينبغى أن تكون .

٧- جهاد الدعوة :

بعد فصل الشيخ الغزالى من جماعة الإخوان المسلمين ، تفرغ للدعوة والتأليف ، ولم يكن أمامه من سبيل سوى أن يستغل وظيفته فى وزارة الأوقاف فى خدمة الإسلام والدعوة إليه ، وفى ذلك يقول :

« قررت أن أتفرد بالعمل للدعوة،على النحو الذى أختاره،وبالطريقة التى أحسن، وأمامى ميدانان فسيحان: ميدان التأليف ، وقد وضع الله لى القبول فيه. وميدان المساجد ، وأنا قادر على إلقاء الدروس والخطب، وعلى توجيه ألوف الأئمة إلى الغاية الأرشد ، والنهج الأمثل» (٢).

وكان يمكن للغزالى ، وهو يشغل وظيفة إدارية بصفته مفتشا للمساجد فى وزارة الأوقاف، أن يكتفى بوظيفته تلك ويكفى نفسه عناء الدعوة والإرشاد، ولكن الرجل أبى إلا أن يبذل فى سبيل الله ما يستطيع من جهد ، وفى ذلك يقول :

« مذ عملت فى السلك الإدارى ، وأنا أرفض الاكتفاء به ، وأركض ركضا إلى المساجد والأندية والكليات ،أتحدث عن الإسلام ، وأذود عنه المهاجمين، وأكشف كامنه للمتوسمين ، وأتعرض للمدح والقدح والتكريم والإهانة » (٣) .

وقد خلا - ذات فترة - منصب مدير المساجد ، فكان الغزالى يقوم بمهامه . وقد استغل وكالته على هذا المنصب فى خدمة الإسلام والدعوة الإسلامية ، حيث عمل هو وأخوه الشيخ السيد سابق ، مجتهدين فى ربط الناس بالمسجد ، وإحسان التوجيهات الثقافية التى تصدر عنه.

---

(١) م . ن ، ص: ٣٧ - ٤٣ .
(٢) قصة حياة ، م . س ، ص: ١٩٦ .
(٣) م . ن ، ص: ١٩٦ .

وكان من بين ما أدخلاه على نظام المساجد إنشاء جمعية أهلية لكل مسجد تتعاون مع الإمام فى تحسين أدائه المادى والروحى . ولما اتُّهِما بأنهما يريدان إعادة تنظيم الإخوان ، حوَّلا اسم الجمعية إلى: « مجلس المسجد » . كما وضعا مناهج وكتبا يُدرِّسها الإمام طوال الأسبوع ، وكراسات للتحضير ، تُدوَّن فيها المادة العلمية المقروءة أو المخطوبة .

لكن حدث ـ فى هذه الأثناء ـ ما لم يكن فى الحسبان ، حيث تبنى وزير الأوقاف ـ فى ذلك الحين ـ فكرة أن توكل المساجد إلى جمعيات شعبية تديرها ، وتسأل عنها ، وتمنحها الوزارة الإعانة الكافية،وتكون هذه الجمعيات تحت رقابة وزارة الشؤون الاجتماعية .

وأدرك الغزالى أن الهدف هو ترسيخ العلمانية والحياد بالدين عن التدخل فى شؤون الدولة ، فقاد حركة هائلة شملت المساجد فى القطر كله ، وتم وضع المشروع فى الرفوف [(١)].

لم تكن الطريق أمام الغزالى مفروشة بالورود ، بل كانت مليئة بالأشواك ، حيث صودرت بعض كتبه وتعرض للمحاكمة بسبب بعضها الآخر[(٢)] .

ولكنه احتسب كل ذلك عند الله ، وكان يعمل فى مكتبه بوزارة الأوقاف بجد واجتهاد ، يرعى شؤون المساجد ، ويقف فى وجه الحملات التى تُشن عليها ، وقد تمكن من حماية كثير منها من الهدم والتحويل ، كما كان يرعى شؤون الناس ويتتبع مصالحهم ، على عكس ما كان عليه حال الكثير من موظفى الوزارة. وفى ذلك يقول:

«كنت أول موظف كبير يدخل الديوان ، أستفتح عملى بقراءة جزء من القرآن على يد أحد شيوخ المقارئ ، ثم أنظر فى الملفات المعدة ، وأتتبع مصالح الناس بالإنجاز ، وأغشى عشرات المكاتب شفاء لهذا ، أو إعانة لذاك ، كنت كما وصف المأمون نفسه: حُبِّبَ إلى فعل الخير ، حتى ظننت أنى لا أؤجر عليه !!

وقد أحصى مكتب الاستعلامات فى الوزارة من يطلبون الدخول إليها ،فوجد ثلاثة أرباعهم يذكرون اسمى ، ولما كُلِّمت فى ذلك ، قلت:

معنى موظف عام ، أنه خادم للجماهير ، حقيقة لا دعوى»[(٣)].

---

(١) م . ن ، ص: ١٩٣ ـ ١٩٥ .
(٢) م . ن ، ص: ١٩٩ ، ٢٠٠ .
(٣) م . ن ، ص: ١٩٦ ، ١٩٧ .

لم يكن الغزالى فى هذه الأثناء غافلا عما كان يحدث لإخوانه ، من قهر وتقتيل وتعذيب وتغييب، ولكنه لأنه لم يكن بوسعه أن يفعل لهم شيئا ، فقد طوى قلبه على الأسى لهم ، والبكاء لما يلقون(١) .

٨ ـ مع الاتحاد الاشتراكى :

كان من منهج الغزالى فى الدعوة، ألا يكتسب الأعداء ، بل يرعى الود ما أمكن ، وكان يدرك أن وظيفة الدعوة هى إيقاظ ما انطوى من معالم الفطرة فى نفوس الناس . ولذلك كان لا يتردد فى أن يغشى أى مجتمع أو تجمع أو جماعة، ليدعو إلى الله عز وجل ، فلم يكن يستوحش من الأسماء السائدة أو العناوين الشائعة للمذاهب الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، بل من نقطة التلاقى بين الفطرة التى عرفها بالوحى ، وعرفها غيره بالتجربة أو بالفلسفة أو بالعلم ، من هذه النقطة كان يبدأ دعوته وهو متمكن مستريح .

لذلك رأيناه يقبل ما رفضه غيره من كلمات الديمقراطية أو الاشتراكية مثلا ، وكان يعرض من الدين النواحى المقابلة أو المماثلة ، فإذا نجح فى إبراز الحقيقة الإسلامية انتقل بمن يخاطب إلى آفاق أوسع تمس العقيدة والعبادة وسائر شعب الإيمان .

لذلك ، لم يجد حرجا فى التفكير فى دخول الاتحاد الاشتراكى ، يتخذ من منبره وسيلة يبلغ بها دعوته . وقد دخل هذا الاتحاد فعلا ، وحاول من طريقه خدمة الإسلام ونشر الدعوة (٢).

ويصف الشيخ أطوار هذه التجربة التى أقدم عليها و نتائجها ، فيقول :

«دخلت الاتحاد الاشتراكى، وكانت تجربة شاقة، لا عهد لى بمثلها، فهناك لجنة أساسية ينتخب الجمهور أعضاءها بطريق القوائم فى كل وزارة ، أو حى ، أو مصنع . . . إلخ، ثم يجتمع مندوبو اللجان الأساسية فى كل قسم لينتخبوا لجنة القسم أو المركز ، ثم يجتمع مندوبو المراكز أو الأقسام لينتخبوا لجنة المحافظة ، ثم تجتمع لجان المحافظات لتختار ضعف الأعضاء المطلوبين للجنة المركزية ، فيُختار نصفهم لعضوية اللجنة المركزية، ومن اللجنة المركزية تكون اللجنة التنفيذية التى تدير شؤون الدولة تقريبا ؛ لأن الوزراء منها ، أو خاضعون لها .

ومن السهل إدراك أن هذه السلالم الطويلة صُنعت هكذا حتى لا يصل إلى القمة

(١) م . ن ، ص: ١٩٧ (٢) م . ن ، ص: ٢٠٠ ـ ٢٠٢ .

إلا أهل الثقة .

والواقع أن هذا التنظيم صورة لتنظيم الحزب الشيوعى فى أى بلد اشتراكى ، فالقمة تصنع القاعدة أكثر مما تصنع القاعدة القمة . . !

وقد رأيت أنى فى المركز أشاهد أناسا لا أدرى كيف نبتوا ، فلا يكاد يعرفهم أحد ! يمشون معنا ليصلوا بقدرة قادر إلى مستوى المحافظة ، ثم يتم تصعيدهم إلى اللجنة المركزية ، بطريق الاختيار الصريح من أعلى !!

وشاء الله أن أصعد هذه الدرجات ، مستوى بعد مستوى ، حتى بلغت اللجنة المركزية ، فاختار المسؤولون أسماء ارتضوها، ورُدَّ اسمى لأنه لا يوثق به!

وأخذت أعمل مكانى ، أحاول خدمة دينى . . كان الجو موبوءا، فالشيوعيون رتبوا صفوفهم لقيادة البلد ، وغيرهم بين متملق يتسكع على أبواب الرؤساء ، أو أنانى لا تحركه إلاماَربه المكشوفة ، وإذا جاء وقت صلاة فما يتحرك إلا قليل» [١] .

ظل الغزالى مرابطا فى موقعه ، كموظف فى وزارة الأوقاف ، وواعظ بالأزهر الشريف ، وعضو فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ، يعمل دون كلل أو ملل على نصرة الإسلام وقضاياه العادلة .

وقد حدث مرة فى أحد المؤتمرات أن حاول قادة الاتحاد الاشتراكى تمرير قانون جديد للأحوال الشخصية، دون أن يطلع عليه الأعضاء . وهنا ثارت ثائرة الغزالى وأعلن رفضه لما يحدث ، وانسحب من المؤتمر . مما جعل القيادة تعيد تنظيم لجنة الأسرة ، وتضم إليها الشيخ الغزالى . وأمكن حجز الشر عن أن يتسرب إلى كيان الأسرة المسلمة ونظامها إلى حين [٢].

فى سنة ١٩٦٢ م ، شارك الغزالى فى المؤتمر الكبير للقوى الشعبية ، الذى عقده عبد الناصر ، «وتحدث فيه الغزالى خارج الخط العام للمؤتمر ، مناديا بضرورة استقلال الأمة فى تشريعها ، فلا تكون عالة على غيرها ، وهذا هو الاستقلال الحقيقى ، وبوجوب تميزها فى تقاليدها وأزيائها ـ أزياء الرجال والنساء ـ فلا تكون مجرد نسخة مشوهة للغرب فى أفكاره وتقاليده .

وهنا ثارت ثائرة الشيوعيين والمنحلين ، وأعداء الإسلام المتسترين بالثورة ، والمحتمين بحماها.

---

(١) م . ن ، ص: ٢٠٣ ، ٢٠٤ . (٢) م . ن ، ص: ٢٠٤ .

وكتب رسام الكاريكاتير الملحد المعروف صلاح جاهين ، المحرر بالأهرام ، ما كتب من سخرية بالشيخ وكلامه ، وما يرمز إليه من بقاء الأزهر والإخوان ، وكان صوت الغزالى المنادى بالإسلام ، وصوت الأستاذ خالد المنادى بالحرية ، هما البرهان الحق على أن مصر لم تمت ، وأن فى الزوايا خبايا ، وأن للحق رجالا .

نشر صلاح جاهين المعروف بانتمائه الشيوعى ١٤ رسما ساخرا ، تحت عنوان: «تأملات كاريكاتورية فى المسألة الغزالية »، إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن كلمة الغزالى قلبت موازينهم ، وأصابت منهم مقتلا ، وهو فرد ، وهم ألوف معهم الدولة والسلطان ، والصحافة والإعلام .

ولقد غاظ الجماهير المسلمة أن يتعرض شيخها وإمامها الغزالى لهذه السخريات من صحفى ملحد أثيم ، فخرجت يوم الجمعة (١/٦/١٩٦٢م) من الجامع الأزهر فى صورة مظاهرة شعبية غاضبة مزمجرة ، ضمت عشرات الألوف ،وقد اتجهت الجموع الصاخبة إلى دار الأهرام القديمة تعلن احتجاجها وسخطها ، وقد حاولوا أن يحملوا الشيخ الغزالى معهم على الأعناق فرفض رفضا حاسما .

لقد سخر الشيوعى جاهين من عمامة إمامنا الغزالى ، ولكن الشيخ وقف فى المؤتمر فى اليوم التالى يقول جهرة: إن تحت هذه العمامة رأس مفكر ، كان يحارب الظلم والإقطاع ، أيام كان أمثال هذا الكاتب قوادين لفاروق !

وخرج الشيخ من المعركة مرفوع الهامة ، محفوظ الكرامة ، مرعيا بتأييد الله وحب الشعب»[(١)] .

استمرت جلسات المؤتمر بعد ذلك بصورة عادية ، ولما تقرر تأليف لجنة لوضع التقرير المطلوب عن الميثاق المقترح ، همس الغزالى فى أذن صديقه السيد سابق أن العمل الحقيقى قد بدأ، فإن المهم أن يوضع تقرير تبرز فيه الصبغة الإسلامية لمصر، ويخسر التيار اليسارى.

واستمات الشيخ السيد سابق ، مع عدد من أولى الإخلاص والغيرة فى وضع التقرير كما ينبغى ، وأمكن تقليم أظافر الشيوعيين ، ووضع التقرير المطلوب ، الذى لم يكن عبد الناصر راضيا عنه ، ولذلك لم يجد صعوبة فى طيه وإهمال إرادة المؤتمر ، وفرض ما يريده هو على المصريين [(٢)].

---

(١) د/ يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ٥٠ ، ٥١ .

(٢) قصة حياة ، م . س ، ص: ٢١٠ ، ٢١١ .

٩ـ جهاد ومتاعب مرة أخرى :

انتهى المؤتمر الكبير ، وخرج الغزالى منه مستريح القلب ، ولم يلحقه من موقفه فيه ضر عاجل .

لكن أعداءه وأعداء الإسلام ، لم يفوِّتوا له ما فعل دون أن يلحقوا به الأذى ، لقد تربصوا به عدة شهور ، حتى جاء إلى الأوقاف وزير جديد ، جرده من وظيفته كمدير للمساجد ، ورجع به القهقرى خمسة عشر عاما فى سلم الوظائف ، وعينه فى وظيفته القديمة كمفتش للمساجد ، وتم نقله من مكتبه الخاص إلى مكتب به بعض الموظفين والموظفات [١].

لم يكن ذلك كافيا ليشفى غيظ أعداء الغزالى منه ، بل ضموا إليه منعه من الخطابة فى الجامع الأزهر ، كما تحفظت الشرطة على طبع بعض كتبه ، وتمت مصادرة بعضها الآخر .

كما تم تبليغه بأن حظرا قد صدر ضده ، يقضى بمنعه من الظهور فى الإذاعات كلها مسموعة أو مرئية .

يقول الغزالى واصفا هذه الضائقة التى حلت به ، وكيف أخرجه الله منها:

«المقلق فى هذا الوضع أنى كنت بدأت بناء مسكن لى فى الجيزة ، وسأضطر لعدم الوفاء بما التزمت به ، ثم إن نفقاتى أنا ستقل بعد أن جف أغلب المنابع .

وأنزلت بالله حاجتى ، وكتمت مخاوفى فى أعماقى ، ولم تزل ابتسامتى عن فمى أمام أهلى وأصدقائى ،وكل يوم يمر يتناقص معه رصيدى ، ويتسلل القلق إلى فؤادى، بيد أنى أعلل النفس بالأمل ، وأرقب من الله الفرج .

وذهب الوزير الذى آذانى ، وجاء آخر ، لم يلبث غير قليل حتى أرسل إلىّ، فصعدت إلى مكتبه ، قال لى باقتضاب: دولة الكويت أرسلت تطلبك لتقضى شهر رمضان بها فى الدعوة والوعظ ، ألديك مانع؟ قلت: لا، فأمر باتخاذ إجراءات السفر.

عدت من الكويت،وقد قضيت شهرا مباركا ، أبيح لى فيه ما كان محظورا علىّ فى القاهرة ، حاضرت فى المساجد الكبرى ، وتحدثت إلى أمهات الصحف وسجلت دروسا كثيرة فى التلفاز والإذاعة ، وتعاقدت مع الناشرين على طبع عشرة من مؤلفاتى . . .

---

(١) م . ن ، ص: ٢١١ .

عدت من الكويت ، وكنت قبل سفرى شديد الوجل من الأزمات الزاحفة علىّ ، وكنت أحفظ حديثا عن رمضان أنه شهر «يزاد رزق المؤمن فيه» ، فسرنى أن جعلنى ربى فى عداد أولئك المؤمنين المعانين ، ووفَّيت بالتزاماتى كلها ، ومنحت قُصَّادى ما ألفوا نيله منى ، ولم يشعر ذو سلطة أنى محتاج إلى بابه ، فلله الحمد والمنة »[١].

عاد الغزالى بعد ذلك إلى الخطابة فى مسجد عمر مكرم بميدان التحرير ، فما إن سمع الناس بذلك حتى توافدوا على المسجد الذى كان يغص بهم ، مما كان يضطرهم إلى الصلاة فى الميدان المحيط به .

لذلك رأت مصالح الداخلية فى ذلك الحين أن تعترض على عودته إلى الخطابة ، مما جعل بعض أصدقائه ينصحونه بتركها من تلقاء نفسه ، بدلا من إحراج رؤسائه ، فاستجاب للنصيحة ، وكتب يعتذر عن الخطابة ، ورأى أن يحاضر فى المساجد الأهلية ، والأندية العامة ، وأن يشتغل بالكتابة التى هى هواه الأصيل[٢] .

لم تكن المتاعب قد انتهت بهذا الشكل ، فإن ما يخبئه الغيب كان أشد وأنكى، ليس على الغزالى وحده وإنما على الإسلاميين فى مصر بصفة عامة ، وأفراد جماعة الإخوان بصفة خاصة.

إذ أحس أعداء الإسلام أن المصريين متمسكون بدينهم ، راغبون فى الظهور بشعائره ، وفى أن يُحكموا بشرائعه. وكان جمال عبد الناصر ـ الذى كان يحكم مصر بالشيوعية ـ قد زار موسكو فى هذه الأثناء، وهناك قيل له: إن ترك الجماعات الإسلامية خصوصا الإخوان المسلمون ، ينشطون على هذا النحو ، سوف يدمر مستقبل الاشتراكية ، فأسرع جمال ـ وهو لايزال فى موسكو ـ بإعلان الحرب على الإخوان المسلمين ، وإنذارهم بالويل والثبور وعظائم الأمور .

وقد تم فى ليلة واحدة اعتقال ما يزيد على ثمانية عشر ألفا من العاملين فى الحقل الإسلامى، وكان الغزالى واحدا من هذه الآلاف .

وسبب اعتقال الغزالى أنه طُلب إلى الإذاعة ، وأبلغ أن الرئيس عبد الناصر قد أمر بتشويه صورة الإخوان وتحذير المواطنين من التعامل معهم أو الثقة بهم ، وطُلب منه أن يقوم بهذا العمل باعتباره واجبا وطنيا ، ولكنه رفض ذلك ، وقد بقى الشيخ فى المعتقل مدة عشرة أيام ، إلى حين عودة عبد الناصر من مؤتمر فى المغرب ، حيث أمر بإطلاق

---

(١) م . ن ، ص: ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) م . ن ، ص: ٢١٤ .

سراحه [١] .

وقد كان لخروج الغزالى من السجن وبقائه حرا طليقا ، أثر بارز فى الحفاظ على ما تبقى من صوت الإسلام فى الواقع المصرى ؛ حيث « بقى الغزالى فى الساحة يتحدث عن الإسلام ويبلغ رسالته، وإن لم تكن له الحرية الكاملة ، ولكن صوته كان مسموعا، وكاد يكون هو الصوت الإسلامى الوحيد البين ، الذى يجأر بالدعوة إلى الله . . . وكان هو الشمعة الهادية فى تلك الفترة الحالكة الظلمات ، وكان لسان هذه الشمعة يهتز ويتأرجح ويوشك أن ينطفئ، كلما هبت الريح من يمين وشمال ، لولا أن لله مشيئة وحكمة أن يظل نورها مضيئا ، حتى تبزغ شمس الحرية يوما» [٢] .

وقد «وقف الشيخ الغزالى مع المخلصين لحماية الأزهر من التردى ، وكان يحاضر فيه شبه محتسب ، ووضع يده فى يد الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله ـ عميد كلية أصول الدين فى ذلك الحين ـ فتعاونا على إنقاذ الأزهر » [٣] .

مرت الظروف على هذه الحال ، حتى وفاة عبد الناصر ، ومجىء السادات مكانه ، حيث أعاد الاعتبار للشيخ الغزالى ، وأمر الدكتور عبدالعزيز كامل وزير الأوقاف بتكليفه بسلطات وكيل الوزارة ، وقد صدر قرار هذا الأخير بذلك فى ١٨ يوليو ١٩٧١م [٤].

لم يفوت الغزالى فرصة حصوله على هذه الثقة ، ليستثمرها فى خدمة الدعوة ، فكان يشتغل دون كلل أو ملل ، وأدخل الكثير من الإصلاحات على مجالات تكوين الأئمة وتدريبهم ، وزود المساجد بالمكتبات ، وكان ينتقل إلى الأقاليم فيجتمع برجال الدعوة شهريا ، وكانت الوزارة تنظم فى كل عام مسابقة فى عدة كتب مختارة . . . إلخ .

ولم يكتف الغزالى بهذه الجهود الضخمة التى كان يبذلها فى إطار عمله الرسمى بوزارة الأوقاف ، بل كان يضم إليها جهودا إضافية كثيرة ، لعل أهمها فى تلك الفترة ما قام به بعد حرب ١٩٦٧م ، رفقة الشيخ حافظ سلامة ؛ إذ كوّنا معا فريق عمل فى

---

(١) م . ن ، ص: ٢١٤ ـ ٢١٦ .

(٢) د / يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ٤٣ .

(٣) د / عبد الحليم عويس : الشيخ الغزالى ؛ مراحل عظيمة فى حياة مجاهد عظيم ، م . س ، ص: ١٧ .

(٤) محمد شلبى: الشيخ الغزالى ومعركة المصحف فى العالم الإسلامى ، م . س ، ص: ٢٥ .

الدعوة يجوب أرجاء المعمورة ليلتقى بالجنود يثبت الهمم ويزرع الإيمان فى النفوس الهابطة ، ويصول ويجول يحرض المؤمنين على القتال . وقد كان لجهوده تلك أثرها البارز فى تحقيق النصر على اليهود فى حرب العاشر من رمضان سنة ١٩٧٣م ؛ إذ استطاع هو ورفقاؤه من شيوخ الأزهر ورجاله ، ومنهم الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله ، أن يعيدوا بناء نفسية المقاتل المصرى بناء إسلاميا ، وأن يبثوا فى شرايينه الدماء التى كانت تحتاجها معركة الأمة مع أعدائها ومنتهكى حرماتها ، وغاصبى أرضها ، ومهددى أمنها (١) .

ولما جاء الدكتور عبد الحليم محمود ، رحمه الله ، إلى وزارة الأوقاف لم يتردد فى تكليف الشيخ الغزالى بالخطابة فى جامع عمرو بن العاص الذى كان قد فقد صبغته الدينية كمسجد ، وقبل الغزالى المهمة ، وبدأ الكفاح الصعب ، فإذا بالمسجد يتضاعف رواده ، وبعد أن كانوا بضع عشرات لا تصح صلاة الجمعة بهم - فى بعض المذاهب - أصبحوا مئات ، ثم آلافا ، وقدّرت وزارة الداخلية المصلين فى بعض الجمع بثلاثين ألفا (٢).

كانت خطب الغزالى تصب - فى أكثرها - فى دائرة التفسير الموضوعى المقرون بالنظر إلى الواقع ؛ لذلك كان « فى هذه الخطب ، كما فى مقالات الشيخ وكتبه ، نقد لبعض الأوضاع وكشف لبعض المخبوء من المكايد والتآمر على الإسلام وأمته . وهذا لم يرض السياسة المصرية ، وحُذِّر الشيخ من هذا التوجه الذى يلتزمه . ولكن الشيخ استمر فى طريقه الذى رسمه لنفسه ، ولم يصغ لما نصحه به رئيسه الدكتور عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء للأوقاف والشؤون الدينية ، فكان لابد أن يوقف هذا النشاط ، ويُعزل الشيخ عن الخطابة فى المسجد ، وأن يوضع فى القائمة السوداء » (٣) .

والذى زاد الطين بلة ، وجعل الغزالى يوضع فى قائمة المغضوب عليهم ، أنه حين أراد السادات تغيير قانون الأحوال الشخصية، فيما سمى بقانون: «جيهان» ، وقف

---

(١) د / طه جابر العلوانى: شيخنا الغزالى وصفحات من حياته ، إسلامية المعرفة ، م . س ، ص: ١٥ .
- انظر أيضا: د / علاء محمد الغزالى: السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالى ، ضمن كتاب: العطاء الفكرى للشيخ محمد الغزالى (حلقة دراسية) ، تحرير: د / فتحى حسن ملكاوى ، ط: ١ ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى - عمان (الأردن) ، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م ، ص: ١٨٩ ، ١٩٠ .
(٢) قصة حياة ، م . س ، ص: ٢٢٥ - ٢٢٨ .
(٣) د / يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ٥٢ .

الغزالى فى وجهه، إذ ألقى محاضرة فى نهاية الموسم الثقافى لجامعة القاهرة، ندد فيها بما يحدث، ثم حرض الجماهير فى خطبته بجامع عمرو بن العاص، فخرجت فى مظاهرة شعبية عارمة ، مما دفع السادات وزوجته إلى التراجع عن المشروع (١) .

١٠ـ جهود الدعوة خارج مصر :

بعد أن سُحبت من الشيخ اختصاصاته فى وظائف الدعوة ، وجد نفسه على «حصير» ـ دون مكتب ـ فى «سندرة» ملحقة بمسجد صلاح الدين بالقاهرة ، فجلس على الحصير يشتغل بالتأليف (٢) .

ولما رأى الشيخ أن الدولة أصبحت تضيق به ذرعا ، وأن عليه أن يبحث عن مكان آخر ، قبِل العرض الذى جاءه من جامعة أم القرى للتدريس بها ، ورحب بمجاورة الحرم الشريف ، تاركا الميدان فى مصر رغما عنه (٣).

فى السعودية قدم الشيخ الغزالى « للدعوة الكثير ، فقد كان له برنامج يومى فى المذياع يحبه الناس ،كما كان يشارك فى التلفاز ، وفى الصحف ، فضلا عن جهوده فى تربية طلابه فى جامعة أم القرى ، لا سيما طلاب الدراسات العليا ، بالإضافة إلى معاونته للمسؤولين عن الجامعة وإسهاماته فى مجالس الجامعات الأخرى ، ومع أجهزة الدعوة المختلفة بالمملكة » (٤) .

وبعد سبع سنوات قضاها الغزالى بالمملكة السعودية ، توسط الأستاذ الدكتور زكريا البرى ، وكان وزيرا للأوقاف ، لدى السادات ، وأقنعه برفع الغبن الواقع على الشيخ الغزالى ، فأصدر السادات يوم ٨ مارس/ ١٩٨١م، قرارا جمهوريا بتعيينه وكيلا لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية (٥).

ولكن الغزالى ما إن تسلم منصبه ، حتى تركه بعد يومين اثنين لا غير ، إذ آثر أن يستقيل من المنصب ، بعدما عرف أنه لم يكن سوى وسيلة لتدجينه وكسب تأييده واتقاء جانبه (٦).

---

(١) د / عبد الحليم عويس: الشيخ الغزالى ؛ مراحل عظيمة فى حياة مجاهد عظيم ، م . س ، ص: ١٦ .
(٢) د / محمد عمارة: الشيخ محمد الغزالى ؛ الموقع الفكرى والمعارك الفكرية ، م . س ، ص: ١٥ .
(٣) د / يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ٥٢ .
(٤) د / عبد الحليم عويس: الشيخ الغزالى ؛ مراحل عظيمة فى حياة مجاهد عظيم ، م . س ، ص: ١٨ .
(٥) قصة حياة ، م . س ، ص: ٢٢٨. انظر كذلك: محمد شلبى: الشيخ الغزالى ومعركة المصحف فى العالم الإسلامى ، م . س ، ص: ٢٥ .
(٦) قصة حياة ، م . س ، ص: ٢٢٩ .

التحق الغزالى بعد ذلك أستاذا فى كلية الشريعة بجامعة قطر ، حيث « كان يمضى نصف عام كل سنة ، فكان له دور كبير فى تطوير كلية الشريعة ، وفى تخريج أجيال صالحة منها ، وفى نشر الوعى الإسلامى فى أجهزة الإعلام وفى المساجد والمنتديات ، وكان يعامل كضيف لدى حكومة دولة قطر ، ويحظى باحترام ويُستشار فى كثير من الأمور .

ولفترة طويلة دأبت دولة الكويت ـ كذلك ـ على دعوته خلال شهر رمضان من كل سنة ، حيث كان يشارك فى بعث الوعى الإسلامى ، ويلقى المحاضرات ويشارك وزارة الأوقاف بالكويت فى كل ما تطلبه منه .

وقد كان الشيخ يُدعى دائما إلى المؤتمرات الشبابية والطلابية فى أوربا وأمريكا، وكان له دور رائد فى أكثر المؤتمرات ، وكان يُعزى إليه فضل نجاح كثير من تلك المؤتمرات ، ويمثل مواقع رئيسة فى إدارتها الفكرية » (١) .

١١ـ فى الجزائر ومع الشعب الجزائرى:

كانت صلة الشيخ الغزالى بالجزائر مستمرة ، وهو فى مصر وفى السعودية وفى قطر ؛ إذ كان شبه مواظب على حضور ملتقيات الفكر الإسلامى التى كانت تعقدها وزارة الشؤون الدينية كل سنة ، حيث كانت له بها صولات وجولات فيما يلقيه فيها من محاضرات أو ما يتقدم به من تعقيبات، أو فيما يقفه فيها من مواقف مشهودة ومذكورة.

وفى أحد هذه الملتقيات فى أوائل الثمانينيات ، أبرق إلى الشيخ ابنُه ، بألا يعود إلى مصر؛ لأن الرئيس السادات كان قد أصدر قرارا برميه فى السجن ، نتيجة تصريحات أدلى بها منتقدا السياسة المصرية التى أفضت إلى هزيمة ١٩٦٧م . وكان قد حضر فى ختام أعمال ذلك الملتقى الرئيس الشاذلى بن جديد، فأبلغه الأستاذ عبد الرحمن شيبان ، وزير الشؤون الدينية فى ذلك العهد بالخبر ، فسلم ابن جديد على الشيخ الغزالى ورحب به داعية فى الجزائر .

كانت الجهود ـ آنذاك ـ متتابعة لفتح جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة ، وقد أصدر الرئيس ابن جديد مرسوما بإنشاء هذه الجامعة، وكان حريصا أشد الحرص على أن يكون الشيخ محمد الغزالى أستاذا فيها. وكان هذا الأخير أستاذا فى جامعة قطر بالدوحة ، فتم استئذان أمير قطر فى تحويل الشيخ الغزالى إلى الجزائر ،

---

(١) د/ عبد الحليم عويس: الشيخ الغزالى ؛ مراحل عظيمة فى حياة مجاهد عظيم ، م . س ، ص: ١٩ .

فوافق على ذلك . وشاء الله أن يحضر الشيخ الغزالى إلى حفل افتتاح الجامعة بمدينة قسنطينة ، فى بداية السنة الجامعية الأولى بهذه الجامعة ، فى سبتمبر ١٩٨٤م ، وكان حفلا كبيرا حضره رئيس الدولة وعدد كبير من المسؤولين وسفراء الدول الإسلامية . وتم تعيين الشيخ رئيسا للمجلس العلمى للجامعة .

اختار الشيخ أن يدرس تفسير القرآن الكريم ، وصار فى الجامعة موجها وأستاذا ، ومفتيا ، يزوره الناس للفتوى فى الجامعة ، وفى بيته .

وكان من أهم أعماله العامة التى اضطلع بها : الدعوة إلى الله عز وجل، وتحليل قضايا المسلمين ، ونقد ما يعانون من أمراض ومآس . كما كان يلقى من على شاشة التلفزيون حديثا أسبوعيا ينتظره الناس فى مختلف أرجاء البلاد الواسعة بشغف كبير ، ولايفوتون مشاهدته والاستماع إليه إلا لضرورة قاهرة . وكان يلقى فى قسنطينة كل يوم جمعة تقريبا درسا فى أحد مساجدها الجامعة ، وغالبا ما يكون فى التفسير الموضوعى لسورة من السور، ينزلها على أوضاع المسلمين قديما وحديثا.

وكان يفعل هذا أيضا فى جولات يُدعى فيها إلى ولايات أخرى فى الجزائر غير ولاية قسنطينة ؛ حيث كان الناس يتنافسون على دعوته لإلقاء درس أو موعظة أو محاضرة . وكان لا يرد دعوة وإن شق عليه السفر أحيانا ، وهو فى شيخوخته تحسبه شابا فى عزمه وتوكله ، ينتقل أحيانا بالسيارة مسافات بعيدة ، وأخرى بالطائرة ثم بالسيارة ، وهو فى ذلك كله يشعر بسعادة غامرة فى دعوته إلى الله ، وفى لقائه مع المؤمنين شبابا وشيوخا ، نساء ورجالا (١).

ولم يكن الشيخ يُفوِّت فرصة حضور ملتقيات الفكر الإسلامى خلال عمله بالجزائر، وكانت له فيها مواقف معروفة ، منها موقفه فى أحد الملتقيات التى انعقدت فى أواخر الثمانينيات من الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى حفظه الله، عندما وقف هذا الأخير « يتحدث عن ضرورة اشتغال الدعاة بالتربية والتوجيه ، وترْك السياسة لأربابها ، ويكفى الحكام أو الساسة ما يعانون من متاعب الحكم وآفات السياسة . . إلى آخر ما قال حول هذا الموضوع ، مما أثار الحاضرين فى الملتقى وأقلقهم .

وكان الرئيس الجزائرى الشاذلى بن جديد حاضرا فى ذلك الوقت ، وشعر

---

(١) د / عمار الطالبى: الشيخ الغزالى كما عرفته فى الجزائر . ضمن: مجلة إسلامية المعرفة ، م . س ،ص: ٤٩ ـ ٥١ .

المشاركون بالحرج ، هنا طلب الشيخ الغزالى الكلمة ، وصعد إلى المنصة ، وأثنى على صديقه الشيخ البوطى ، ولكنه خطَّأه فى توجهه ، وقال:

إن العَالِم المسلم لا يسعه أن يسكت عن باطل ، أو يغمض عن ظلم ، أو يتغاضى عن المنكرات من حوله ، وأكبرها تعطيل الحكم بما أنزل الله ، وأن الإسلام لا يعرف الفصل بين الحكم والعلم،وأن المسلمين إنما أصيبوا وهزموا يوم فصلوا بين الأمرين .. إلى آخر ماقاله ـ رحمه الله .

وبذلك وضع الشيخ الحق فى نصابه ، وأتى الأمر من بابه ، واستراح الجميع لتعليق الشيخ ، ومنهم ابن جديد نفسه » (١) .

قضى الغزالى فى الجزائر خمس سنوات على هذه الحال ، يجد ويجتهد ويتعاون مع أهل الخير فى الدعوة إلى الله وتوعية المؤمنين بنشر الفكر الإسلامى الصحيح . حتى جاءت سنة ١٩٨٩م ، وبدأت الاضطرابات تغزو الجامعة الإسلامية ، وتصاعد النزاع بين أفراد الجماعات الإسلامية المختلفة داخل الجامعة كل منهم يريد بسط سيطرته عليها ، وكان لابد أن يصيب الغزالى بعض الشرر المتطاير من هذه النزاعات ، بل إن البعض تطاول عليه بالاتهام والافتراء .

وكان الشيخ فى ذلك الوقت قد تعِب لما أصابه من جلطة فى دمه ، كما أصابه وصب وضير من اختلاف وتنازع هذه الجماعات خارج الجامعة وداخلها . وفى هذه الأثناء كانت قد زارت الشيخ إحدى بناته ، وشعرت بما فيه أبوها من ضيق وقلق ، وما أصابه من جلطة فى دمه ، فألحَّت عليه فى العودة إلى القاهرة، وإن كان فى نفسه عازما على المضى فى سبيل المناضلة والدعوة ، فكتب خطابا لوزير التعليم العالى يعتذر فيه عن الاستمرار . ورغم إلحاح السلطات الجزائرية على الشيخ بالاستمرار، إلا أنه أصر على الاعتذار (٢) .

كان الغزالى قد تبوأ مكانة جليلة فى نفوس الجزائريين، لم يتبوأها من قبل إلا قليل من الرجال الذين يدين لهم هذا الشعب بالفضل كابن باديس والإبراهيمى، حيث « التف حول الشيخ الملايين وتجمع فى خطبه الألوف وبدءوا يعلقون صوره فى الحوانيت والبيوت، ويتلمسون أخباره فى التلفاز، ويتابعونه فى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة .

---

(١) د/ يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ٢٧٠ .

(٢) د/ عمار الطالبى: الشيخ الغزالى كما عرفته بالجزائر ، إسلامية المعرفة، م . س ، ص:٥٢ ـ ٥٥ .

وقد عم الحزن فى القطر الجزائرى عندما تركه الإمام عائدا إلى مصر ، وتبادل البعض التعازى لفراق الشيخ الذى ملأ القلوب » (١) .

وقبل مغادرة الشيخ للجزائر ـ بعد خمس سنوات من العمل الدؤوب ـ كرَّمه رئيس الجمهورية السيد الشاذلى بن جديد بتقليده أعلى وسام فى الجمهورية ؛ مكافأة له على جهوده المتواصلة فى خدمة الدعوة بالجزائر ، وعرفانا بفضله على الجزائر وعلى الشعب الجزائرى .

١٢ـ مع المعهد العالمى للفكر الإسلامى بالقاهرة :

قبل أن يغادر الشيخ الغزالى قسطنينة ، كان قد زاره فيها الأستاذ الدكتور طه جابر فياض العلوانى ، رئيس المعهد العالمى للفكر الإسلامى بواشنطن ، وعرض عليه أن يرأس المجلس العلمى للمعهد بالقاهرة ، وأن يهيئ له المعهد ـ فى حدود إمكاناته المتواضعة ـ أسباب البقاء فى القاهرة ، فهش الغزالى للفكرة وأعجب بها. وتم التفاهم بين الرجلين على جدول زمنى يعود فيه الشيخ إلى مصر ؛ ليكون رئيس المجلس العلمى لمكتب المعهد فيها ، وواحدا من أبرز مستشاريه وموجهى مسيرته .

بعد عودة الغزالى إلى مصر ، باشر مهامه فى رئاسة المجلس ، الذى كان يضم لفيفا من كبار مفكرى مصر فى العصر الحاضر ، وهم الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، والأستاذ المستشار طارق البشرى ، والأستاذ الدكتور محمد عمارة ، والأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتى ، والأستاذ الدكتور محمد سليم العوا ، والأستاذ الدكتور جمال الدين عطية ، ثم انضم إليه الأستاذ الدكتور سيد دسوقى حسن ، والأستاذ الدكتور على جمعه ، والأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيرى ، والأستاذة الدكتورة زهيرة عابدين ، يضاف إلى هؤلاء مجموعة من الأساتذة الخبراء الذين للمجلس أن يدعوهم للاستماع إلى آرائهم إذا ما عرضت أمور تحتاج إلى خبرات أو تخصصات إضافية .

وكان هذا المجلس يجتمع شهريا ، أو كلما دعت الحاجة ، فى مكتب الشيخ الغزالى ، الذى يقع تحت منزله ، وقد كانت تلك المرحلة مرحلة إنتاج خصب على مستوى الندوات والمحاضرات والبحوث ، وكان الشيخ واسطة العقد فى كل تلك النشاطات ، قَلَّ أن يتخلف عن ندوة أو محاضرة أو لقاء .

---

(١) د / علاء محمد الغزالى: السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالى ، م . س ، ص: ١٩٤ .

وفى هذه المرحلة أعد الشيخ دراساته القيمة فى كيفية التعامل مع القرآن وكيفية التعامل مع التراث الإسلامى ، وقضايا الفنون وموقف الإسلام منها ، وكثير من القضايا الأخرى .

وصدر له عدد من الكتب المهمة ، هى: كيف نتعامل مع القرآن؟، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ، تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل ، نحو تفسير موضوعى لسور القرآن . . .

وفى خلال هذه المرحلة أيضا ، أتيح للشيخ الغزالى تسجيل أهم خبراته خلال حياته الحافلة بالعطاء ، حيث جمع المعهد كتب الشيخ وقدمت لمجموعة من أفضل المفكرين لدراستها أولا ، ليقوموا بمحاورة الشيخ فى أفكاره ، ويتتبعوا مسيرة حياته العلمية والفكرية ، ويبرزوا جوانب مختلفة من مقومات شخصيته ومكوناتها . وكان من بين من حاوروا الشيخ: الأستاذ المستشار طارق البشرى ، والأستاذ الدكتور محمد سليم العوا ،والأستاذ الدكتور محمد كمال إمام ، والأستاذ الدكتور جمال الدين عطية، والأستاذ الدكتور محمد عمارة ، والأستاذة صافيناز كاظم . وقد أربت هذه التسجيلات المصورة على خمس عشرة ساعة ، وتولت بالتحليل والحوار أهم جوانب حياة الشيخ الحافلة (١) .

١٢ـ راحة الكادح الصبور:

خلال هذه السنوات الأخيرة من عمر الشيخ ، « كرمته كثير من الدول العربية والإسلامية ، فقد حصل على جائزة الدولة التقديرية من جمهورية مصر العربية، كما حصل على جائزة الملك فيصل العالمية فى مجال خدمة الإسلام ، وعلى أرفع وسام فى موريتانيا ، وأرفع وسام فى الجزائر ، بالإضافة لكثير من الجوائز التقديرية ، كما كرمته السعودية وقطر والسودان .

وفى نهاية ١٩٩٠م ، حصل على جائزة دولية من باكستان ، تقديرا لجهوده فى الدعوة الإسلامية ، كما منحته ماليزيا فى سنة ١٩٩٦م وسامها الأول ، بالإضافة لكثير من جوائز الدولة التقديرية ونياشينها .

ومما يذكر أن الإمام الكبير ، لم تزده كل هذه الأوسمة إلا تواضعا وذلا لله وحده،

---

(١) طه جابر العلوانى : شيخنا محمد الغزالى وصفحات من حياته ، مجلة إسلامية المعرفة ، م . س ، ص : ١٠ ـ ١٢ .

فعندما تسلم جائزة الملك فيصل العالمية ، ردد قوله تعالى:

﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص : ١٧] » (١) .

والحق أن الغزالى « لم يسْع لجائزة ، بل كان حصوله على الجوائز تشريفا للجوائز نفسها ، وارتفاعا بمستواها » (٢) .

وقد ظل الغزالى ثابتا على مواقفه ، دائبا فى جهوده ، يعمل دون كلل أو ملل، يستجيب لأى دعوة أو طلب لخدمة الإسلام والدعوة الإسلامية .

وقد قام فى الفترة الأخيرة من عمره بجهود يعجز عنها الشباب ، وكان منها سفره إلى البوسنة والهرسك ومشاركته لأهلها فى محنتهم وأحزانهم ووقوفه إلى جانبهم فيما واجهوه من هجمات صليبية حاقدة ؛ حيث «قام - هناك - بدور أشبه بما قام به فى حرب رمضان ، رغم سنه الكبيرة وصحته البالية ، وعند عودته شارك فى المؤتمرات التى عقدت لمناصرة الشعب المنكوب ، ولم يدخر جهدا إلا وقدمه لهم سرا وعلانية . وكان يتناول المتقاعسين عن نصرتهم بالنقد والتوبيخ ، ويلفت أنظار الغافلين التائهين . وآخر ما قدمه لهم مشروع دستور لدولتهم الناشئة يتفق مع الشريعة الإسلامية .

ولم ينس أن يذكر دور الشيشان ، ويلوِّح بمجازر الروس فى بلادهم ، ويحرض المسلمين على القتال ويثبتهم بالمحاضرات أو المقالات التى تبعث الحماس والحياة فى النفوس الميتة» (٣).

وفى نوفمبر ١٩٩٥م، سافر الشيخ إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ليقول كلمة الأمة الإسلامية فى احتفالات هيئة الأمم المتحدة بعيدها الخمسين (٤).

وكان آخر جهد قام به الشيخ الغزالى ، هو سفره إلى الرياض فى المملكة العربية السعودية ، للمشاركة فى مهرجان الجنادرية الثقافى ، وفى اليوم الرابع من أعمال هذا المهرجان ، وخلال إلقائه لمحاضرته ، جاء قضاء الله بقبض روحه الطاهرة ، حيث أصيب بنوبة قلبية نقل إثرها إلى المستشفى ، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها عز وجل ، مساء يوم السبت ٩ مارس ١٩٩٦م، وتم نقل جثمانه إلى

---

(١) د / علاء محمد الغزالى: السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالى ، م . س ، ص: ١٨٥ .

(٢) د / عبد الحليم عويس: الشيخ الغزالى ؛ مراحل عظيمة فى حياة مجاهد عظيم ، م . س ، ص: ١٢ .

(٣) د / علاء محمد الغزالى: السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالى ، م . س ، ص: ١٩٥ .

(٤) د / طه جابر العلوانى: عالم فقدناه ؛ الشيخ محمد الغزالى رحمه الله ، مجلة إسلامية المعرفة - ماليزيا ، السنة الأولى ، ع: ٤ ، ذو القعدة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م ، ص: ١١ .

المدينة المنورة ،حيث دفن فى مقبرة البقيع بالمدينة المنورة ، رحمه الله .

وقد كان لخبر وفاته دوى هائل فى أرجاء العالم الإسلامى كله ،بل وحتى خارجه، لم يحظ بمثله الملوك والرؤساء ؛ إذ بكاه الملايين ، ونعتْه وكالات الأنباء ووسائل الإعلام العالمية ، وأقيمت لتأبينه الندوات والمؤتمرات فى الجامعات والمراكز العلمية والثقافية فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى .

١٣ـ حصاد السنين:

لقد أدبر الشيخ الغزالى مستريحا من دنيانا هذه ،بعدما ترك وراءه ـ كصدقة جارية ـ تراثا ضخما وإنتاجا هائلا ، تمثل فى الآلاف،بل الملايين،من التلاميذ والمحبين والمتأثرين والقارئين والمستمعين والمشاهدين فى بقاع العالم المختلفة التى زارها وأقام بين أهلها ، وهى كثيرة جدا .

هؤلاء الذين قد يجدون عزاءهم فيما خلفه الفقيد من تراث فكرى متنوع ، يزيد على الستين كتابا [١] فى مختلف مجالات المعرفة الإسلامية ، إضافة إلى مئات المقالات وآلاف الخطب والدروس والمحاضرات التى ألقاها فى مختلف بقاع العالم الإسلامى التى حل فيها وأقام بين أهلها .

وقد تناول هذا التراث مختلف الاهتمامات التى ألحت على فكر الشيخ وجعلته يتفاعل معها فى كتاباته ومحاضراته وخطبه ودروسه ، وهى اهتمامات تمتد لتشمل قضايا العصر كلها،من دفاع عن الإسلام ضد المعتدين عليه إلى إثارة لهمم أبنائه الجاهلين به ؛ فى قضايا العقيدة والشريعة والأخلاق ، ومنهج الدعوة ، والتاريخ ،والتفسير الموضوعى ، والثقافة الإسلامية العامة. . .إلخ .

وقد منح الله عز وجل عبده الكريم القبول ، فأحبه الناس ، حتى غير المتدينين منهم ، وأكبوا على قراءة مؤلفاته ، حتى أن أكثرها ترجم إلى مختلف اللغات العالمية ، كما اهتموا بتتبع محاضراته ودروسه والإنصات إلى توجيهاته ، متخذين من كل ذلك منهجا يسيرون عليه فى حياتهم ويستعينون به فى تطبيق شريعة ربهم .

ولكن مع ذلك ، فلا يزال الكثيرون من المسلمين أنفسهم ، يجهلون قدر هذا الرجل ، بل ربما نظر إليه بعضهم نظرة ريبة واتهام . ولو عرفوا لقدَّروا فى الرجل

(١) انظر ثبتا تحليليا كاملا بمؤلفات الشيخ الغزالى ، فى مجلة إسلامية المعرفة (عدد خاص) ، م . س ، ص: ٢٣٠ ـ ٢٤٧ .

جهاده المتواصل وإخلاصه التام ويقينه الصادق ونصحه المخلص . ولكنها سنة الحياة .

ختاما : إذا كنا نعزى أنفسنا فى الشيخ ، فيما خلفه لنا من تراث ، وفيما بقى بيننا بعده من العلماء العاملين ، وهم قليلون جدا ، فإننا نخشى أن تكون وفاته بداية لنهاية المعرفة الإسلامية العاملة فى العصر الحاضر ، الذى ارتد فيه المسلمون على أدبارهم ، فضيعوا كتاب ربهم وسنة نبيهم واتبعوا سبل أعدائهم [١] . . نخشى أن يكون الأمر كما قال النبى ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا من صدور العلماء، ولكن يقبضه بقبض العلماء» [٢].

رحم الله شيخنا وإمامنا محمد الغزالى ، وأسكنه فسيح جناته ، وأعلى قدره فى عليين ، مع النبيين والشهداء والصديقين ، وحسن أولئك رفيقا ، فقد أدى واجبه وآب إلى ربه راضيا مرضيا.

---

(١) مسعود فلوسى: الشيخ محمد الغزالى فى جوار الله . . انتزاع العلم بقبض العلماء . جريدة «الأوراس الكبير» ـ باتنة (الجزائر) ، ع:٢٧ ، من ١٨ إلى ٢٤ مارس ١٩٩٦م .

(٢) أخرجه البخارى ، فى العلم ، باب: كيف يطلب العلم ؟ رقم (١٠٠)، ومسلم فى العلم ، باب: رفع العلم وقبضه ، رقم (٢٦٧٣) .

الفصل الثانى

أصـول وروافـد

الاتجاه الموضوعى فى التفسير عند الغزالى

أصول وروافد الاتجاه الموضوعى فى التفسير عند الغزالى

ليس هناك أدنى شك فى أن اهتمامات الإنسان ، والشواغل التى تفرض هيمنتها على تفكيره واهتمامه ، هى نتيجة لظروف ومؤثرات وعوامل ساهمت فى تشكيل رؤيته الفكرية على نحو معين ، وهذه الرؤية هى التى ينطلق منها بعد ذلك فى التعامل مع الوقائع والمشكلات والأفكار ، وهى التى تساهم فى تشكيل منهج هذا التعامل ، وتصبغه بصبغتها الخاصة .

والغزالى ، كأى مفكر آخر ، لابد أن تكون هناك روافد خاصة ترفد منهجه الفكرى ، باعتبارها هى التى ساهمت فى تشكيله على نمط معين ، وتدفع به إلى الاهتمام بقضايا بعينها ، وتحمله على معالجتها بمنهج محدد أيضا ينهل خصائصه من تلك المؤثرات .

وفى تتبعى للتراث التفسيرى للشيخ الغزالى تبينت لى جملة من العوامل ، هى فيما أتصور الأصول والروافد التى ساهمت فى اهتمامه بمنهج التفسير الموضوعى ، وفى أن يحوز توجه الغزالى فى هذا الإطار صفة الريادة والتجديد والإبداع ، وهذه الروافد هى: البيئة الأسرية ، والاستعداد الشخصى ، والتكوين العلمى ، وطبيعة المشكلات التى واجهت الدعوة فى عصرها الحاضر .

* * *

١ـ المنبت الطيب :

ما من إنسان إلا وهو ابن البيئة التى يولد فيها ، وينشأ ويترعرع بين أحضانها، فينشأ وهو يحمل الأفكار السائدة فيها ، وتصطبغ حياته وسلوكاته وتوجهاته فى الحياة بمقوماتها وخصائصها الثقافية والحضارية .

ولذلك قيل: الإنسان ابن بيئته.

ولاريب أن البيئات تختلف فيما بينها من جوانب عدة:

فهى تختلف فيما بينها من حيث نمط الحياة الذى يسير عليه أبناء كل منها ، إذ تتباين طرقهم فى المأكل والمشرب ، وتختلف تقاليدهم فى نوع الألبسة التى يرتدونها، وتتفاوت أساليبهم فى بناء الدور التى يتخذونها للسكنى ، وهكذا .

ولعل على رأس ما يظهر فيه التباين بين البيئات واضحا جليا ؛ تباينها من جهة ما

يحمله أبناء كل منها من عقيدة ، ينطلقون منها فى توجهاتهم وسلوكاتهم ومواقفهم فى الحياة .

وعقيدة كل أمة أو فئة قلت أو كثرت من الناس ، عادة ما تكون لها تأثيراتها العميقة فى البناء الفكرى والحضارى والثقافى لتلك الأمة ، وهو ما يجعلها تحاول ـ ما أمكنها ـ أن تسير فى حياتها على مقتضى ما تمليه عليها تلك العقيدة ، وتعمل على تنشئة أبنائها على مقتضى مبادئ تلك العقيدة ومقوماتها الأساسية .

والمجتمع الإسلامى ، الذى نشأ بنزول القرآن الكريم على النبى ﷺ ، ثم امتد بعد ذلك فى شعاب الحضارة والتاريخ ، عبر مسار زمنى طويل بلغ اليوم خمسة عشر قرنا من الزمان ، ورغم ما بُلى به من عوامل الهدم والتدمير ، إلا أنه ظل ـ عبر عمره الطويل ـ محافظا على مقوماته الأساسية التى ما فتئت تعبر عن هويته الحقيقية ، والتى لم تتمكن كل عوامل الهدم والتخريب من تجريده منها .

فمن المآثر التى لا يزال الكثير من المسلمين متمسكين بها ـ رغم بعدهم عن كثير من أحكام الإسلام الأخرى وحتى بعض الأحكام الأساسية منها ـ حرصهم على تربية أبنائهم ـ منذ نشأتهم الأولى ـ على الاتصال بكتاب الله عز وجل،وذلك بإدخالهم المدارس القرآنية المعروفة بالكتاتيب،حيث تبدأ صلتهم الأولى بحروف اللغة العربية ؛ إذ يحفظونها ويتعلمون كيفية كتابتها ، ثم يتدرجون بعد ذلك فى حفظ كتاب الله عز وجل شيئا فشيئا،فمنهم من يتم حفظه،ومنهم من يتوقف فى بداية الطريق،ومنهم من يتوقف فى وسطه ، وذلك تبعا لنوع التربية التى يُؤخذ بها الطفل ، وتبعا لما للتعليم القرآنى من أهمية فى نظر الوالدين،وكذا تبعا لمدى قرب هذين الوالدين أو بعدهما عن الوعى الصحيح بقيمة القرآن الكريم وأهميته فى تربية المسلم وأثره فى حياته كلها،وكل ذلك مرتبط بمدى التزامهما بأحكام الإسلام فى حياتهما الخاصة والعامة،أو عدم التزامهما بها.

ومُتَرْجَمُنا؛ محمد الغزالى،إنما ولد ونشأ فى بيئة كهذه، أهم ما يميزها أنه ولد لأب تقى ورع يحب الله ورسوله ويحرص على تعلم كتاب الله عز وجل وتعليمه . فقد كان الشيخ أحمد السقا ، رحمه الله ، رجلا مؤمنا فاضلا ، يفيض قلبه بحب الله عز وجل وحب رسوله الكريم محمد عليه الصلاة والسلام . وكان شديد الإعجاب بالإمام أبى حامد الغزالى ، حجة الإسلام ،رحمه الله (ت ٥٠٥هـ)، مؤلف: «إحياء علوم الدين» وغيره من الكتب الفريدة النافعة ، متأثرا بنزعته الصوفية . وقد تراءى له ـ فى المنام ـ ذات ليلة،فأخبره أنه سيتزوج وينجب غلاما،وأشار عليه أن يسميه «الغزالى» (١)، وهو

---

(١) الشيخ الغزالى بقلمه ، ضمن كتاب «خطب الشيخ محمد الغزالى فى شؤون الدين والحياة » جمع وتقديم: قطب عبد الحميد قطب ، مكتبة رحاب ـ الجزائر ، (د . ت) ، ج: ١ ، ص: ٩ .

ما حدث بالفعل .

ومما يُذكر عن الشيخ أحمد ، رحمه الله ، أيضا ؛ أنه كان من حفظة القرآن يتلوه ويتدبره ، ويتعهده بالتثبيت فى صدره (١).

لذلك ، لم يكن غريبا أبدا أن ينشئ هذا الوالد الفاضل ولده البكر «محمد الغزالى» على ما نشأ عليه هو وأحبه وأخلص له ، ألا وهو حفظ القرآن الكريم ، فما إن بلغ هذا الولد سن التعلم حتى « أدخله كتاب القرية ليتعلم الخط والحساب، وليحفظ القرآن . فكان يحفظ حصته المقررة على الشيخ ، ويضيف إليها حصة أخرى على والده ، فما إن بلغ العاشرة حتى كان قد حفظه كله » (٢) ، كما رأينا من قبل .

لقد كان حرص الشيخ أحمد على تعليم ولده تعليما دينيا ، وتحفيظه القرآن الكريم شديدا . ولم يكن يتوخى من وراء ذلك أى غرض دنيوى ، خاصة وأن التعليم الدينى كان ولا يزال إلى يومنا هذا غير مرغوب فيه من فئات كثيرة من الناس ، وعادة ما كان المتخرجون منه مثار تجاهل الناس وازدرائهم .

ويصف الغزالى طرفا من جهاد والده ، عليهما معا رحمة الله ، فى تحفيظه كتاب الله عز وجل ، وتنشئته له تنشئة وثيقة الصلة بالله ، فيقول:

« . . .أبى توفر على تعليمى القرآن بحماسة لم يدركها فتور ، حتى استظهرته وأنا صبى غض العود .

وقد فعل ذلك ، وهو يعلم أن المتخرجين فى المدارس المدنية قد استأثروا بغنائم الحياة وأشرف مناصبها ، وأن علماء الأزهر يحيون على ما يُلقَى إليهم من فُتات الموائد، فمرتب الواحد منهم قد يبلغ ثلاث جنيهات فى الشهر لا يزيد .

ومع ذلك، فإن الرجل باع ما يملك فى القرية ونزح إلى الإسكندرية ليكون قريبا منى وأنا أتلقى العلم الدينى فى أولى حلقات السلسلة الدراسية الطويلة للأزهر الشريف. .

إن هذا الأب ، مثل الألوف من المسلمين الذين وثَّقوا بالقرآن أواصرهم ، ونذروا له أولادهم .

إنهم لم يربطوا حاضرهم وحسب بهذا الكتاب ، بل أبقوه فى أعقابهم ، فيومهم وغدهم سواء فى الزلفى إلى الله وطول التأميل فيه . . » (٣) .

---

(١) محمد المجذوب: الشيخ محمد الغزالى السقا . ضمن: محاضرات الشيخ الغزالى، م . س ، ص: ١٧ .
(٢) م . ن ، ص: ١٨ .
(٣) محمد الغزالى: نظرات فى القرآن ، ط: ٦ ، دار الشهاب ـ باتنة ، (د . ت) ، ص: ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

وبديهى أن حفظ القرآن فى مثل هذا السن، شىء آخر غير فهمه واستيعاب معانيه، فالبون بعيد بين الأمرين، ذلك أن الأطفال ـ فى هذه السن ـ عادة ما تكون لديهم ذاكرة خارقة تستوعب كل ما يُعرض عليها ، ولكن لا تتوفر لديهم قدرات فكرية تمكنهم من فهم كل هذا الذى يُعرض عليهم . وعادة ما ترتبط التراكيب القرآنية فى أذهان الأطفال بملابسات معينة تتصل بخبراتهم القليلة فى هذه الحياة ، وهى فى أغلبها مما يتعلق بعالم الأشياء .

ويذكر الغزالى ـ فى هذا المجال ـ بعض ما كان يحسه من مشاعر أثناء الفترة التى قضاها فى كُتَّاب قريته ، فيقول:

« لقد استطعت ـ كعدد كبير من الأولاد الصغار ـ أن أحفظ القرآن كله وأنا ابن عشر سنين . . .

وبديهى أن يكون المسجل فى ذاكرتى هو الشكل لا الموضوع ، هو الألفاظ لا المعانى ، هو الصور البادية للقرآن لا السور المفعمة بالروح والنور والقوة .

لقد نُقشت فى أذهاننا أوائل الصفحات فى المصحف الذى كنا ننقل عنه لنكتب فى ألواحنا ، فسورة آل عمران فى الصفحة اليمنى بعد أسطر من تمام سورة البقرة، وسورة الأنعام مثلا فى الصفحة اليسرى ؛ لأن ختام المائدة استغرق الصفحة اليمنى بأجمعها . .

ويقترن بحفظنا للحروف وحدها ؛ أن ملابسات هذا الحفظ ارتسمت هى الأخرى فى أذهاننا ، أو بتعبير أصح: فى مشاعرنا .

فمع الحشد الهائل من الآيات التى حُشيت بها عقولنا، أجد فى نفسى عواطف شتى تكتنف هذا التراث المحفوظ .

هناك حزن أو فرح ، أمن أو قلق، حر أو برد (!) ، أجل: حر أو برد ، تثب إلى الذهن ذكراه حين أقرأ بعض السور ، فربما وقع تعلمنا لإحدى السور فى فصل الصيف أو رقدة الظهيرة بالتحديد ، والعرق يتحدر على الجباه ، والجو يكتم الأنفاس، ويهيج الأعصاب ، والفقيه الغضوب لا يتسامح فى عثرة لسان ، ولا يقبل وقفة قصيرة حين تسميع . . وهنا تهتز العصا وتعمل عملها فى إلهاب الجلود، والأهل لا يسمعون إلى شكوى من هذه القسوة ، فإن الكلمة المأثورة لديهم: عصا الفقيه من الجنة » (١) .

بعد أن أتم الابن «محمد الغزالى» حفظ القرآن الكريم فى بلدته «نكلا العنب» بمحافظة البحيرة،حمله والده الشيخ أحمد السقا إلى الإسكندرية ، وهناك أدخله «المعهد

---

(١) نظرات فى القرآن ، م . س ، ص: ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

الدينى»، حيث « قضى سنواته الأربع فى دراسة المرحلة الابتدائية ذات المقررات القوية، ومن ثم واصل دراسته حتى نال شهادة الكفاءة بعد ثلاث سنوات، ثم الشهادة الثانوية بعد سنتين . ومن هناك انتقل إلى القاهرة ليبدأ دراسته الجامعية فى كلية أصول الدين ، وبعد أربع سنوات نال شهادتها العالية ، ليتحول إلى التخصص فى الدعوة والإرشاد، وقد نال إجازته ـ الماجستير بلغة اليوم ـ بعد تمام السنتين » (١) .

* * *

٢ـ الصحبة الدائمة للقرآن :

تُرى كم من شباب المسلمين ، حفظوا القرآن الكريم كاملا ، ثم أضاعوه كاملا أيضا ، وكم منهم أولئك الذين حرصوا على إعادة حفظه من جديد بعد أن نسوه تماما فى غمرة أحداث الحياة ؟

الحق أن الذين حفظوه ثم أضاعوه كثيرون لا يحصيهم عد ، ولكن الذين حاولوا حفظه من جديد بعد ضياعه قليلون جدا .

فطبيعة الحياة التى أصبح يعيشها المسلمون بعد القرون الخيرة من تاريخهم ، ونوع التبدلات التى طرأت على حياتهم ، ومناهج التعليم الخارجية التى فرضت تأثيرها على مدارسهم ومراكز تعليمهم ، جعلت من الصعب على أبنائهم أن يحافظوا على القرآن فى صدورهم ، فأكثرهم يجد نفسه ـ مرغما ـ يتجه فى حياته وجهة قد تبعده تماما عن القرآن الكريم ، ولا تدع له أى فرصة لاستذكاره ، أو حتى لتلاوته مجرد التلاوة .

حتى المراكز الكبرى للتعليم الدينى المعروفة فى العالم الإسلامى ، لم تقم بأدنى دور فى هذا المجال ، بل كثيرا ما كانت الفوضى الفكرية التى تسودها والمؤامرات الخارجية الواقعة عليها سببا فى ترك خريجيها للقرآن وتضييعهم له أشد التضييع .

وإمامنا محمد الغزالى ، لم يسلم من هذه الآفة ، فهو يذكر أنه وبعد أن كان يحفظ القرآن فى صباه عن ظهر قلب ، وجد نفسه ـ وهو يتدرج فى مراحل التعليم بالأزهر ، وبعد أن تخرج منه ـ قد نسى معظم ما كان يحفظه . وهو يُرْجع ذلك إلى طبيعة الفوضى التى ألمت بهذا الجامع العريق ، وجعلت التعليم فيه لا يخدم مبدأ ولا يهدف إلى غاية . يقول فى هذا الصدد :

« ودخلت معهد الإسكندرية الدينى ، عقب انتهاء مرحلة الكُتَّاب ، وبعد بضع سنين كنت قد نسيت القرآن كله ، وضاعت جهود أهلى سدى . .

---

(١) محمد المجذوب: محمد الغزالى السقا ، ضمن محاضرات الغزالى ، م . س ، ص:١٨ .

إن العبث الشائن الذى يُصَرِّف شؤون الجامع الأزهر من نصف قرن أو يزيد جعل للخيانات العلمية مرتعا خصيبا فى هذا المعهد .

وأكاد أجزم بأن هذه الفوضى مقصودة ، وأن لعملاء الاستعمار أصابع كثيرة فيها . ومن ثلاثين عاما تقريبا (١) وأنا ألحظ حربا عوانا لسحق الكفايات وإبراز التفاهات، وجعل المناهج والامتحانات شيئا يشبه الهزل ، إن لم يكنه .

أما عناصر البيئة التى ينبت فيها العاملون للإسلام نباتا يانعا صالحا ، فهى فى جملتها مفقودة . . كان ينبغى أن تتلقفنا أيد قوية ذكية ؛ لتربى فينا ما بدأ به آباؤنا، ولتمهد فى نفوسنا ألف طريق إلى فقه الكتاب الذى حفظنا كلماته فقط وبقى علينا أن نعى رسالته وأن نستوعب دلالته ، وأن نسقى ذلك كله من أنواع العلوم ما يبصرنا بمعانيه ويقيمنا على صراطه .

كان ينبغى أن نُنقل من قرانا إلى جو واضح وضىء يصلنا بالعالم ويقفنا على تاريخه الماضى والحاضر ، ويقفنا ـ فى الوقت نفسه ـ على الخير الذى يقدمه القرآن لهذا العالم المحروب كى يطعم من جوع ويأمن من خوف .

غير أن ذلك ـ للأسف ـ لم يكن .

وعندما نلت شهادة الكفاءة كنت تقريبا لا أحسن التلاوة عن ظهر قلب كما كنت يوم بدأت حياتى العلمية . . » (٢) .

والحق أن هذا الذى عانى منه الغزالى من تضييع القرآن بعد حفظه ، هو الذى عانت منه الأجيال الإسلامية كلها فى القرون الأخيرة . ولم يكن ذلك سوى نتيجة لما آلت إليه حال القرآن فى حياة المسلمين .لقد أصبح كتاب الله تحفة مقدسة تُتخذ للتزيين ويقدمها الناس فيما بينهم كهدية محبة أو صداقة ، أما تطبيق ما يتضمنه من أحكام فلا يفكر فيه إلا من يعتبر فى نظر الكثيرين اليوم«متخلفا عن ركب العصر ومسيرة الحضارة، راغبا فى التشبث برجعية الآباء والأجداد » !!.

والمؤسف أن أكثر شباب المسلمين، ونتيجة لضعف تكوينهم العقدى، وانبهارهم بالتيارات الوافدة ، وفقدانهم لمن يوقفهم على زيف هذه التيارات ويريهم معالم الطريق السليم والسبيل القويم، سرعان ما يضيعون ما تعلموه من كتاب الله فى صباهم؛ ليستبدلوه بتعاليم الحضارة الغربية وقشورها الزائفة المقطوعة عن أى نسب دينى صحيح .

---

(١) كتب الشيخ هذا الكلام فى حوالى سنة ١٩٥٧م .

(٢) نظرات فى القرآن ، م . س ، ص: ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

وإذا كان الكثيرون ممن كانوا فى عمر الغزالى ، فى ذلك الحين ، قد انساقوا وراء بريق التيارات الوافدة ، ولم يجشموا أنفسهم عناء استذكار كتاب الله ، أو حتى تلاوته لأجل التلاوة ، فإن الغزالى لم يستسلم للأمر الواقع ، ولم يخضع لما خضع له كثير من أترابه ، فقد أدرك أن تضييعه للقرآن أمر خطير ، وأنه ينبغى عليه أن يعود إليه فيحفظه من جديد ، مهما كلفه ذلك من ثمن أو جهد ، ويصف الجهد الذى بذله فى هذا السبيل ، فيقول:

«ثم أدركتنى نفحة من رحمة الله ، فعزمت أن أمهر فى القرآن مرة أخرى .

وظللت أكافح فى هذا السبيل نحو خمس سنين طوال ، كنت أقرأ «الربع» نحو عشر مرات ، ومع ذلك يعز على حفظه .

وكاد اليأس يخامرنى ، ولكنى صابرت الأيام وتحملت العناء ورجوت الخير .

وفى أثناء مطالعتى للسنة النبوية ، قرأت حديثا نفعنى الله به ، وجربته فى التغلب على آفات النسيان فأفادنى » (١) .

لقد عاد الغزالى إلى القرآن فحفظه مرة أخرى ، بعد أن حدث وضاع من صدره ، لكنه ـ فى هذه المرة ـ قرر ألا يضيعه أبدا ، وألا يسمح للظروف أن تصده عن التشبث به .وقد استصحبه بعد ذلك فى حياته كلها ؛ خطيبا فى المسجد ، ومدرسا فى الجامعة، ومحاضرا فى المنتديات والملتقيات والمؤتمرات ،وكاتبا فى الصحف والمجلات ، ومؤلفا للكتب والدراسات .

فى كل هذه المجالات ، كان القرآن هو السلاح الذى يحارب به الغزالى فلا ينهزم، يخاطب به الناس فلا يلقى منهم سوى الإنصات ، ويقارع بحججه الخصوم فلا يقابلونه بغير الإذعان والتسليم .

فلقد كان القرآن ـ خلال أزيد من نصف قرن ـ رفيقه الدائم الذى لا يفارقه ، وأنيسه الملازم له فى السفر والحضر ، فى الصحة والمرض ، فى الرخاء وفى الشدة، يقرؤه فلا يمل من قراءته ، ويتدبره متمليا هداياته فلا يكاد يشبع منها ، بل يزداد ظمؤه إليها كلما زاد نهله منها .

ونسوق هنا شهادة لتلميذ الشيخ ورفيق دربه فى جهاد الدعوة إلى الله عز وجل ، الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى ؛ إذ يصف ـ وصف العارف المطلع ـ علاقة الشيخ محمد الغزالى بالقرآن ، فيقول:

---

(١) نظرات فى القرآن ، م . س ، ص: ٢٦٩ .

« الشيخ الغزالى رجل قرآنى ، فهو مع القرآن أبدا ، يديم القراءة له ، والتأمل فيه ، والتدبر لآياته .

حفظ الشيخ القرآن حفظا جيدا منذ صباه ، فقلما تند منه آية أو كلمة ، أو تلتبس عليه آية بأخرى ، وهو يتلوه آناء الليل ، ويقرأ ما تيسر منه فى صلواته ـ إماما أو مأموما أو منفردا ـ من حيث وقف ورده، ولم أره احتاج إلى المصحف الشريف للقراءة أو للمراجعة ، إنما مصحفه صدره.

وهو دائم التدبر لكتاب الله ، إيمانا منه أن ثمرة التلاوة التدبر والتذكر ، كما قال الله تعالى فى وصف القرآن : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص : ٢٩] .

وهو لا يتعامل مع القرآن بعقله وحده ، بل بعقله وقلبه معا ، وحين كنا نستمع إليه فى صلاة التراويح ، ونحن فى معتقل الطور ، كنا نحس أن للرجل حالا مع القرآن ؛ يستبشر بوعده ، ويرتعش من وعيده ، ويتجاوب مع قصصه ، ويحيا فى عبره وأيام الله فيه ، فتلاوته ليست تلاوة محترف ولا غافل ، بل تلاوة عقل يقظ وقلب مشرق ووجدان حى .

وهذه المعايشة الدائمة للقرآن جعلت معانيه ومعارفه بين يديه ، وكأنها جنة دانية القطوف ، يقطف من ثمارها ما شاء الله» (١) .

فلقد كان القرآن ـ إذن ـ «هو مصدر الشيخ الأول ، الذى يغترف منه صباحه ومساءه ، فلا يشبع ولا يفتر ، وهو جنته الدانية القطوف ، التى يتفيأ أبدا ظلالها، ويقتطف من ثمارها، وهو الصاحب الدائم الذى يعايشه تاليا متدبرا ، وشارحا مفسرا .

ومن سمع الشيخ أو قرأ كتبه ومقالاته ، منذ فجر شبابه ، علِمَ ـ عِلْمَ اليقين ـ مدى حفاوته بالقرآن ، وتذوقه لأسرار بيانه ، وتفهمه لأغوار معانيه ، وحسن استشهاده به . ووجد له نظرات ووقفات مع الآى والسور تدل على أنه ابن القرآن حقا» (٢).

ويكفى بهذه الشهادة الخالصة ، دليلا على مدى ارتباط الغزالى بالقرآن وعمق صلته به .

* * *

---

(١) د / يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ١٠٧ .

(٢) م . ن ، ص: ٧٩ .

٣ـ المناهل الثقافية والموقع الفكرى:

علاقة الغزالى بالقرآن ـ إذن ـ كانت علاقة وثيقة ووطيدة ،كعلاقة اللازم بملزومه، لا ينفك أحدهما عن الآخر أبدا .

وهذه العلاقة ـ فى الحقيقة ـ بقدر ما هى نتيجة لأسرته وتربيته ، وكذا لاستعدادات ذاتية فى نفسه ، هى ـ من جهة أخرى ـ نتيجة للبيئة العامة التى شب فيها، وتكونت فيها ملكاته النفسية والفكرية والثقافية .

فالغزالى ـ كما هو معلوم ـ ولد فى أوائل هذا القرن ، وهى مرحلة تاريخية عرفت فى مصر خاصة قيام حركة إصلاحية قوية ، بفعل جهود سابقة كان قد بذلها علماء مصلحون سابقون ، على رأسهم جمال الدين الأفغانى ، وتلميذه محمد عبده ، وحمل لواءها من بعدهما محمد رشيد رضا وعدد آخر من العلماء المصلحين .

وقد أنتجت هذه الحركة الإصلاحية آثارها ، وبرزت مظاهرها خلال المرحلة التى نشأ فيها الغزالى صبيا ثم شابا غضا . وقد كان من الطبيعى أن يتأثر الغزالى ـ ككثيرين من أترابه ـ بهذه الحركة ويتفاعل مع أفكارها وتعاليمها ، خاصة وأنه كان قريب الصلة من رجالها أو المتأثرين بها ، أثناء تدرجه فى مراحل التعليمْ بالأزهر الشريف .

ففى سنة ١٩٣٨م ، انتقل الغزالى من الإسكندرية إلى القاهرة ، والتحق بكلية أصول الدين فى الأزهر . وقبل ذلك كان قد التقى بالشيخ حسن البنا ، رحمه الله ، وانضم إليه فى تأسيس جماعة « الإخوان المسلمون» التى أصبح عضوا قياديا فيها . وقد كان ذلك بداية تحول حاسم فى حياة الغزالى فيما بعد (١)،حيث قرر من يومها أن يتبعه، وأن يسير معه على درب واحد لخدمة الإسلام والمسلمين (٢).

طالت صحبة الغزالى لحسن البنا ، منذ لقائهما أول مرة ، حتى استشهاد الثانى سنة ١٩٤٩م ، وفى خلال هذه المدة الطويلة نسبيا نهل الغزالى من حسن البنا الكثير ، وتأثر به تأثرا ظل يفتخر به حتى آخر أيام حياته ، فقد اتصل به اتصالا مباشرا ، ورأى من دماثة خلقه وعظيم فضله ، ما جعله يثق فيه ويتخذه مرشدا وقدوة ، ويرتبط به غاية الارتباط ، ويتأثر به كل التأثر .

ويصف الغزالى صلته بحسن البنا وتلمذته على يديه وما استفاده منه ، فيقول:

«حسن البنا أستاذى الأول فى ميادين كثيرة ، وكنت ـ وأنا طالب ـ أستمع إلى

---

(١) محمد شلبى: الشيخ الغزالى ومعركة المصحف ، م . س ، ص: ٢٤٤.

(٢) قصة حياة ، م . س ، ص: ١٦٤ .

محاضراته فى القرآن الكريم ، وأتأمل معه فى النظرات التى كان يرسلها ، وكنت أعود إلى بيتى فألخص ما استطعت فهمه من هذه المحاضرات ، حتى تجمع لدىَّ كتاب فى هذا الصدد ، لكنه للأسف ضاع منى ، لكن معانيه بقيت فى ذاكرتى . واستفدت من الإمام الشهيد فى طريقة التفسير التى تعتمد على المعاناة الخاصة والذوق الشخصى ؛ وذلك لطول تدبره فى كتاب الله وشدة ارتباطه به ، فقد كانت قدرته خارقة على فتح القلوب لأسرار الوحى» (١).

والمعروف أن حسن البنا ، رحمه الله ، كان يلقى محاضرات أسبوعية فى المركز العام للإخوان المسلمين ، وقد تناول فى عدد منها تفسيرا موضوعيا ، أو دراسة لبعض الموضوعات من خلال القرآن الكريم ، مثلت نماذج للتفسير الموضوعى ، وقد جمعها أحد تلاميذه ضمن مجموع سماه :«حديث الثلاثاء» (٢)، والمقارنة بين هذه النماذج وما كتبه الغزالى فى كتابه: «نظرات فى القرآن » تثبت تأثره العميق بحسن البنا وترسمه لخطواته فى التفسير الموضوعى لكتاب الله .

وإذا كان الغزالى قد تعلم على يدى حسن البنا وتأثر به ، فعن طريقه تعرف إلى مدرسة الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ، المعروفة بمدرسة المنار ، فحسن البنا كان تلميذا لرشيد رضا أو متأثرا بمنهجه الفكرى على أقل تقدير؛ ولذلك وجه شباب الإخوان إلى قراءة مؤلفات الشيخين: عبده ورشيد . ومن خلال هذه المؤلفات تكونت التوجهات الفكرية لشباب الإخوان المسلمين ، ومنهم «محمد الغزالى السقا» .

وقد وجد الغزالى فى مؤلفات هذين الشيخين ، وخاصة « تفسير المنار» ملاذه فى أن يغترف من علم التفسير كل جديد مفيد مما لم يكن يجده فى غير « المنار » من كتب التفسير ، لقد وجد فيه توجها جديدا ؛ توجه غايته الأساس إعادة القرآن إلى حياة المسلمين ، بدعوتهم إلى العودة إليه بعد أن رموا به وبتعاليمه وراء الظهور، توجه اعتمد استقراء سنن التاريخ وقيام الحضارات وانهيارها ؛ ليقنع الأمة أن خلاصها فى عودتها إلى دينها ، وأن زوالها وانهيارها فيما هى عليه من صَدٍّ عن دين الله وتنكب عن صراطه المستقيم .

إن هذه المزايا الجديدة التى وجدها الغزالى فى تفسير الشيخين محمد عبده ورشيد

(١) نقله الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه «الشيخ الغزالى كما عرفته » ، ص: ١١٠ ، عن مجلة «الدعوة »، غرة ربيع الأول ١٤١٥ هـ .

(٢) من منشورات دار الاعتصام ـ القاهرة ، جمع وتقديم: حسن عاشور .

رضا ، هى التى جعلته يتخذ من «تفسير المنار» مصدره الأساس بين كتب التفسير طيلة حياته الفكرية التى امتدت عبر أزيد من نصف قرن ، وفى ذلك يقول رحمه الله:

« أتردد على تفسير المنار بين الحين والحين لأتعلم منه ما لم أكن أعلم ، وهو فى نظرى موسوعة ثقافية موَّارة بالأبحاث التى تشمل الدين كله» (١) .

وإضافة إلى كل هذا الذى وجده الغزالى فى تفسير المنار ، فقد وقف فيه أيضا على أمر آخر غير معهود . . لقد وجد فيه بواكير التفسير الموضوعى للقرآن ، والتى يمكن أن تشكل اللبنات الأولى لبناء يمكن إقامته وتشييده بعد ذلك ، ففى حديث له عن الشيخ محمد عبده ، رحمه الله ، وبعد بيانه لفضله وإخلاصه وصدقه فى خدمة الإسلام ، قال الغزالى:

«. . .ثم قرأت تفسيره للقرآن الكريم ، ووجدت بواكير التفسير الموضوعى للسورة فيما كتب ، اهتدى إليها ذهن لماح مستوعب وبصر حديد فى إدراك الخيوط التى تشد أجزاء السورة ، كما تشد الأعصاب أجزاء الكائن الحى .

ويمكن عند متابعة المنار أن يُعرف فضل الرجل فى تجلية المعنى والحكمة ودفع الشبهات ودعم اليقين» (٢).

وغير محمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا ، استفاد الغزالى من شيوخه وأساتذته الذين تلقى العلم على أيديهم فى الأزهر الشريف ، وكثير منهم كان من العلماء البارزين المرموقين فى كثير من العلوم الشرعية ، الذين تركوا آثارا بارزة فى الفكر الإسلامى الحديث والمعاصر .

وعلى رأس هؤلاء الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، رحمه الله ، شيخ الأزهر الأسبق ، الذى يقول عنه الغزالى ، وهو يعدد من تأثر بهم من الشيوخ:

«وقد تأثرت أيضا بالشيخ محمود شلتوت الذى أصبح فيما بعد شيخا للأزهر؛ إذ كان مدرسا للتفسير ، وله قدرة ملحوظة فى هذا المجال ، إلى جانب رسوخ قدميه فى مجال الفقه وعلوم الشريعة إجمالا ، وقد كان رحمه الله ، شخصية عالمية بارزة يلتف حولها الكثيرون» (٣).

ولعل من بين أهم ما استفاده الغزالى من أستاذه الشيخ شلتوت ؛ منهجه فى تفسير القرآن ؛ فللشيخ مؤلفات فى هذا الميدان نحا فيها منحى يقترب كثيرا من منحى تفسير

(١) علل وأدوية ، دار الشهاب ـ باتنة ، بدون تاريخ ، ص: ٩٧ .

(٢) م . ن ، ص: ٨٠ .

(٣) الغزالى بقلمه ، ضمن خطب الشيخ الغزالى فى شؤون الدين والحياة، م . س ، ج: ١ ، ص: ١٤ .

المنار ،واتجه فيها وجهة التفسير الموضوعى . يتبين ذلك من التراث العلمى الذى خلفه، والمتمثل فى: «تفسير القرآن العظيم ؛ الأجزاء العشرة الأولى» ، «إلى القرآن من جديد» ، «من توجيهات الإسلام» وغيرها .

كما استفاد الغزالى أيضا من أستاذه الدكتور الشيخ محمد عبدالله دراز الذى أثرى المكتبة الإسلامية بالعديد من الدراسات القرآنية التى تنحو منحى التفسير الموضوعى ، ومنها رسالته لنيل شهادة الدكتوراه من السوربون: «دستور الأخلاق فى القرآن » ، ومنها أيضا كتابه الفذ: «النبأ العظيم» الذى أفاد منه الغزالى كثيرا ، واعترف لصاحبه بفضل الريادة فى منهج التفسير الموضوعى للسورة القرآنية ، حيث اعتبر أن « أفضل نموذج لهذا التفسير ؛ ما قدمه الشيخ محمد عبد الله دراز من تفسير لسورة البقرة فى كتابه « النبأ العظيم » ، فقد ضم معانى السورة فى باقة واحدة متكاملة تجعلك بنظرة ذكية تدرك أبعادها » (١) .

ولم يقف تأثر الغزالى بالشيخ دراز عند حدود التوجه الفكرى فحسب ، بل لقد ترسم طريقته ذاتها حين أقبل على ممارسة التفسير الموضوعى للسور القرآنية ، وذلك من حيث العناية بالوحدة الموضوعية للسورة ، يصرح بذلك قائلا:

« لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع فى السورة ، وإن كثرت قضاياها ، وتأسيت فى ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة ، فجعل منها باقة ملونة نضيدة ، يعرف ذلك من قرأ كتابه: «النبأ العظيم» وهو أول تفسير موضوعى لسورة كاملة فيما أعتقد» (٢) .

ومن الأساتذة الذين تأثر بهم الغزالى أيضا ، من بين شيوخه فى الأزهر ؛ الشيخ عبد العظيم الزرقانى ، صاحب الكتاب المشهور: « مناهل العرفان فى علوم القرآن» ، ويصف الغزالى هذا التأثر ، فيقول:

« تأثرت بالشيخ عبد العظيم الزرقانى ، الذى كان مدرسا بكلية أصول الدين ، وهو صاحب كتاب: «مناهل العرفان فى علوم القرآن» ، وكان عالما يجمع بين العلم والأدب ، وعباراته فى كتابه المذكور تدل أنه راسخ القدم فى البيان وحسن الديباجة ونقاء العرض » (٣).

---

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل ، ط: ٣ ، دار الشروق ـ القاهرة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ص:١٢٩ .

(٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن ، ط: ٢ ، دار الشروق ـ القاهرة ، ١٤١٣ هـ ، ج: ١ ، ص: ٥ .

(٣) الشيخ الغزالى بقلمه ، ضمن خطبه فى شؤون الدين والحياة ، م . س ، ج١ ، ص: ١٤ .

كما أن من بين شيوخه الذين درس على أيديهم ، ولابد وأن يكون قد تأثر بهم ، وإن لم يذكر هو ذلك فيما كتب؛ الشيخ الإمام محمد أبو زهرة، الفقيه المعروف ، الذى كتب عددا كبيرا من الدراسات القيمة فى علوم الشريعة ، ومنها دراساته فى القرآن وعلومه ، مثل: «المعجزة الكبرى؛ القرآن» الذى ضمنه بعض الدراسات التى يمكن اعتبارها من قبيل التفسير الموضوعى ، مثل موضوع: «جدل القرآن واستدلاله » (١) ، وموضوع «علم الكون والإنسان فى القرآن»(٢) .

ومن كتبه التى تناولت جوانب من التفسير الموضوعى ؛ كتابه: «المجتمع الإنسانى فى ظل القرآن» . ولابد أن يكون الغزالى قد قرأ هذه الكتب واستفاد منها، كما استفاد من غيرها من مؤلفات أساتذته وشيوخه .

وإلى جانب هؤلاء الأساتذة الذين تأثر بهم الغزالى تأثرا مباشرا، فإنه أثناء دراسته فى كلية أصول الدين، كان من بين الأساتذة فيها: «الدكتور محمد أحمد الغمراوى، والشيخ أمين الخولى، والدكتور عبد الوهاب عزام، والأستاذ عبد الوهاب خلاف، والشيخ محمد الخضر حسين، والدكتور محمد البهى، والدكتور محمد عبد الله ماضى. . والدكتور محمد يوسف موسى ، والشيخ المجاهد الغيور محمد الأودن . . وآخرون» (٣) ، وكل هؤلاء كانت له بهم صلات متنوعة ، أفادت فى تشكيل رؤاه الفكرية وبنائه العقلى والثقافى.

وهكذا تهيأت الظروف البيئية والنفسية والعلمية للغزالى ، لكى ينهل من كل روافد مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة للفكر الإسلامى ، ويجمع خلاصة ما قدمه روادها ؛ ليعيد تشكيله من جديد فى أفكار وتوجيهات أثرت وما تزال تؤثر فى مسار الفكر الإسلامى المعاصر .

ويمكن ضبط قسمات هذه المدرسة الفكرية التى نهل الغزالى من كل منابعها ، ثم حمل لواء ريادتها، فى أنها تميزت « بترويجها للعقل، وتقديم دليله، واعتبارها العقل أصلا للنقل . وهى تقدم الكتاب على السنة ، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد . وهى ترفض مبدأ النسخ وتنكر إنكارا حاسما أن يكون فى القرآن نص انتهى أمده ، وترى المذهبية فكرا إسلاميا قد يُنتفع به، ولكنه غير ملزِم، ومن ثم فهى تنكر التقليد المذهبى، وتحترم علم الأئمة ، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية ، ولا تلقى بالا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة » (٤) .

---

(١) محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى ؛ القرآن ، دار الفكر العربى ـ القاهرة ، بدون تاريخ ، ص: ٣١٨ .
(٢) م . ن ، ص: ٤٧٣ وما بعدها .
(٣) قصة حياة: مقتطفات من مذكرات الغزالى ، مجلة إسلامية المعرفة ، م . س ، ص: ١٦٧ ، ١٦٨ .
(٤) محمد عمارة: الشيخ محمد الغزالى ؛ الموقع الفكرى . . والمعارك الفكرية ، م . س ، ص: ٣٩ .

تلك هى المناهل الثقافية التى نهل منها الغزالى ، وهذا هو الموقع الفكرى الذى رابط فيه طيلة حياته الفكرية والدعوية وقد كان لهما أبلغ الأثر فيما بدا منه من توجه إلى الاهتمام الشديد بالقرآن ، واعتباره الدواء الذى لا دواء غيره لأمراض المسلمين ، والمصدر الأول الذى ينبغى عليهم أن يستمدوا منه منهاجهم فى الحياة وطريقتهم فى السلوك .

٤ ـ جبهات الجهاد الفكرى:

هـذا الموقع الفكـرى الذى تموقع فيه الغزالـى منذ شبابه الباكـر ، المتمثل فى مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى ، كان له دور مؤثر فيما توجه إليه خلال رحلة حياته كلها، من قيام بواجب الدعوة إلى الله عز وجل ، وحمل لهم إصلاح أوضاع الأمة ، فى محاولة للنهوض بها من جديد ، بعد أن طالت عثرتها ، واستمر طويلا سباتها .

وقد وجد الغزالى نفسه ـ وهو يقوم بهذا الدور ـ فى مواجهة جبهات متعددة مفتوحة كلها عليه وعلى أمثاله ممن حملوا هَمَّ إصلاح أوضاع الأمة وجمع عناصر قوتها وعافيتها بعد شتات ، بكل أنواع التحديات وصنوف المواجهة السافرة المكشوفة.

هذه الجبهات ، كانت ـ وما تزال ـ من الشراسة بحيث لا يقف أمام تحدياتها إلا الأقوياء من الدعاة ، المتسلحين بالزاد اللازم لمن يرتاد هذا الطريق ويتحمل هذه الأمانة؛ زاد الإيمان الراسخ والتقوى والعمل الصالح والعلم المكين المتين ، وثبات النفس ، ورباطة الجأش .

ذلك « أن الدعوة إلى الله لا يصلح لها بداهة أى شخص . . إن الداعية المسلم فى عصرنا هذا يجب أن يكون ذا ثروة طائلة من الثقافة الإسلامية والإنسانية، بمعنى أن يكون عارفا للكتاب والسنة والفقه الإسلامى والحضارة الإسلامية . وفى الوقت نفسه، يجب أن يكون ملما بالتاريخ الإنسانى وعلوم الكون والحياة والثقافات الإنسانية المعاصرة التى تتصل بشتى المذاهب والفلسفات .

ويجب علـى من يدعو إلى الله أن يتجرد لرسالته التى يؤديها فتكون شغله الشاغل، وعليه أن يعامـل الناس بقلب مفتوح فلا يكـون أنانيا ولا حـاقدا ، ولا تحركـه النزوات العابرة ، ولا ينحصر داخل تفكيره الخاص ، فهو يخاطب الآخرين، وينبغى أن يلتمس الأعـذار للمخطئين ، وألا يتربص بهـم ، بـل يأخذ بأيديهم إذا تعثروا .

ويحتاج الداعية المسلم فى هذا العصر إلى بصر بأساليب أعداء الإسلام على

اختلاف منازعهم، سواء كانوا ملحدين ينكرون الألوهية أو كتابيين ينكرون الإسلام»(١).

وقد تحلى الغزالى بكل هذه الصفات ، وأخذ من كل منها بحظ وافر ، وأضاف إليها سلاحا أمضى وأحد ؛ هو الفزع الدائم إلى كتاب الله عز وجل ، يبحث فيه - فى كل مرة - عن جواب لسؤال يؤرقه ، أو تفسير لظاهرة محيرة تقض مضجعه ، أو مخرجا من ضائقة نفسية أو فكرية ألمت به وآلمت كيانه .

فالغزالى ، وهو يكافح الجبهات المفتوحة على الدعوة الإسلامية فى عصرها الحاضر ، الممتد منذ أوائل هذا القرن ، إنما تسلح بالقرآن ، الذى هو أمضى سلاح، لا ينكسر ولا يلين ولا يضعف ، مهما كانت قوة المبارزين ، ومهما تطورت أسلحتهم ووسائلهم فى الصد عن الحق أو مهاجمته وأهله .

وإذا تأملنا فى الجبهات التى حارب فيها الغزالى ودافع من خلالها عن الإسلام، نجدها - فى حقيقتها - جبهات فكرية صميمة ، أو جبهات فعلية واقعية ترتد إلى أصول فكرية .

لذلك ، وجدنا الغزالى ، وهو يكافح فى هذه الجبهات كلها ، لا يحمل من الأسلحة سوى سلاح الفكر والعلم والبيان ، منطلقا من نصوص القرآن الكريم؛ ليرسم منها وصفات لأمراض وعلل هذا العصر المستحكِمة .

فإذا ما طرحت شبهة فى وجه الإسلام وشريعته ، سارع إلى القرآن يسأله البيان والبرهان . وإذا ما حزب بالمسلمين أمر ووقفوا حائرين مترددين ، فزع إلى كتاب الله يأتيهم منه بالبيان الناصع لما وقعوا فيه ، والإيضاح الفاصل لما ينبغى أن يقوموا به أو يجب عليهم أن يداوموا عليه .

* **الجبهة الأولى** : التى رابط فيها الغزالى مكافحا مجاهدا بالقلم واللسان ؛ كانت جبهة الاستئثار المالى والمظالم الاجتماعية التى شلت قدرات الأمة وعطلت ملكاتها المادية والمعنوية (٢) . فقد قاد معركة خطيرة « ضد الظلم الاجتماعى ، والامتيازات الطبقية ، والفوارق الاقتصادية الفاحشة التى جعلت بعض الناس يزرعون القمح ويأكلون«التبن»، ويزرعون القطن ويلبسون « الخيش » ، ويبنون العمارات الشامخة على أكتافهم ، ويسكنون هم وعائلاتهم فى « البدرونات » على أحسن الفروض ! على حين يعيش آخرون غرقى فى الذهب والحرير ، دون أن يقدموا

---

(١) من أجوبة الشيخ فى كتاب «علماء ومفكرون عرفتهم » للأستاذ محمد المجذوب . والنقل هنا عن: الشيخ الغزالى كما عرفته ، للدكتور يوسف القرضاوى ، م . س ، ص: ٥٧ .

(٢) محمد عمارة : الشيخ محمد الغزالى . . الموقع الفكرى والمعارك الفكرية ، م . س ، ص:٢٤ .

للحياة عملا» (١).

وقد قاد الغزالى هذه المعركة على صفحات كتابه : « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » ، الذى كان أول كتاب دخل به عالم التأليف ، وقد كان ذلك فى منتصف الأربعينيات .

والناظر فى هذا الكتاب ، يدرك لأول وهلة شغف الغزالى بالقرآن واعتماده الكلى على آياته المحكمات فيما يقرره من آراء ، أو فيما يسوقه من حجج وبراهين، حيث حرص ـ قدر الإمكان ـ على أن يسوق لكل مسألة يعالجها نصوصا من القرآن الكريم أولا ، ومن السنة النبوية الشريفة ثانيا ، تبين حكم الله عز وجل فى المسألة، وتقطع دابر كل شبهة يمكن أن تثار فى شأنها . وقد أسفر عن منهجه هذا فى مقدمة كتابه ، إذ يقول:

«هذا بحث مجمل فى موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، اعتمدت فى موضوعه على الدراسة المجردة لنصوص الدين والفهم المستقل لآثاره الثابتة . . وإنما ألفت هذه الرسالة ورتبت فصولها المحدودة لغاية واحدة ، هى إعطاء القارئ صورة صادقة عن الفكرة الذاتية للدين ، والروح العامة لمبادئه ، والموقف الذى قد يقفه بإزاء الأفكار الاقتصادية المختلفة» (٢) .

وقد عالج الغزالى فى كتابه هذا أفكار جديدة لم يُسبق إليها ، وكانت من صميم ما يتعلق بالواقع الذى ألف الكتاب لمعالجة أوضاعه ، مثل: هل للفضائل أسباب اقتصادية ؟ وهل للرذائل أسباب اقتصادية ؟ الاستعمار الداخلى يمهد للاستعمار الخارجى . الطبقات المترفة والطبقات البائسة . ومعالجته لهذه الموضوعات ولغيرها كانت معالجة قرآنية واقعية ؛ حيث يصف المشكلة كما هى فى الواقع ، ثم يبحث عما فى القرآن من حديث عنها ، وينتهى مبينا علاجها من خلال ما يقرره القرآن فى هذا الشأن .

وعلى نفس هذا المنهج ، منهج علاج الواقع بالقرآن ، سار الغزالى فى كتبه التالية التى أصدرها فى سياق معركته ضد الاستئثار والظلم الاجتماعى ، وهى: « الإسلام والمناهج الاشتراكية » ، و« الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين» .

وقد أبانت هذه المؤلفات عن الروح القرآنية لدى الشيخ ، وشغفه بالبحث فى القرآن عن حلول لمشكلات الحياة .

---

(١) يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ١٢ .

(٢) الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، مكتبة رحاب ـ الجزائر ، بدون تاريخ ، ص: ١٧ .

* **ثانية الجبهات** : التى ارتادها الغزالى، مكافحا ومدافعا عن الإسلام والدعوة الإسلامية ، ومطالبا بإصلاح الأوضاع القائمة وإحلال الأوضاع الصحيحة محلها ؛ كانت جبهة « مواجهة الاستبداد السياسى ، الذى حرم الأمة من ثمرات الشورى الإسلامية ، فأعجزها عن مواجهة تبعات رسالتها ؛ ومجابهة تحديات أعدائها»(١) .

فقد أدرك منذ شبابه الباكر ، ما فى الاستبداد بالرأى والاستئثار بالحكم ، من خطر ماحق ، يهدد بنيان الأمة وكيانها بالهدم والتحطيم ؛ لذلك كان يعتبر أن «الإسلام والاستبداد ضدان لا يلتقيان ، فتعاليم الدين تنتهى بالناس إلى عبادة ربهم وحده ، أما مراسيم الاستبداد فترتد بهم إلى وثنية سياسية عمياء»(٢) .

كما أدرك أيضا أن «الاستبداد السياسى الذى وقعت الشعوب المسلمة فريسة له منذ أمد طويل ، وظلت إلى اليوم ترسف فى قيوده ، ليس مرده إلى أن الإسلام نقصته عناصر معينة ، فأصيب معتنقوه بضعف فى كيانهم كما يصاب المحرومون من بعض الأطعمة بلين فى عظامهم أو فقر فى دمائهم . . .

كلا!! ففى تعاليم الإسلام وفاء بحاجات الأمة كلها، وضمان مطمئن لما تشتهى، وفوق ما تشتهى من حريات وحقوق ، إنما بطشت مخالب الاستبداد ببلادنا وصبغت وجوهنا بالسواد؛ لأن الإسلام خولف عن تعمد وإصرار ، طُرحت أرضا البدهيات الأولى من تعاليمه، وقام فى بلاد الإسلام حكام تسرى فى دمائهم جراثيم الإلحاد والفسوق والمنكرات، فخرجوا سافرين عن أخلاقه وحدوده .

ومع ذلك ، فقد فرضوا أنفسهم على الإسلام إلى يوم الناس هذا » (٣).

لذلك ألف كتابه: « الإسلام والاستبداد السياسى » ؛ ليبين للأمة أن علاجها مما تعانيه من علل ، وعلى رأسها داء الاستبداد ، لا يمكن فى غير عودتها إلى ربها وتمسكها بما يلزمها به من تكاليف فى كل شأن من شؤون الحياة .

ذلك « أن بعض الواهمين، عندما يروعهم فساد الحكم وشرور المجتمع ، فيذهبون إلى الدين يطلبون الحل لما يعانون من أزمات معينة،ربما توقعوا أن يمدهم الدين ببرامج مفصلة وشروح دقيقة لما يقع ولما يُتوقع من طغيان،وما دَرَوْا أن الظلام الضارب فى كل أفق يرجع إلى تجاهل وصية بدهية من وصايا الدين،أو الخروج على تعليم واضح من تعاليمه.وأن الأمر لا يتطلب فلسفة،ولا بسطا لآراء،ولا ترديدا لمذاهب، بمقدار ما يتطلب التقيد التام بما فرضه الدين فى ناحية من النواحى التى طرقها. . . » (٤) .

---

(١) د/ محمد عمارة: الشيخ محمد الغزالى ؛ الموقع الفكرى . . والمعارك الفكرية ، م . س ، ص: ٢٥ .
(٢) الإسلام والاستبداد السياسى ، ط: ٢ ، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ، ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦١ م، ص: ٧ .
(٣) م . ن ، ص: ٢٤ ، ٢٥ . (٤) م . ن ، ص: ٢٣ .

انطلاقا من هذا الفهم ، يقرر الغزالى« أن تنظيف العالم الإسلامى من الغرور والغش والادعاء ، ومن السرقة والنهب والاستعلاء ، كفيل باجتثاث جذور الاستبداد ، وإراحة الدين والدنيا من ويلاته» (١).

ولكن مع وضوح هذه الحقيقة وجلائها لكل متبصر ، فإن الكثيرين من الناس يجهلونها عن حسن نية أو يتجاهلونها عن عمد . وفى سبيل القضاء على هذا الجهل ، وإرغام ذلك التجاهل ، وبغرض إلزام المنتمين إلى الإسلام بالحجة فى شأن هذه المسألة، راح الغزالى يستقرئ الشواهد القرآنية ويستنطقها ، مبينا من خلالها طبيعة الحكم المطلق وما يتصف به من كبرياء الفرد ، ورياء الأتباع ، وتبديد الحكام المستبدين لأقوات الشعوب وثرواتها ، وما يترتب عن ذلك من خطر ماحق يحيق بالأمة ويقعد بها عن النهوض والتقدم . ليخلص بعد ذلك إلى بيان العلاج الإلهى لمشكلة الاستبداد ، والمتمثل فى تشريع فريضة الشورى وما تمتاز به من حفظ لحقوق الأمة فى حكم نفسها. ثم يطبق هذا الذى توصل إليه على التاريخ الإسلامى خلال مساره الطويل ، وما ساد دوله خلال هذا المسار من حالات الشورى أو حالات الاستبداد ، وما ترتب على كلتا الحالتين من صلاح لأحوال الأمة أو اضطراب فيها .

والحق أن ما كتبه الغزالى عن طبيعة الحكم الفردى ، وما يستتبعه من تفرعن للحكام وذل للشعوب، يمكن اعتباره مباحث نموذجية تطبيقية لمنهج التفسير الموضوعى، المتمثل فى دراسة الموضوعات من خلال القرآن الكريم (٢).

* **أما الجبهة الثالثة** : التى قاد الغزالى من خلالها معركة أخرى من معاركه الفكرية، فقد كانت جبهة الحضارة الغربية الحديثة، وما قادته من ظلم وعدوان ضد الإسلام وأرضه وتعاليمه، وهذا الظلم كان متمثلا فى الاستعمار والاستشراق والتبشير والعلمانية.

فقد وقف رحمه الله « فى وجه الاستعمار ، وكشف عن حقيقته ودوافعه ، وأنها «أحقاد وأطماع» ، فليس الاستعمار مجرد طامع فى أرض المسلمين ونهب ثرواتهم وخيراتهم ، ولكنه ـ إلى جانب ذلك ـ صليبى حاقد ، يحمل ضغائن قديمة لم ينسها بعد الحروب الصليبية المعروفة ، بل منذ احتل الأرض التى كانت مسيحية، بالشام ومصر وشمال إفريقيا والأناضول، وحَوّلها إلى قلاع إسلامية. . .

ووقف فى وجه الصهيونية العالمية، التى احتلت أرض النبوات، وانتهكت حرمة المقدسات الإسلامية، وشردت أبناء الأرض من ديارهم بغير حق ، صنعت ذلك كله باسم التوراة ،

---

(١) م . ن ، ص: ٢٥ .

(٢) انظر فى المصدر ذاته ، ص: ٢٦ ـ ٢٩ ، وص: ٣٠ ـ ٣٧ ، وص: ١٥٢ ـ ١٦٢ ، على سبيل المثال .

وتحت راية العقيدة اليهودية ، التى جمعت اليهود المتفرقين فى الأوطان . . . وكان للشيخ فى ذلك كتابات كثيرة ، من أبرزها : «حصاد الغرور» .

ووقف فى وجه التنصير الذى يريد أن يسلخ المسلمين من عقيدتهم ، فإن لم يقدر على إدخالهم فى النصرانية اكتفى بزعزعة إسلامهم ، وتشكيكهم فى دينهم، وللشيخ فى ذلك كتابات شتى ، بأساليب متنوعة ، لعل آخرها كتابه: «صيحة تحذير من دعاة التنصير» . . .

ووقف فى وجه الشيوعية ومحاولاتها لغزو ديار الإسلام ، وما صنعته بالمسلمين وراء الستار الحديدى من تصفيات جسدية ، وحملات قمعية ، وحمامات دموية ، وللشيخ فى ذلك كتابات كثيرة ، أبرزها كتاب: «الإسلام فى وجه الزحف الأحمر » .

ووقف الشيخ فى وجه مادية الحضارة الغربية ، وإباحيتها الجنسية ، وعصبيتها العنصرية ، ومحاولات سيطرتها على حضارات العالم الأخرى . . . وله فى ذلك كتابات قديمة وحديثة من أبرزها كتاب: «ظلام من الغرب » .

ولعل أبرز المعارك التى خاضها الشيخ ، وأطولها نَفَسا، وأشرسها هجوما ، هى معركته مع العلمانية اللادينية التى تعارض حاكمية الله لخلقه وسيادة الشريعة على الناس، وتعزل الدين عن الحياة ، وعن المجتمع ، وتحارب الذين يدعون إلى الإسلام الشامل ، وتعتبرهم دعاة الرجعية وأعداء التطور . وقد بدأ هذا فى كتابات الشيخ منذ وقت مبكر، حينما رد على صديقه الشيخ خالد محمد خالد فى فصل: «قومية الحكم » من كتابه : «من هنا نبدأ» ، حيث رد عليه الشيخ بكتابه «من هنا نعلم» (١) .

وقد كان كفاح الغزالى فى هذه الجبهة طويلا مريرا ؛ إذ امتد حتى وفاته ، رحمه الله ، حيث نجده يحمل فى كتاباته الأخيرة ، وخاصة : « نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم» حملة شعواء على الحضارة الغربية الحديثة ، مبرزا كفرها بالله عز وجل، وصدها عن الخُلُق الفاضل ، وقطعها لأواصر الرحم والقرابة ، وإمعانها فى تشجيع الفسوق والمعصية، وتيسيرها للمتعة الحرام (٢). كل ذلك حتى يبين للأمة المسلمة أن خلاصها فى عودتها إلى قرآنها ، تنهل منه نظام حياتها ، فهو سر بقائها ورهان قوتها واستمرارها .

---

(١) يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، ص: ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) انظر: نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ١ ، ص: ٧ ، ٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٥٠ ،ج: ٢ ، ص: ٨ ، ٣٣ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٧١ . . .إلخ ، على سبيل المثال .

وستكون لنا عودة ـ إن شاء الله ـ عند حديثنا عن القضايا والمسائل البارزة فى تفسير الشيخ الغزالى ، إلى بيان إبراز الغزالى لطبيعة الحضارة الحديثة وخطرها على الإنسانية، وطرحه لهدايات القرآن وتعاليمه السامية بديلا عن قيم هذه الحضارة المريضة الغارقة فى عبادة المتع والأشياء .

* **ورابعة الجبهات** : التى كافح فيها الغزالى ، بكل طاقاته وقواه النفسية والفكرية والدعوية ، كانت « جبهة « مواجهة الذات الإسلامية » التى تشوهت بالتخلف الموروث وبالاستلاب التغريبى ، حيث قدم العديد من الكتب والدراسات التى سعت لتجديد «الذات الإسلامية » بالغذاء الإسلامى الصالح والصحيح .. تجديد العقل وتصفية رؤيته، وتجديد القلب وترقيق مشاعره ، وإقامة علاقة التكامل ـ التى امتاز بها الإسلام ـ بينهما .. ولقد كان هذا الميدان هو أغنى ميادين المشروع الفكرى للشيخ الغزالى بالكتب والدراسات .. فهو ميدان القوة الإسلامية الضاربة التى يتوقف على صلاحها إحراز النصر الإسلامى على كل الجبهات ، وفى مواجهة كل التحديات .. فمن « خلق المسلم» إلى «عقيدة المسلم» ، و«التعصب والتسامح » و « جدد حياتك » و« فى موكب الدعوة» و « فقه السيرة » و « ليس من الإسلام » و« هذا ديننا » و « من معالم الحق » و« كيف نفهم الإسلام ؟ » و « نظرات فى القرآن » و« مع الله ..دراسات فى الدعوة والدعاة » و« معركة المصحف » و « كفاح دين » و « الإسلام والطاقات المعطلة » و«الجانب العاطفى من الإسلام » و « سر تأخر العرب والمسلمين » .. وغيرها .. وغيرها .. كثير من الكتب والدراسات التى استهدفت تزكية الذات والنفس الإسلامية بالإسلام» [1] .

فالشيخ الغزالى «وإن كان رجل دعوة فى المقام الأول ، هو كذلك رجل من رجالات التجديد والإصلاح الذين شُغلوا بهموم المجتمع من حولهم ، وما تعانيه أمتهم من اختلال فى الأوضاع والأنظمة ، ومن فساد فى الأفكار والأخلاق ، ومن عوج شمل الماديات والمعنويات ، والأفراد والجماعات ، فلم يسلم منه الدين ولا السياسة ، ولا الثقافة ولا الاقتصاد ، ولا أى جانب من جوانب المجتمع .

ولم يكن الغزالى مصلحا مصريا ، وإن كانت مصر تأخذ الحظ الأول فى تفكيره واهتمامه ، ولا مصلحا عربيا ، وإن كانت العروبة وعاء الإسلام ، والعربية لسانه ، والعرب حملة دعوته ، ولكنه مصلح على مستوى الأمة الإسلامية كلها ، من المحيط

---

(١) محمد عمارة: الشيخ الغزالى.. الموقع الفكرى والمعارك الفكرية ، ص: ٢٦ ، ٢٧ .

إلى المحيط ، فهو يتحدث عن مأساة المسلمين فى الحبشة ، كما يتحدث عن نكبتهم فى البوسنة ، وعن أوضاعهم فى أندونيسيا كأوضاعهم فى المغرب» (١) .

لقد أدرك الغزالى ـ من قديم ـ أن الأمة التى شرفها الله سبحانه بحمل آخر رسالاته إلى خلقه ، مريضة ، وأن مرضها من ذاتها ، لم يتسبب فيه أحد سواها، وما استطاع أعداؤها أن يحكموا الخناق عليها إلا بعد أن وجدوا منها ضعفا وهوانا لا تقوى معهما على الحراك للدفاع عن نفسها .

لذلك حمل رحمه الله ـ منذ شبابه الباكر ـ لواء إصلاح أوضاع الأمة وتجديد كيانها بعد أن أنهكته العلل وقعدت به الأسقام ، حيث بدأ يبحث عن تشخيص كامل للداء العضال الذى ألمَّ بالأمة ، ثم عن أسباب استفحال هذا الداء وسريانه فى أوصال الأمة كلها بحيث شل قدراتها وعطل رسالتها ، ليذهب بعد ذلك إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ، يستنطق شواهدهما بالدواء الشافى من هذا المرض المستفحل .

ويكشف عن طرف من منهجه فى هذا المجال ، فيقول:

« إننى عندما أكتب ؛ أقسم مشاعرى وأفكارى قسمين: قسما يتعرف الواقع الإسلامى بدقة، أعنى أحوال أمتنا ، ما ظهر منها وما بطن . . . وآخر يتلمس من توجيهات الإسلام ما يشفى السقام ويدعم الكيان . .

وفى تعرفى على أحوال أمتنا ، أميز الأمراض الموروثة عن الأمراض الوافدة، حتى لا أضل العلاج ، ولا أسمح للأعراض المتشابهة أن تخدعنى عن جراثيمها المختلفة .

وفى تلمسى للأدوية ، أفرق بين الإسلام من مصادره المعصومة ، وبين تاريخه المتفاوت بين مد وجزر ، سواء كان هذا التاريخ سياسيا أو ثقافيا» (٢).

والغزالى،وهو يصف علل الأمة ويلتمس الدواء لها ، كان يدرك كامل الإدراك أن سبب مرض الأمة هو تركها لكتاب ربها وتلمسها للهُدى فى غيره،ولذلك فقد كان يدرك فى المقابل أنه لا دواء لهذه الأمة إلا بعودتها إلى هذا الكتاب وتخليها عما سواه، يقول:

« القرآن كتاب يجىء إلى البشر أجمعين؛ ليبنى قواهم على الحق، ولينشئ عواطفهم على الخير ، وليجعل التعاون على البر والتقوى الصلة الفذة لمجتمعهم والغاية الكبرى من تواصل عمرانهم .

---

(١) يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ١٨٦ .
(٢) علل وأدوية ، م . س ، ص: ٤ .

إن كثيرا من المسلمين جعلوا القرآن على هامش حياتهم ، وتركوا حفظه ودرسه للمنقطعين والمصابين . . وهم بهذا المسلك يخونون الله ورسوله ، ويخونون أنفسهم .

وإبعاد القرآن عن الحياة العامة ، ليكون نغما للمرتزقة بأصواتهم ، أو شارة للفاشلين فى دنياهم ، نذير شؤم يتهددنا بأوخم العواقب .

إننا نريد أن يكون القرآن ضياء لآفاق حياتنا كلها ، كما يستضىء العالم بالشمس فى رابعة النهار » (١).

والمتأمل فيما كتبه الغزالى فى إطار إصلاح أوضاع الأمة ، يلاحظ دون عناء كبير ، مبلغ شغف الشيخ بالقرآن ، وحرصه على استمداد هداياته ، وتلمس الأدوية لأسقام الأمة الإسلامية من آياته وتعاليمه ، فى مباحث تمثل نماذج للدراسة الموضوعية فى إطار القرآن الكريم (٢).

* **أما آخر ما خاض الغزالى من معارك** : فقد كانت تلك التى أدارها فى مواجهة فئة من الشباب المسلم ، اشتطت فى الحرص على التمسك بالسنة النبوية الشريفة ، والتشديد فى التطبيق الحرفى لظواهر نصوصها الجزئية ، وقد أدى بها هذا الشطط إلى الصد عن القرآن الكريم ، والتطاول على العلماء أصحاب المذاهب الفقهية ، وإلى فهم نصوص السنة النبوية فهما سقيما فى الكثير من الأحيان ، مما أدى إلى اصطدام هذه الفئة من الشباب المسلم بالكثيرين من العلماء الذين حاولوا إقناعهم بخطر المسلك الذى ينهجون عليه فى الالتزام بأحكام الدين وتعاليمه .

وقد خاض الغزالى هذه المعركة مكرها ، ذلك أنه وجد نفسه ـ على غير تقدير أو إعداد منه ـ فى مواجهة مباشرة مع هؤلاء، حين اتهموه بإنكار السنة النبوية الشريفة ، إذ ثارت ثائرة الغزالى فى مواجهة هذه التهمة، فراح يطاول هؤلاء بكل وسيلة فكرية متاحة.

لم يتهم الغزالى هؤلاء الشباب بأى تهمة ؛ وإنما اكتفى بأن يبين لهم أن القرآن هو المصدر الأول الذى ينبغى الرجوع إليه فى كل أمر من الأمور ، ولابد من إدراك أحكامه وفقه تعاليمه قبل الخوض فى النصوص الجزئية من السنة النبوية ، تلك النصوص التى ينبغى مقايستها أساسا إلى نصوص القرآن ، وفى ذلك يقول:

---

(١) نظرات فى القرآن ، م . س ، ص: ٧ ، ٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال: فصل «أولو الألباب فى كتاب الله» من كتاب « علل وأدوية » ، ص: ٣٩ ـ ٤٧ ، وفصل «بعض سنن الله فى القرآن » من كتاب «سر تخلف العرب والمسلمين » ، ص: ٣٠ ـ ٤٠ ، وفصل «ميراث الأرض لمن؟ » من كتاب « الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا» ، ص: ١٥٣ ـ ١٧٠ ، وغيرها .

«الذى أرانى مضطرا إلى التنبيه إليه هو ضرورة العناية القصوى بالقرآن نفسه، فإن ناسا أدمنوا النظر فى كتب الحديث واتخذوا القرآن مهجورا ، فنمت أفكارهم معوجة ، وطالت حيث يجب أن تقصر ، وقصرت حيث يجب أن تطول ، وتحمسوا حيث لا مكان للحماس ، وبردوا حيث تجب الثورة . . .

إن الغفلة عن القرآن الكريم والقصور فى إدراك معانيه القريبة أو الدقيقة ، عاهة نفسية وعقلية لا يداويها إدمان القراءة فى كتب السنة ، فإن السنة تجىء بعد القرآن ، وحسن فقهها يجىء من حسن الفقه فى الكتاب نفسه . . . إن الوعى بمعانى القرآن وأهدافه ، يعطى الإطار العام للرسالة الإسلامية ، ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة ويعين على تثبيت السنن فى مواضعها الصحيحة» (١) .

فالغزالى كان يرى أن الحفاوة الأولى إنما ينبغى أن تُصرف إلى القرآن أولا ، فهو مصدر الهداية ومنبع الرشاد والسداد ؛ لما توفر فيه من خصائص يقينية لم تتوفر لغيره أبدا ، أما دراسة السنة النبوية الشريفة فتأتى فى المرتبة الثانية ، ولا يجوز إفرادها بالدراسة فى غفلة عما انطوى عليه القرآن الكريم ، وفى ذلك يقول:« مع احترامنا للحشد الكبير من السنن المروية عن رسول الله ﷺ ، وحفاوتنا بالدراسات الحسنة التى تناولتها فى القديم والحديث ، فنحن نلفت النظر إلى أن للسنة منزلة ثانوية بعد القرآن نفسه ، وأن العالم الأصيل بالإسلام إنما تقوم ثروته العلمية أولا بمدى فقهه فى الكتاب العزيز ، وبصره بمعانيه ومغازيه ، ولمحه لدلالته القريبة والبعيدة .

وأن الصورة المتقنة للإسلام إنما تُعرف أبعادها وملامحها البارزة من القرآن أولا، ثم يجىء دور السنة فى الإيضاح والتفصيل بعد أن تمهدت الحدود وعرفت الضوابط. ولذلك نحن نرفض أن يشتغل بالسنة رجل فقير فى القرآن ، ونرفض أن يستخرج أحكامها رجل قصير الباع فى فقه الكتاب واستظهار أحكامه. . »(٢) .

تلك ـ فى نظرى ـ هى أمهات الروافد الفكرية التى شكلت التوجه القرآنى للشيخ الغزالى ، والتى كانت وراء توجهه إلى أن ينهج فى تفسير كتاب الله عز وجل منهجا أقرب إلى تحقيق مقاصد القرآن وأهدافه التى أراد الله عز وجل تحقيقها من إنزاله ، والتى يأتى على رأسها أن يكون هذا القرآن هو الدستور الذى يحكم الحياة الإنسانية ويضبط العلاقات بين الأفراد والأمم . وقد رأى فى التفسير الموضوعى خير منهج يمكن

(١) هموم داعية ، دار الشهاب ـ باتنة ، بدون تاريخ ، ص: ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) نظرات فى القرآن ، م . س ، ص: ١٦٦ ، ١٦٧ .

من خلاله الوصول إلى هذا الهدف . فكيف نشأ عنده التوجه إلى هذا المنهج ؟ وكيف تطورت وتبلورت فكرته فى ذهنه وأعماله حتى استقرت ثابتة فيما كتبه من تفسير موضوعى لسور القرآن ؟

ذلك ما نحاول الإجابة عنه فى الفصل الموالى بحول الله .

الفصل الثالث

النشأة والتطور

النشأة والتطـور

من طبيعة أى فكرة ينفرد بها أى عالم من العلماء أو مفكر من المفكرين ؛ أنها لا تظهر متكاملة فى فكره وأعماله لأول وهلة ، وإنما تبدأ بذورا وأشتاتا متفرقة ، ثم تزداد تطورا ونموا لتتحول إلى مزية ظاهرة ، ثم تنضج بعد ذلك لتصبح فكرة كاملة مستقرة .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل، تحتاج الفكرة إلى التعهد والاهتمام والاستحضار، حتى تنهض وتتكامل وتستقيم .

وعادة ما ترتبط هذه المراحل كلها من حياة الفكرة بطبيعة الحياة التى يحياها صاحبها، والبيئة التى يعيش فيها، والظروف والملابسات التى تحيط به فى هذه البيئة، ومدى فعاليته هو تجاه هذه الظروف والملابسات، وطبيعة مواقفه منها ، وأشكال مواجهته لها .

لذلك، ونحن ندرس المنهج الموضوعى فى التفسير عند الشيخ محمد الغزالى، ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أولا أنه ابن عصره، فهو لم يعالج قضية من القضايا، ولم يبحث مسألة من المسائل ، إلا وهو ينطلق من الواقع مشخصا علله وأمراضه، وباحثا عن دوائه وعلاجه .

ولم يكن له من ملجأ يبحث فيه عن دواء لأمراض هذا العصر وعلله ، سوى القرآن. فما من قضية من القضايا التى عالجها ، إلا وكان لدراسته القرآنية حضور فيها، فهو من القرآن ينطلق وإليه يؤوب .

فكيف نشأت فكرة التفسير الموضوعى عند الغزالى ، وما هى الأطوار والمراحل التى مرت بها ؟

ذلك ما نحاول الإجابة عليه فى هذا الفصل بحول الله وقوته .

* * *

١ـ مرحلة الانبثاق :

أول ما نشر الغزالى من مؤلفات، هو كتابه: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» وكان ذلك سنة ست وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة (١٩٤٧م) [١] . وقد قال فى مقدمة

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، مقدمة الطبعة السابعة ، ص: ٧ .

تلك الطبعة الأولى:

«هذا بحث مجمل فى موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية، اعتمدت فى موضوعه على الدراسة المجردة لنصوص الدين ، والفهم المستقل لآثاره الثابتة. . . » [1] .

كما أبان عن منهجه فى الاستدلال على القضايا المطروحة فى البحث ،فقال:

« وعلى نصوص القرآن أعتمد فى الاستدلال والاستنتاج ، مسترشدا بما قد يرد فى السنة من شرح وتفصيل» [2].

فمنذ البداية - إذا - شكَّل القرآن المنهل الأول للغزالى فى بحث القضايا والاستدلال عليها . وقد تبين ذلك واضحا فيما جرى عليه الغزالى فى أبحاث الكتاب كلها من لجوء دائم إلى القرآن ينهل من معانيه ويستشهد بآياته .

وفى هذا الكتاب نجد بواكير الاتجاه الموضوعى فى التفسير عند الغزالى ، فيما كتبه تحت عنوان: «القرآن والطبقات المترفة»[3] .

ففى هذا الفصل لجأ الغزالى إلى القرآن يبحث فيه عن وصف الطبقات المترفة وصفاتها التى تمتاز بها عن سائر الطبقات الاجتماعية الأخرى ، ويلخص موقف القرآن من تلك الطبقات فى كلام موجز ودقيق ، فيقول:

«يرى القرآن وجود الطبقات المترفة خطرا داهما لا يفتأ يتهدد الحياة الإنسانية ، ويملأ مستقبلها بالغيوم والرجوم .

ويرى أن تأمين الشعوب على سعادتها وحقها ، يتطلب، اتخاذ الوسائل الممكنة، للحيلولة دون ظهور الترف والمترفين .

وقد ذكر القرآن عدة أسباب لتسويغ هذه الخطة الحاسمة:

أولا : يقرر القرآن أن المترفين أعداء كل إصلاح ، وأنهم خصوم الحق، المتألبون ضده فى كل زمان ومكان ، تكاد لا تنبت دعوة للحق والشرف حتى ينأوا عنها متخذين نحوها صفة أحزاب «المعارضة» . . المعارضة الخسيسة التى تريد أن تكبت حديث الخير والعدل بحديث الثروة والمال، وتهجر مطالب العقل المتطلع إلى الهدى إلى مطالب الجوف المتكالب على الشهوات، وتهبط بطموح الروح إلى الحرية والكمال إلى حضيض المادة المتعلقة بالرفاهية الناعمة والجمود البليد .

---

(١) م . ن ، مقدمة الطبعة الأولى ، ص: ١٧ .

(٢) م . ن ، ص: ٢٠ .

(٣) انظر: م . ن ، ص: ٤٨ ـ ٥٥ .

ومن هنا وجه إليهم القرآن اتهاما عاما ، وألحق بهم وصفا ثابتا ، فقال:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : ٣٤ ، ٣٥] .

ثانيا : يقرر القرآن أن الطبقات المترفة مصدر فساد عريض، ومثار فتن متجددة، وأنها ـ بجوار غيرها من طبقات الأمم ـ تشبه المستنقع الراكد ، لا تزال تهيج منه جراثيم المرض ، وتنبعث منه روائح الحمى .

إن أساس التأخر وسبب الدمار الذى يصيب الأوطان والشعوب ، هو من هذه الطبقات: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦] .

ثالثا : ويقرر القرآن أن المترفين أعداء الشعوب ، وأن على الشعوب التى تريد الحياة الكريمة فى الدنيا ، والحياة السعيدة فى الآخرة ، ألا توالى هؤلاء الطغاة ، وأن تأبى الدخول فى طاعتهم والإذعان لأوامرهم ، وإلا كان مصيرهم مصير القائلين:
﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٦٧ ، ٦٨] »(١) .

فهذا المبحث ـ على إيجازه ـ يشكل باكورة التفسير الموضوعى عند الغزالى ، وهى باكورة اكتسبت الكثير من العناصر الضرورية، اللازم توفرها فى أى دراسة موضوعية من خلال القرآن، كما اكتسبت ـ إضافة إلى ذلك ـ البعد الواقعى، حيث وجه الغزالى بحثه فى هذا المبحث، وفى سائر مباحث الكتاب وجهة واقعية بحتة، إذْ كان فى كل مرة يقايس هذا الواقع إلى القرآن ، ويبين مدى انحرافه عن مقتضياته. ولعل خير دليل على ذلك ؛ ما ختم به المبحث المذكور ، إذ يقول بعد بيان وصف القرآن للطبقات المترفة:

« ونحن حين نرسل نظرات خاطفة إلى تاريخنا الطويل ، نجزم بأن قوى الشر قد انتصرت فى كثير من الأعصار والأمصار . ونرى أن الطبقات المترفة ـ حتى لو اتسمت بالثورية والتقدمية ـ لم تلبث أن استعادت سلطانها الذى أفقدها إياه الإسلام، يوم أن كان الوحى غضا فتيا، ويوم أن كان الحق عزيزا بجنده وأنصاره.. فلما انتقلت مقاليد الأمور إلى عبيد الشهوات وجلادى الشعوب من المترفين الثوريين وغيرهم ، وقف سير الحضارة العادلة الرشيدة ، بل تراجعت تراجعا آليا فى نواح كثيرة .

ولو استقرأنا أحوال أمتنا فى كثير من الأحقاب ، لراعنا الصراع الصامت العنيف

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، ص : ٤٨ ـ ٥٥ بتصرف وتلخيص .

بين الحق والباطل ، وبين الظلم والعدل ، وبين الشورى والاستبداد. ولراعنا أن حساب الأرباح فى بعض العصور ضئيل ، وأن حساب الخسائر سيل لا آخر له ، ولرأينا أدلة واقعية تتزاحم أمامنا ، شاهد عدل على أن الأمم التى تسلم زمامها للمترفين من أبنائها إنما تسلم عنقها لجزار أثيم » (١) .

وعلى هذا النهج ، أى علاج الواقع بالقرآن ، سار الغزالى فى كتبه التى تلت هذا الكتاب، ففى كتابه الثانى: «الإسلام والاستبداد السياسى»، وفى سياق حديثه عن طبيعة الاستبداد والأخطار التى جرها على الأمة الإسلامية ، وفى مبحث بعنوان: «طبيعة الحكم المطلق» استخلص من القرآن الصفات التى تصحب الاستبداد ويقوم عليها، وتتمثل أولا فى كبرياء الحاكم وتعاليه ، وثانيا فى استفحال الرياء بين السادة والأتباع ، وثالثا السرف الشديد ـ من أموال الأمة ـ على شخص الفرد الحاكم وعلى كل من يمتّ إليه بنسب أو يواليه بنصرة (٢).

وقد طبق هذه الصفات التى استخلصها من القرآن على واقع الأمة الإسلامية عبر قرون حياتها ، وتوقف عند المحطات التى تجلت فيها هذه المواصفات ، وكان لها تأثيرها الماحق على حياة المسلمين ومسيرة الأمة الإسلامية .

وفى مبحث آخر بعنوان: «عدو منذ الأزل» ، تحدث الغزالى ـ باستفاضة ـ عن نظرة الأديان السماوية إلى الاستبداد باعتباره عدوا لدودا منذ بدء الدعوة إلى الله على ظهر هذه الأرض ، مستخلصا ذلك أيضا من القرآن ، وذلك فى قوله:

« فى القرآن الكريم تفصيل لحقيقة الدعوة إلى الله تعالى ، وتأريخ لسير هذه الدعوة ، وبيان لما أصاب حملتها عندما قاموا بحق الله عليهم فى إبلاغ رسالتها إلى الناس . . . واستقراء أحوال الأنبياء مع أقوامهم يؤكد حقيقة واحدة ، لم تزدها الأيام إلا صدقا ؛ وهو أن الاستبداد الأعمى عدو الله وعدو رسله وعدو الشعوب ، وأنه لا قيام لحق فى هذه الحياة إلا إذا طُمست صور هذا الاستبداد ، وسويت به الأرض ، ومشت عليها الأقدام » (٣) .

ولا يكتفى الغزالى بتقرير هذه الحقيقة ، بل يحرص على سرد الشواهد الدالة من القرآن الكريم، فيستدل بقصة أصحاب القرية التى جاءها المرسلون، وقصة نوح مع قومه،

(١) م . ن ، ص: ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) الإسلام والاستبداد السياسى ، ص : ٢٦ ـ ٤٣ بتصرف.
(٣) م . ن ، ص: ٧٥ .

وقصة موسى مع فرعون ، وقصة إبراهيم مع النمرود ، وقصة شعيب مع أهل مدين ، وقصة النبى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع قومه قريش . ثم يختم عرضه لهذه الشواهد بخلاصة وجيزة ، قال فيها:

«. . .وبين نوح ومحمد عصور بعيدة كان السفرة الكرام البررة يجعلون للناس صحائف بيضاء من وحى الله ـ عز وجل ـ وهداه ، تترقرق فيها السماحة الرائعة ، فهل استحيا الطغاة وتركوا المرسلين يسلكون طريقهم فى سلام ؟ كلا! إن الاستبداد الأعمى عدو منذ الأزل لدعوات الخير والبر والاستقامة والإصلاح» (١) .

وهذا المبحث، والذى سبقه، نموذجان للدراسة الموضوعية من خلال القرآن الكريم، أو قل: نموذجان شكلا هما الآخران بواكير التفسير الموضوعى فى فكر الغزالى، تفسير لم يقصد منه سوى علاج الواقع بالقرآن ، ولم يكن يقصد أن يفسر القرآن ، فلا نعتقد أنه كان يخطر بباله فى ذلك الحين .

وفى كتاب : «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين» ، نماذج أخرى لهذا النوع من الدراسات القرآنية ، سطرها الغزالى لعلاج واقع متأزم عاشته مصر فى أربعينيات هذا القرن ، فبعد الفصول الخمسة الأولى، عقد الغزالى فصلا سادسا وأخيرا، وجعله تحت عنوان : «دروس من السماء» (٢).

فى هذا الفصل عرض الغزالى من خلال القرآن «قصة أمة أرادت الحياة بلا ثمن فأدبتها مطارق القدر» ، و«قصة قارون القديم» ، و« حوار بين ممثلى الطبقات» ، وهى كلها قصص قرآنية عرضها الغزالى بأسلوب معاصر رائق مشوق، وابتغى من خلال هذا العرض ضرب جذور الذل والانهزامية فى الأمة وقطع دابرها، حتى تستفيق هذه الأمة وتعود لها صحوتها من جديد .

توالت مؤلفات الغزالى بعد هذا الكتاب، حاملة كلها طابعا واحدا متميزا، هو الاغتراف من القرآن والنهل من منابعه الثرة التى لا تنضب، فكتبه: «تأملات فى الدين والحياة» ، «من هنا نعلم» ، «عقيدة المسلم»، «خلق المسلم» ، نهلت كلها من القرآن ، ووظف فيها الغزالى ـ فيما تناوله من قضايا ـ الكثير من النصوص المستمدة من كتاب الله ـ عز وجل، إلا أنه لم يعالج فى هذه المؤلفات قضايا معينة من خلال نصوص من القرآن خاصة .

بواكير التفسير الموضوعى عند الغزالى ، تعود مرة أخرى للظهور فى كتابه: «فى

---

(١) م . ن ، ص: ٨٩ .

(٢) الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، دار الشهاب ـ باتنة ، بدون تاريخ ، ص : ١٥٦ ـ ١٧٣ .

موكب الدعوة» ، حيث يواجهنا فيه فصل بعنوان: « من صور القوة فى القرآن» ، وهذا الفصل هو فى حقيقته تفسير موضوعى لسورة «العاديات»، حيث أبان فيه عن منزلة هذه السورة، وعن الموضوع العام الذى تدور حوله، ثم أسقط موضوعها على الواقع الذى كان يعيشه المسلمون فى مصر خلال الفترة التى كتب فيها هذا الفصل، وهى فترة أواخر الأربعينيات. ولعل أروع ما كتبه الغزالى فى هذا الفصل، قوله وهو يصف هذه السورة :

« وفى القرآن سورة يصح أن توضع آياتها فى إطار من المدافع المتشابكة والقذائف الملتهبة ؛ لأنك تلمح فى كلمها القوى صورة الصراع الدامى بين جند الرحمن وجند الطغيان ، وترى الفريقين وقد ارتجت من تحتهما الأرض وثار من فوقهما النقع ، ثم انجلى القتال بعدما كتب النصر لأهدى الفئتين وأرضاهما لله .

أما هذه السورة فهى سورة العاديات » (١).

إن هذه المؤلفات التى ذكرناها ، بما تضمنته من دراسات قرآنية تشكل بواكير التفسير الموضوعى عند الغزالى، وتمثل ـ فى الواقع ـ مرحلة متكاملة من التاريخ الفكرى والدعوى للشيخ، فقد كان اهتمامه ـ وهو يؤلف هذه الكتب ـ منصبا على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية التى كانت تحيط بالأمة الإسلامية عامة، وبمستقبل الوجود الإسلامى فى مصر خاصة، فقد رافقت كتاباته خلال هذه المرحلة«خطوات الدعوة الإسلامية الأولى فى العصر الحديث، وجاءت تسدد طريقها وتبصرها بأعدائها وتحذرها من المزالق التى ترسم لها، فى الوقت الذى كانت تصطرع فيه الأفكار والمبادئ لإيجاد البدائل الثقافية للإسلام ، وتكريس فصل الدين عن الدولة . . ولئن كانت كتاباته الأولى يمكن تصنيفها فى مجال الأدب الدفاعى . . إلا أنه لم يقتصر على هذا اللون من المواجهة الذى اقتضته الظروف من خلال الوسائل المتاحة، بل تجاوز ذلك إلى تأصيل الكثير من القضايا الثقافية فى الفكر الإسلامى»(٢). وقد كان هذا التأصيل ينطلق من القرآن الكريم، استدلالا بآياته ونهلا من هداياته؛ لإعادة إحياء دوره فى واقع المسلمين ومسار حياتهم ونظام اجتماعهم .

* * *

٢ـ مرحلة نقد موقف المسلمين من القرآن :

بعد هذه المرحلة، بدأت مرحلة جديدة تالية فى حياة الغزالى وكفاحه الإسلامى، وهى مرحلة انفتح خلالها باب الجهاد أمام الشيخ على جبهات متعددة، وكان ملزما بخوضها

(١) فى موكب الدعوة ، دار الكتب ـ الجزائر ، بدون تاريخ ، ص: ٣٩ ، ٤٠ بتصرف .

(٢) من تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب الغزالى «مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية » . كتاب الأمة ـ قطر ، العدد الأول ، جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ ، ص: ١١ .

كلها فى وقت واحد؛ فهذه جبهة الواقع الإسلامى وما يعانيه من تخلف وانكسار وهوان وانتشار فاحش للخرافات الفكرية والسياسية وسيطرتها على عقول العوام . وهذه جبهة الاستعمار الذى ينوء بكلكله الثقيل على كثير من البلاد الإسلامية ، ينتهب ثرواتها ويكبل حريات أبنائها . وهذه جبهة المستشرقين وما يبثونه من سموم ومفتريات لهدم أحكام الإسلام وإثارة الشبهات حولها . وتلك جبهة الضالين من أبناء الأمة من المثقفين الشيوعيين ، والليبراليين الذين يختلفون فيما بينهم فى كل شىء ويتفقون على شىء واحد هو العداء للإسلام والعمل على تقويض سلطانه من نفوس المسلمين .

هذه الجبهات ـ كما قلنا ـ انفتحت كلها أمام الشيخ فى آن واحد ، ولم يكن أمامه من سبيل غير مواجهتها فى آن واحد أيضا .

لذلك وجدنا إنتاجه الفكرى فى هذه المرحلة يتنوع ويتعدد ، وذلك ما تدل عليه عناوين الكتب التى أصدرها خلال عقدى الخمسينيات والستينيات من هذا القرن: «ليس من الإسلام» ، «كيف نفهم الإسلام؟» ، «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام»، «ظلام من الغرب» ، «كفاح دين» ، «الإسلام والطاقات المعطلة» ، «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» ، إلى غيرها من المؤلفات ، وصولا إلى كتابه «حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى».

خلال هذه المرحلة نقف أيضا على نماذج من الدراسات القرآنية فى مؤلفات الغزالى، يمكن اعتبارها نماذج للتفسير الموضوعى،فكتابه «مع الله . . دراسات فى الدعوة والدعاة»، تضمن فصولا عدة تمثل نماذج مباشرة للتفسير الموضوعى للقرآن ، مثل: «التعريف بالدعوة» ، «أمة ورسالة» ، «من لم تبلغهم الدعوة» ، «السنن العامة فى دعوة الرسل والأنبياء إلى الدين» .

والقارئ لهذه الفصول ، يلاحظ بصورة واضحة أن الغزالى كان يمارس التفسير الموضوعى ، وإن لم يفكر هو أنه يفعل ذلك ؛ إذ كانت غايته فى هذه المرحلة ـ كما سبق أن أكدنا ـ هى محاولة بث الوعى فى نفوس المسلمين بمدى أهمية القرآن فى حياة الأمة ، وأن سبب بلاوى هذه الأمة أساسا هو تضييعها لهذا الكتاب وصدها عن تمثل هداياته وتعاليمه . يتضح ذلك مما كتبه فى فصل: «السنن العامة فى دعوة الرسل والأنبياء إلى الدين» ،حين جاء إلى الحديث عن سنة انتصار الحق على الباطل ، حيث بين أن الحق الذى يحوز الانتصار ينبغى أن تتوفر فيه خصائص مميزة ، وأن الحق الذى تدعيه أمتنا خلال القرون الأخيرة حق مشوب لا تستحق معه أن تنتصر (١).

---

(١) انظر: مع الله . . دراسات فى الدعوة والدعاة ، ط: ٥ ، المكتبة الإسلامية ـ القاهرة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م ، ص: ٨٦ ـ ٨٨ .

في هذه المرحلة كذلك ، أصدر الغزالى كتابه : « نظرات فى القرآن » ، وهو الكتاب الذى انصب اهتمامه فيه على الحديث عن القرآن والقضايا المتصلة به ، وقد قدم فيه جملة من الأبحاث التى يتضح ـ من خلالها وبكل جلاء ـ الاتجاه الموضوعى فى التفسير عنده ، وذلك مثل: « الإنسان فى القرآن »، « الحياة العامة فى القرآن » ، « الثروة فى القرآن » ، « الألوهية فى القرآن » ، « النبوات فى القرآن » ، « الجزاء فى القرآن » ، « فساد الأمم كما يصوره القرآن » .

ومع كل هذه الموضوعات التى تناولها الغزالى بالبحث من خلال القرآن ، إلا أنه ـ وإلى غاية تأليف هذا الكتاب ـ لم يتحدث إطلاقا عن التفسير الموضوعى ، ولم يوظف تماما هذا المصطلح فيما كتبه فى هذا الاتجاه .

إلا أن هناك شيئا مهما ينبغى إبرازه هنا ، وهو أن الغزالى حين ألف هذا الكتاب صرح بأنه يعتبره مقدمة لتفسير كامل للقرآن الكريم ، وذلك حين قال فى الخاتمة:

« لما كتبت هذه النظرات رجوت أن تكون مقدمة بين يدى تفسير حسن للقرآن الكريم ؛ تفسير يلائم طريقة عصرنا فى الفهم والاستنباط ، ويترجم عن روح القرآن نفسه ، ويخلو قدر الطاقة من وجوه الإعراب وفنون البلاغة وجدل أهل الكلام والفلاسفة» (١).

ولكن ، هل كان الغزالى ـ فى تلك المرحلة ـ بفكر فعلا فى تأليف تفسير موضوعى للقرآن ؟

الراجح ؛ أنه إنما كان يفكر فى تأليف تفسير من نمط التفاسير المعهودة ، ولكن ينفرد عنها بمنهجه الذى ذكره ، والقائم على استبعاد الدقائق والمسائل التى تشوب نقاء صلة القارئ المسلم لكتاب الله به ، ولم يكن إلى ذلك الحين قد تكامل لديه تصور فعلى للتفسير الموضوعى للقرآن .

فى هذا الكتاب ـ أى: «نظرات فى القرآن» ـ اهتم الغزالى بإبراز علاقة المسلمين المعاصرين بالقرآن، ورأى أنها علاقة واهية ، وعلى الأصح منقطعة، فهو بتعاليمه وهدايته فى واد ، وهم بسلوكاتهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بالأمم الأخرى فى واد آخر بعيد .

وذلك ما سجله فى مقدمة الكتاب ، إذ يقول:

« إن كثيرا من المسلمين جعلوا القرآن على هامش حياتهم ، وتركوا حفظه ودرسه

(١) نظرات فى القرآن ، ص: ٢٧١ .

للمنقطعين والمصابين .

وهم بهذا المسلك يخونون الله ورسوله ، ويخونون أنفسهم .

وإبعاد القرآن عن الحياة العامة ليكون نغما للمرتزقة بأصواتهم ، أو شارة للفاشلين في دنياهم ، نذير شؤم يتهددنا بأوخم العواقب» [1] .

ثم أعاد تسجيل الموقف ذاته في الخاتمة ، فقال:

« ولا أدع القلم حتى ألوم أمتنا على موقفها المريب من كلام الله جل شأنه.

إن القرآن أصبح كتابا مظلوما .

أقفرت مواطنه من الحياة والنظارة ، والتف حوله آخر الناس صلة به .

ونحن نفقد رشدنا حين نتفقد هذا الكتاب في ضمائرنا وعقولنا فلا نجده» [2] .

لذلك ، دعا إلى إعادة النظر في سياسة تدريس القرآن الكريم وتحفيظه ، بما يجعل الأجيال الإسلامية الناشئة تستفيد منه وتسترشد في حياتها بهداياته:

« إن سياسة تحفيظ القرآن بحاجة ماسة إلى مراجعة، كيما تحقق الغاية النبيلة منها .

فنحن نريد بقاء التواتر الذى وصل به هذا القرآن إلينا ، حتى يصل كذلك إلى الأجيال التى تخلفنا .

ولكننا نريد كذلك ألا تلتف حول هذا القرآن هذه الجماهير المتآكلة به ، النازلة عن خُلُقه ، المنحرفة عن طريقه ، التى تستوعب أحرفه تجويدا وترتيلا ، ولا تعى من وصاياه شيئا يرفع رأسها أو يزكى نفسها . . . !!

إننا نريد إشاعة الثقافة الإسلامية المنبعثة من هذا الكتاب العزيز، وتفقيه العامة والخاصة فى روحه وشرائعه ومقاصده وآدابه، ونريد أن تعرف الأمة المنزلة السامية للوحى الإلهى الذى اختصت به، والواجب الكبير الذى يفرضه عليها» [3] .

* * *

٣ـ مرحلة الممارسة ونقد مناهج المفسرين:

بعد إصداره لكتاب: «نظرات فى القرآن» الذى نشره سنة١٩٥٧م، توجه الغزالى إلى الجبهات الأخرى التى كانت مفتوحة على العقل المسلم فى تلك المرحلة، فظل مرابطا على

---

(١) م . ن ، ص: ٨ . (٢) م . ن ، ص: ٢٧١ ، ٢٧٢. (٣) م . ن ، ص: ٥ ، ٦ .

ثغورها، مكافحا بالقلم واللسان، فألف: «معركة المصحف»، «كفاح دين»، «الإسلام والطاقات المعطلة»، «حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة»، «هذا ديننا»، «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين»، «ركائز الإيمان»، «حصاد الغرور» . . وقد أخذ تأليف هذه الكتب من الغزالى أزيد من عقدين من الزمن، أى حتى نهاية الستينيات.

أما منذ مطلع السبعينيات، فقد اتجه الغزالى إلى التفسير الموضوعى بصورة عملية، وأصبح يوظف مصطلح «التفسير الموضوعى» توظيفا واقعيا وعمليا، وذلك حين اتجه فى خطبه التى كان يلقيها على المصلين كل يوم جمعة إلى تناول سور القرآن الكريم بالتفسير الموضوعى، ففى يوم الجمعة ٣٠ نوفمبر ١٩٧٣م، أعلن على المصلين الذين حضروا للصلاة والاستماع إلى خطبته، أنه سيبدأ تفسير القرآن الكريم، حرصا منه على نفع المصلين بهدايات القرآن، وأنه سينطلق من تفسير سورة البقرة تفسيرا موضوعيا، وقد قال فى تلك الخطبة:

« أما بعد:

فإن الله جل شأنه سمى خطبة الجمعة ذكرا فى قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ** ﴾ [الجمعة: ٩] . . . والذين يسعون إلى هذا المسجد إنما يجيئون كى يكونوا من الحشود الماثلة فيه بين يدى الله مجلس ذكر كبير لرب العالمين . . . ثم إن الوقت الذى يقضونه هنا نحاسب عليه أمام الله، فلا يجوز أن يضيع إلا فيما هو جد ونافع وجامع لثواب الدنيا والآخرة.

وقد رأيت أن أبدأ تفسير السورة الكبرى فى القرآن الكريم، وأنا أتمثل هذين المعنيين: أننا جئنا هنا لنذكر الله جل جلاله، وأن أوقات الذين يجيئون هنا غالية لا يجوز أن تضيع إلا فيما هو خير» (١) .

والحق أن مفهوم التفسير الموضوعى كان واضحا كل الوضوح فى هذه المرحلة فى ذهن الغزالى، فهو يعتقد أن كل سورة لابد لها من موضوع جامع تدور حوله حتى وإن تنوعت موضوعاتها الجزئية، يقول فى الخطبة ذاتها:

« أحب أن أوجه النظر إلى خطأ شائع بين المسلمين، إنهم يظنون أن الآيات تُجمع فى السورة من السور ويُركم بعضها فوق البعض الآخر دون ترتيب أو ضبط أو تنسيق. بعض الناس يظن سور القرآن تجمعت الآيات فيها على هذا النحو؛ ركام الأحكام ليس هناك ضابط ولا رابط فى حشده وسوقه، وهذا خطأ كبير.

(١) خطب الشيخ محمد الغزالى فى شؤون الدين والحياة، م . س، ج: ٤، ص: ٧٩ .

ولذلك اجتهدت أن ألقى نظرات على التفسير الموضوعى للقرآن الكريم من على هذا المنبر . وتفسير سورة البقرة سنأخذ فيها هذا المنهج ؛ إن السورة كلها وحدة مرتبطة متناسقة ، لها محور تدور عليه ، ولها أول يمهد للآخر ، وآخر يصدق الأول ، ومهما طالت السورة فإن المعنى الذى نقرؤه الآن يطرد فى سور القرآن ، ومن أول هذه السور سورة البقرة » (١) .

فالفكرة واضحة ، والمنهج المتبع فى تجسيدها واضح أيضا .

وقد فسر الغزالى سورة البقرة خلال هذه الخطبة وفى عدة خطب بعدها ، كما والى تفسير السور التالية عليها ، ولسنا ندرى، هل أتم تفسير جميع سور القرآن الكريم أم لا ؟ فالخطب التى نشرت منها أربعة أجزاء، لا تتضمن سوى التفسير الموضوعى لسور: البقرة، آل عمران ، النساء ، التوبة ، الواقعة ، الفتح ، النور، الممتحنة .

وقراءة هذه الخطب توقفنا على منهج واضح فى إطار الاتجاه الموضوعى فى تفسير السور القرآنية ، وذلك من خلال الدفاع عن الوحدة الموضوعية للسورة ، وتوجيه سائر الموضوعات الجزئية التى تطرقت لها فى إطار خدمة ذلك الموضوع الواحد .

ولنأخذ كمثال يوضح ما نقول ؛ تفسيره لسورة النساء فى خطبته بجامع عمرو بن العاص ، يوم الجمعة ١٥ مارس ١٩٧٤م ، وقد بدأ خطبته تلك بقوله:

«إننا نقف اليوم وقفة استهداء وتدبر أمام سورة النساء، وسورة النساء سورة مدنية ، وهى السورة الرابعة فى المصحف الشريف . وعلى عادتنا فى التفسير الموضوعى نحاول أن نلتقط صورة سريعة لهذه السورة المباركة ، ونحاول أن نجمع ملامحها ونقرب معانيها فى هذه اللحظات القصار التى نؤدى فيها الخطبة» (٢).

ثم حدد العناصر المحورية التى يدور حولها البيان الإلهى فى هذه السورة ، فقال:

« يمكن أن نجمل العناصر التى تكونت منها سورة النساء فى هذه العناصر الخمسة:

١ ـ حديث عن الأسرة وقضاياها، أخذ الجزء الأول من السورة فى نحو ست صفحات.

٢ ـ حديث عن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أخذ ما يلى الحديث عن الأسرة، وخُتمت به السورة فى حديث عن النصرانية ومزاعمها .

٣ ـ حديث عن المنافقين وعن ضعفاء الإيمان .

٤ـ حديث عن الجهاد فى سبيل الله .

---

(١) م . ن ، ج: ٤ ، ص: ٨٠ . (٢) م . ن ، ج: ٤ ، ص: ١٤٧ .

٥ـ حديث عن الحكم بما أنزل الله » [١].

ولم يفوت الغزالى الفرصة ، وهو يتحدث عن هذه السورة ، ليتوجه بالنقد إلى المناهج التفسيرية التى تناولت القرآن وسوره بطريقة تجزيئية ، وبين أهمية المنهج الموضوعى فى التفسير كبديل فى هذا الإطار:

« قلنا: إن الفائدة من الدراسة الموضوعية لسور القرآن الكريم أنها تعطيك فكرة عجْلى عن السورة ، بحيث إذا رجعت إلى نفسك وأخذت تتلو كتاب ربك وتتدبر ما أودع الله فيه من هدايات ، تعرف أين تسير وما الذى يواجهك ، فإن من العجز الذى وقع فيه بعض المفسرين والقراء أنهم ظنوا آيات القرآن الكريم رُكم بعضها فوق البعض الآخر دون رباط واضح ودون خطة بينة !!

وهذا من العجز فى تدبر القرآن والقصور فى إدراك معانيه ومغازيه» [٢] .

وقد قدم الغزالى بعض التفسير للسورة فى تلك الخطبة ، ثم عاد إلى استكمال تفسيرها فى خطب الجمعة الموالية ، حيث أعاد التذكير بعناصرها الخمسة السابقة ، وأردف بالتأكيد على الترابط الموضوعى بين هذه العناصر ، وقال:

« . . . هذه العناصر ـ بداهة ـ لم تقسم تقسيما فنيا على أجزاء السورة ، فإن القرآن الكريم لا يعرف هذه التقسيمات العلمية المحدثة ،وإنما كان الحديث عن هذه العناصر جميعا ملتحما بعضه مع البعض الآخر ، وربما تماسك السياق فى السورة كلها فرأينا حديثا عن الأسرة يتخلل حديثا عن هذه الطوائف .

وقد سألنى بعض الإخوة المتابعين ، قال: إننا ألفنا فى التفسير الموضوعى أن نعرف المحور الذى تدور عليه السورة ، وقد كشف فيما تناولنا من سور سابقة ، فما المحور الذى تدور عليه سورة النساء؟

والجواب: إن هذه السورة ـ باتفاق المسلمين ـ نزلت فى المدينة المنورة ، والوحى النازل فى المدينة المنورة يتجه غالبا إلى المجتمع الإسلامى؛ يُرسى دعائمه ويبين معالمه ، وذلك على عكس ما يُعرف فى الاتجاه المكى من تناول النفس الإنسانية وغرس الإيمان فى أعماقها ، وبنائها على المنافحة والمجالدة وتحمل الأذى فى سبيل الله ، حتى يمكن أن ينهض هذا البناء المؤمن فى وجه العقبات الكثيرة التى تعترضه .

أما فى المدينة المنورة ـ بعد أن تكوّن للمسلمين مجتمع ـ فإن اتجاه الوحى فى السور المدنية إلى دعم هذا المجتمع وإرساء القواعد التى ينهض عليها ، وتوضيح المعالم التى لا بد أن يصطبغ بها وأن تظهر فيها خصائص الأمة الجديدة ، وسورة

(١) م . ن ، ج: ٤ ، ص: ١٤٩ .
(٢) م . ن ، ج: ٤ ، ص: ١٤٩ ، ١٥٠ .

النساء ـ من هذه الناحية ـ تقوم على دعم المجتمع الإسلامى وحياطته وتبيين وسيلته وغايته .

ولما كانت الأسرة أساس كل مجتمع صالح، كان لا بد أن تتحدث السورة فى صفحات طوال ـ فى نحو ست صفحات ـ عن الأسرة وقضاياها . ثم لما كانت الأمة فى المدينة تتكون من طوائف كثيرة ـ من يهود ونصارى ومنافقين ومؤمنين ضعفاء يحتاجون إلى تقوية ـ بينت السورة هنا ما يجب على الأمة الإسلامية بإزاء هذه النزعات الموجودة خلالها » (١) .

وعلى هُدى من هذا الفهم الموضوعى الشامل للمحور العام لسورة النساء ، تناول الغزالى عناصرها بالدراسة التفصيلية التى تخدم إبراز هذا المعنى الشامل الذى هو إرساء قواعد المجتمع الإسلامى الجديد وإبراز معالمه التى تميزه. وقد استغرقت منه هذه الدراسة الموضوعية لسورة النساء أربع خطب متوالية .

على صعيد آخر ؛ يبدو أن نشاط الغزالى فى ميدان الكتابة والتأليف كان قد تراجع كثيرا خلال فترة السبعينيات هذه؛ إذ لا نقف له على مساهمات مكتوبة خلال هذه الفترة، لا فى إطار التفسير الموضوعى ولا فى غيره من الموضوعات، نتيجة الظروف التى ألمت به فى مصر ، وهجرته بعدها إلى السعودية .

أما بنهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات، فإننا نجد الغزالى يعود إلى الكتابة والتأليف، وبقوة ملحوظة، فخلال سنوات قليلة ظهرت له مجموعة معتبرة من الكتب، منها: «الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر»، «مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية»، «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء» ، «هموم داعية»، «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» ، «الحق المر» ، وغيرها من المؤلفات التى جاءت لتعالج أوضاعا جديدة طرأت على الحياة الإسلامية ، تمثلت فيما اصطلح عليه باسم: « الصحوة الإسلامية المعاصرة » التى عرفت مسيرتها الكثير من الإيجابيات، كما عرفت الكثير من السلبيات أيضا .

وقد ظهر للشيخ خلال هذه المرحلة كتابان تضمنا مساهمات فى إطار التفسير الموضوعى:

أحدهما :هو كتاب: **«علل وأدوية»** ، وقد ضمنه بحثين هامين مثلا دراستين قرآنيتين ظاهرتين ، هما: «الإنسان فى القرآن» (٢) ، و «أولو الألباب فى كتاب الله»(٣) ، حيث

---

(١) م . ن ، ج: ٤ ، ص: ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) علل وأدوية ، م . س ، ص : ٥ ـ ٢٣ .

(٣) م . ن ، ص : ٣٩ ـ ٤٧ .

تتبع الآيات القرآنية المتعلقة بهذين الموضوعين، ثم نسقها وفسرها وعرضها بأسلوب بيانى بليغ ، أسفر ـ بكل وضوح ـ عن حقيقة هذين الموضوعين، وخاصة حين أسقط البيان القرآنى على واقع المسلمين وما يعانونه فى حياتهم من تناقض وهوان.

أما الكتاب الآخر : فهو: « **سر تخلف العرب والمسلمين** » ، الذى ضمنه هو الآخر فصلا بعنوان: «بعض سنن الله الكونية فى القرآن»(١)، عرض فيه عشرة من القوانين التى هى « نموذج لما يكفل الحضارات ويحصن الأمم ، ودراستها حياة ونماء للعقائد والأخلاق» (٢) ، مستخلصا إياها من القرآن ، ومبينا أثر تجاهل المسلمين لها فيما حاق بهم من هوان وانهيار ودمار عبر القرون .

هذه النماذج التى قدمها الغزالى فى إطار التفسير الموضوعى فى هذه المرحلة، مثلت انطلاقة جديدة فى علاقته مع هذا النوع من الدراسات القرآنية. وهى العلاقة التى توطدت أكثر فأكثر بافتتاح جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة (الجزائر) ، سنة ١٩٨٤م، ومجىء الغزالى من قطر للمساهمة فى إرساء دعائمها، وقيامه بالتدريس لطلبتها، حيث ازداد اهتمامه بالمنهج الموضوعى فى التفسير ، كما ازداد لديه اليقين بأن النظرات الجزئية إلى القرآن الكريم لا تجدى نفعا، بقدر ما تساهم فى استفحال النظرة الضيقة إلى آيات الكتاب الكريم ،وذلك من خلال الفصل بينها وبين مثيلاتها من حيث الموضوع .

وفى خلال السنوات الخمس التى قضاها الغزالى بالجزائر ، قدم أكثر من مساهمة جديدة فى إطار التفسير الموضوعى ، فقد ألف فى هذه الفترة كتابه: «المحاور الخمسة للقرآن الكريم» الذى حصر فيه مقاصد القرآن فى محاور خمسة ، هى: الله الواحد ، الكون الدال على خالقه ، القصص القرآنى ، البعث والجزاء، التربية والتشريع . وقد جمع لكل واحد من هذه المقاصد ما يتعلق به من السور والآيات ، ثم نسق بينها وفسرها ، بما يسفر عن قسمات كل مقصد كما يصورها القرآن الكريم .

ولم يكتف الغزالى بهذه النظرات الموضوعية إلى المقاصد الكبرى للقرآن فحسب ، بل ضمن الكتاب أيضا مقارنات بين نوعى التفسير : الموضعى والموضوعى، وذلك من خلال عرض نموذجين لتفسير سورة الواقعة، أحدهما من النوع الأول ، والآخر من النوع الثانى (٣).

والحق، أن الغزالى قبل أن ينشر عمله هذا فى صورة كتاب ، كان قد ألقاه فى

---

(١) انظر: سر تخلف العرب والمسلمين ، دار البعث ـ قسنطينة ، ص : ٣٠ ـ ٤٠ .

(٢) م. ن ، ص : ٣٢ .

(٣) انظر: المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، دار الهدى ـ عين مليلة (الجزائر) ،ص : ١٦٦ ـ ١٧٩ .

شكل محاضرات ثلاثة نظمها له المركز الثقافى الإسلامى بالجزائر العاصمة خلال شهرى: ديسمبر ١٩٨٤ ، ويناير ١٩٨٥ م . وقد طبع المركز هذه المحاضرات الثلاث إلى جانب محاضرات أخرى للغزالى ألقاها بذات المركز وتصب كلها فى نفس الإطار ، فى كتيب يحمل عنوان: «نماذج من التفسير الموضوعى للقرآن الكريم» .

كما قدم الشيخ، خلال عمله بالجزائر أيضا ، تفسيرا موضوعيا كاملا لكل السور القرآنية ، وذلك فى شكل دروس مسائية ألقاها عبر شاشة التلفزيون خلال كامل أمسيات شهر رمضان سنة ١٤٠٧ أو ١٤٠٨هـ [١] ، حيث تناول كل السور القرآنية بالتفسير الموضوعى ، عبر ثلاثين درسا لا تتعدى مدة الواحد منها ربع أو ثلث الساعة . وقد استطاع ـ رغم ضيق المساحة الزمنية ـ أن يبين من خلال تلك الدروس عن عظمة القرآن الكريم ، ويبرز هداياته جلية ناصعة أمام كل ذى عينين. كما استطاع أيضا أن يستقطب بتلك الدروس اهتمام المشاهدين الجزائريين الذين كان الكثيرون منهم يحرصون على ألا تفوتهم مشاهدة أى درس من تلك الدروس .

فالمرحلة التى قضاها الغزالى فى الجزائر ، كانت خصبة وثرية بالنسبة للتطور التكاملى للاتجاه الموضوعى فى التفسير عند الغزالى .

أما بعد عودته إلى مصر سنة ١٤٠٩هـ، وتفرغه الكامل من أعباء التدريس، فقد عكف الغزالى على الكتابة والتأليف، وقد ظهر له فى بداية التسعينيات كتاب: «كيف نتعامل مع القرآن؟»، وهو عبارة عن مدارسة أجراها معه الأستاذ عمر عبيد حسنة .

فى هذه المدارسة انتقد الغزالى بشدة علاقة المسلمين بالقرآن ، قائلا:

«موقف المسلمين من القرآن الذى شرفوا به يثير الدهشة؛ ومن عدة قرون ودعوة القرآن مجمدة، ورسالة الإسلام كنهر جف مجراه، أو بريق خمد سناه . . . !

والأمة التى اجتباها الله تتعامل مع القرآن تعاملا لا يجوز السكوت عليه . كان الجاهليون الأقدمون يصمون آذانهم عن سماعه ، ويتواصون بالشغب على مجالسه، ويعالنون بتكذيب صاحبه ، حتى شكا صاحب الرسالة إلى ربه هذا الكنود قائلا: ﴿ **يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** ﴾ [الفرقان: ٣٠] .

أما المسلمون المتأخرون ، فهم يسمعون ، وقد يتأوهون أو يسكنون ، ولكن العقول مخدرة والحواس مبعثرة ، ومسالك الأفراد والجماعات فى واد آخر ، وكأنها تُنادى من

---

(١) لم أستطع أن أتذكر أى السنتين بالتحديد .

مكان بعيد» (١) .

ويُرْجعَ الغزالى ـ فى موضع آخر ـ سبب هذا الانفصام إلى خلل فى طريقة الأخذ من القرآن ، فهو يعتبر أنه «من غير شك ، هناك خلل فى أخذنا من القرآن الكريم ، وهذا الخلل سرى حتى فى الأعمال الشخصية المحدودة جدا ، فأنت ترى الرجل يتوضأ ويبقى وسخا ؛ لماذا ؟ لأنه أمرَّ الماء وهو ذاهل ، ما نظف به درنا وما أزال به وسخا ، فكذلك نحن نستمع للآيات دون وعى: ﴿ **فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِين** ﴾ [الروم: ٥٢] .

فلابد من أن يتلاشى هذا الخدر الذى قيد الأفكار وقيد الحواس وقيد الأعضاء، فأصبحنا لا نتحرك بكتاب ربنا كما حرك هذا الكتاب آباءنا» (٢) .

وفى سبيل علاج هذا الخلل، يطرح الغزالى منهج التدبر لكتاب الله عز وجل، معتبرا أن وجوب العودة إلى تلاوة القرآن وتدبره واستحضاره إلى حقول الممارسة، هى السبيل التى يمكن للمسلمين أن يصلوا من خلالها للخروج مما هم فيه من تخلف وضياع:

« أرى ـ يقول الغزالى ـ أنه لا بد أن نعود لدراسة القرآن . . . وتلاوة القرآن عندنا مطلوبة . . . والتعبد بتلاوة القرآن كان لاستبقاء الوحى الذى صانه الإسلام»(٣) .

و«لابد من التدبر. . .فإذا تدبرنا الآيات ، نقلناها إلى حقول الممارسة على الأقل ، أو إلى ميادين السلوك؛لنعرف كيف نعمل هذه الآية فيما نعانى منه وفى ما نواجهه، فإذا قيل: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُون** ﴾ [يونس: ٨١ ، ٨٢] ، فإننا يجب أن نجىء بهذه الآية وننظر إلى أعمالنا، وهى قاصرة ، هل يكملها الله؟ لا . . . لن يكملها الله ؛ لأنه لا يصلح عمل مفسد ، إذن، ما الخلل الذى أصاب العمل فجعله لا ينتج ؟ لا بد من استدراكه حتى يؤذن الله بالصلاح ؛ لذلك لابد من تحرى الصواب فى العمل ، إلى جانب الإخلاص » (٤) .

ويرى الغزالى أن النظر الجزئى إلى سور القرآن وآياته ،هو بعض مظاهر الخلل فى علاقة المسلمين بالقرآن ؛ ولذلك فهو ينتقد هذا النوع من النظر ، ويطرح منهج النظر المتكامل بديلا عنه ، يقول فى ذلك:

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن ، دار الانتفاضة ـ الجزائر ، بدون تاريخ ، ص: ٢٥ .

(٢) م . ن ، ص: ٥٦ . (٣) م . ن ، ص: ٣١ .

(٤) م . ن ، ص: ٥٤ .

« كنت أنظر أحيانا إلى طريقتنا فى فهم القرآن ، فكنت أجد أنها طريقة تستحق التأمل ، بمعنى أنه لكى نقول: إن العمل الذى نؤديه هو من صنع الله ، استدللنا بالقرآن: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ، انتزعنا هذه الآية من السياق كله لكى تدل على مذهب أهل السنة أن العمل مخلوق لله ؛ ونسينا أن هذا الكلام لو صحَّ ما كان عبدة الأصنام مسؤولين ؛ لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله ، وشركهم ووثنيتهم مخلوقة لله ، فما عليهم من ذنب ؛ لكن نحن أخذنا ظاهر الآية وقطعناها من سياقها ، من قبل ومن بعد ، وجعلناها هكذا دليلا لرأى باطل . . . إنها آفة التجزىء .

فشمول النظرة القرآنية أمر لابد منه لكى تعطى الأحكام الصحيحة من الناحية الفقهية التشريعية ، فإذا أدركنا أن الإنسان مخلوق سوى ، له سمع ، وله بصر ، وله فؤاد ، ولابد أن يستغل هذه الوظائف جميعا فى تصحيح إنسانيته ، والعيش بها، أدركنا أنه لا يمكن أن يتم هذا الذى قاله القرآن الكريم فى مكان آخر ، مع إباحة الإكراه ، فكيف تكره أحدًا ؟ إنك بهذا تلغى إنسانيته . . . وما فائدة الحكم الشرعى إذا فقد الإنسان الذى يطبق الحكم الشرعى ؟» (١) .

ويعتبر الغزالى أن السبيل إلى تحقيق هذه الرؤية الشاملة، إنما يمر عبر إنشاء منهج التفسير الموضوعى للقرآن الكريم:

« التفسير الموضوعى بشقيه ، وهو مثلا: النبوة فى القرآن ، المال فى القرآن ، العدالة فى القرآن ، ربما كان إنشاء تفسير موضوعى من هذا النوع يكون فيه معالجة لهذا الواقع ، ومنطلق ثقافى لرؤية قرآنية شاملة ومتوازنة . . . يضاف إلى ذلك أن النظرة الموضوعية للسورة كاملة ، ومعرفة الأغراض التى تدور حولها ، يمكن أن تساهم أيضا بتكوين المنطلق الثقافى للرؤية الشاملة » (٢) .

وإذ يطرح الغزالى منهج التفسير الموضوعى كخيار ضرورى، فإنه لا ينطلق من فراغ، إنه ينطلق أساسا من نقد المناهج السابقة فى تفسير كتاب الله ـ عز وجل. يقول فى ذلك:

« يمكن حصر المدارس القرآنية فى عدد من المدارس:

فهناك مدرسة الأثريين ، أو أصحاب التفسير بالمأثور، وهى مدرسة يمثلها ابن كثير ، وتفسيره شائع ، وإن كان ابن جرير الطبرى أرقى منه ، وتفسيره أدق . . والذى يعيب هذه المدرسة ـ فى نظرى ـ أنها ربطت تفسير الآيات بأحاديث أغلبها ضعيف ، فكانت

---

(١) م . ن ، ص: ٧٣ ، ٧٤ ، بتصرف وتلخيص .   (٢) م . ن ، ص: ٧٣ .

مصيدة حالت دون انطلاق الفكر القرآنى إلى أهدافه الشاملة فى التفسير ، ووسيلة إلى شيوع الأحاديث الضعيفة التى بنى عليها المحدثون فكرهم القرآنى . . . وعندما وضع سيد قطب ـ رحمه الله ـ مؤلفه: «فى ظلال القرآن» اعتمد على تفسير ابن كثير فى النصوص ، وترك ما وراء هذا ، على قدرته الأدبية على الصياغة ، وعلى أن يسبح مع الأفكار الجديدة .

وهناك التفسير الفقهى للقرآن ، وهو تفسير طوَّع الآيات لأحكام الفقهاء وطريقتهم فى الاستنباط ، ولم يهتم إلا بآيات الأحكام التشريعية ، واقتصر فى ذلك على الحكم الشرعى دون المقاصد الأخرى ، وهذا فيه شىء يستدعى الاستدراك .

وهناك التفسير الكلامى ، وأنموذجه الرازى مثلا فى: «التفسير الكبير»، وهو تفسير ينبغى أن نأخذ منه بطرف وندع أطرافا أخرى ؛ لأنها خرجت بالتفسير عن مجاله .

وهناك التفسير البيانى ، وهو مثل تفسير الزمخشرى وأبى السعود والبيضاوى، وقد رأيت عددا من المفسرين ، إلى جانب مفسرين آخرين من مدارس أخرى ، كانوا بلاء على الأمة الإسلامية ، على الرغم من أنهم خدموا البلاغة العربية ، وخدموا التفسير البيانى للقرآن أجل خدمة . . . لكن حملت تفاسيرهم ـ إلى جانب ذلك ـ إساءات كبيرة للفكر القرآنى . . . أنا أسأل نفسى: من الذى أشاع قصة زينب بنت جحش ؟ إنهم مفسرون من هذا النوع . . فالقصة خرافية لا أصل لها . . وهناك قصة مثل قصة الغرانيق ، وقع فيها بعض المفسرين عن غفلة مثل ابن حجر ، وغيره .

وهناك مدارس أخرى ، وكل مدرسة من هذه المدارس لها خير وعليها مأخذ»(١).

ولكن ، هل كان الغزالى ـ من وراء هذا النقد ـ يريد أن نطرح جانبا كل ما قدمته هذه المدارس التفسيرية ، ونبدأ من جديد ؟! لا ، أبدا ، فما كان الرجل ليرمى إلى ذلك مطلقا ، وإنما كان فقط يدعو إلى عدم الجمود على ما قدمه السابقون دون القدرة على الاستفادة منه فى انطلاقة جديدة ، فهو يرى أنه «لا يجوز أن نجحد فضل صاحب الفضل ، ولكننا نريد للعصر الحديث والصحوة الإسلامية ـ لكى تكون ناشبة بأعماق الإسلام ، ومنطلقة من أعماقه الصحيحة ـ أن تقدم جيلا واعيا، موصولا بالقرآن ، مدركا لأبعاده ومقاصده أولا . . وأن تنظر إلى هذا الجهد البشرى على أنه جهد ، خطؤه وصوابه متقاربان وجائزان ، وتنتفع من تجارب الاحتكاك بالأفكار والعقائد

(١) م . ن ، ص: ٣٩ ـ ٤٢ .

والأديان الأخرى ، فى ضوء منهج نضيج ، فلا تقول كلاما مضحكا» (١) .

بعد «كيف نتعامل مع القرآن» ، وفى أمد قريب ، صدر للغزالى كتاب آخر ، هو : « تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل» ، وقد ضمنه غربلة شاملة للتراث العلمى الإسلامى ، برؤية تنطلق من هدايات القرآن وتنتهى لتصب فى إطار خدمة هذه الهدايات والسعى للتطابق معها فى الواقع .

فى هذا الكتاب فصل بعنوان : « على هامش التفسير» ، قيم فيه الغزالى مناهج المفسرين السابقين ، كما فعل فى الكتاب السابق ، ولكن بطريقة أكثر عمقا ودقة ؛ حيث انتقد هذه المناهج فى ضوء نماذج تفسيرية اقتبسها من روادها ، وبين كيف أن تلك التفسيرات انغلقت فى إطار تخصصات أصحابها ، فالبلاغى لا ينظر من آيات القرآن إلا إلى ما تضمنته من أساليب بيانية ، والفقيه يجعل من التفسير ميدانا للمقارنة بين الآراء الفقهية ، ويتخذ منه وسيلة للترجيح بينها ، فعيبها أنها حولت الوسائل إلى غايات :

« ورحم الله من علمونا اللغة العربية والفقه الإسلامى ، وهم يفسرون القرآن الكريم ، لقد أفدنا منهم كثيرا ، وكل ما أريد بيانه ـ يقول الغزالى ـ أن علوم اللغة والفقه وسائل لتقرير المعنى المراد ، وسائل لابد منها ، فما يُحسن التفسير إلا من وعاها .

ولكن الوسائل لا تتحول إلى غايات ، ومن الممكن بعد شرحها أن نفتح القلوب بالمعانى النائية للوحى الإلهى ، وكيف يهدى الله الناس إلى الحق بما شرع من أحكام .

يستطيع المفسر الموفق أن يشرح سنن الله فى الائتلاف والاختلاف، والحب والكره، وتقوى الله على الحالين ، وأن يشرح آثار النزق فى هدم البيوت ، ومعنى اعتداء حدود الله ، وضرورة التماسك أمام إلحاح المشاعر الثائرة .

إن الوسائل البلاغية والأحكام الفقهية جزء من السياق المحكم للتربية القرآنية المنشودة ، ولا يجوز ـ كما قلنا ـ أن تتحول الوسائل إلى غايات » (٢) .

ولم يكتف الغزالى فى هذا الموضع بنقد المنهجين البلاغى والفقهى دون غيرهما من مناهج المفسرين ، بل انتقد أيضا منهج التفسير الصوفى، والتفسير الكلامى ، وأخيرا

(١) م . ن ، ص: ٤٢ .

(٢) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل ، م . س ، ص: ١٢٤ .

التفسير الأثرى ، الذى خصه بمزيد من الدراسة ، حيث ذكر عددا آخر من المآخذ على هذا النوع من التفسير ، رغم اعتباره له أحسن المناهج ، وأنه «نور على نور»(١).

وقد انصب نقده لهذا المنهج خاصة ، على ما تضمنه من إسرائيليات وأساطير شابت صفاء القرآن الكريم وثقافة المسلمين ذات الصلة بالقرآن . ثم قدم الغزالى منهج التفسير الموضوعى كمنهج للرؤية الشاملة للقرآن الكريم ، فبين المعنى المقصود منه ، وقدم له نموذجين:

أحدهما: فى إطار التناول القرآنى للموضوع الواحد(٢) .

والثانى: فى إطار النظر الموضوعى إلى السورة القرآنية ممثلا فى سورة الطلاق(٣) .

* * *

٤ـ مرحلة التكامل والاتساق:

فى الوقت الذى صدر فيه هذا الكتاب أو بعده بقليل، انطلق الغزالى ـ عمليا ـ فى تجسيد نظريته الجديدة فى التفسير الموضوعى ، فى قالب تطبيقى نموذجى ، حيث شرع فى إنجاز كتابه: «نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم» .

فبعد التطورات العديدة البارزة التى مرت بها رؤيته لمنهج التفسير الموضوعى ، والتجارب الكثيرة التى تقلبت خلالها طيلة خمسين سنة من الزمن ، جاء أوان تكامل هذه النظرة واتساقها الشامل فى فكر الشيخ ؛ لتجد تجسيدها الواضح والصريح فى هذا الكتاب الأخير الذى أنجزه الشيخ رحمه الله قبل فترة وجيزة من وفاته .

وقد صدرت الطبعة الأولى من الجزء الأول من هذا التفسير فى أغسطس ١٩٩٢م ، ثم صدر الجزء الثانى فى طبعته الأولى أيضا سنة ١٩٩٣م ، أما الجزء الثالث فقد صدرت الطبعة الأولى منه هو الآخر سنة ١٩٩٥م .

أما الطبعة الكاملة من التفسير مضمنة فى مجلد واحد كبير ، فقد صدرت فى بداية سنة ١٩٩٦م ، أى قبل وفاة الغزالى بفترة قصيرة . والملاحظ على الطبعة الكاملة أنها صدرت بدون مقدمات الجزئين الثانى والثالث ، مع ما لهما من أهمية فى البحث عن التطور التكاملى لمنهج التفسير الموضوعى عند الغزالى .

وبصدور هذا التفسير كاملا تحقق للغزالى أمله الذى كان أفصح عنه سنة ١٩٥٧م ،

---

(١) م . ن ، ص: ١٢٥ .
(٢) م . ن ، ص : ١٢٩ ـ ١٣١ .
(٣) م . ن ، ص : ١٣٢ ـ ١٣٤ .

حين أعلن فى كتابه : «نظرات فى القرآن» عن نيته فى كتابة تفسير كامل للقرآن الكريم .

وبصدور هذا التفسير أيضا ، يكون الاتجاه الموضوعى فى تفسير كتاب الله قد تكامل عند الغزالى ، فى قالبيه ؛ النظرى والتطبيقى على سواء .

وقد آن لنا بعد هذا التتبع لنشأة وتطور الاتجاه الموضوعى فى التفسير عند الغزالى ، أن نمضى إلى دراسة مفهوم الغزالى للتفسير الموضوعى ونوعيه ، وكذا علاقته بمناهج التفسير الموضعى ، مما هو موضوع الفصل القادم بحول الله ـ عز وجل .

الفصل الرابع

النظرية والتطـبيق

النظرية والتطبيق

من عادة أغلب المفسرين لكتاب الله ـ عز وجل ـ أن يتوجهوا رأسا إلى تناول السور والآيات القرآنية بالتفسير والتحليل ، دون أن يقدموا لذلك بمباحث يبينون من خلالها مناهجهم فى التفسير ، أو القضايا التى يركزون عليها اهتمامهم فى دراستهم التحليلية لكتاب الله عز وجل .

وربما يرجع ذلك إلى أن هؤلاء المفسرين ، لا تكون القواعد التى يسلكونها فى التفسير واضحة فى أذهانهم ، وإنما تمارس تأثيرها على مناهجهم فى التفسير من خلال موقعها فى خلفياتهم الفكرية والثقافية . ولا يكتشف هذه القواعد المنهجية إلا الدارسون اللاحقون الذين يأتون بعدهم ويهتمون بدراسة مناهجهم فى التفسير.

هذه الظاهرة نجدها تتخلف بعض الشيء عند الغزالى، فهو حين توجه إلى تفسير كتاب الله ـ عز وجل ـ وتناوله بالبحث والتأليف، كان المنهج الذى يريد اتباعه واضحا لديه، وربما كان ذلك راجعا إلى تلك المسيرة الطويلة التى مر بها الاتجاه الموضوعى فى التفسير لديه.

لذلك وجدنا جانبى النظرية والتطبيق يكادان يتكاملان فى الاتجاه الموضوعى فى التفسير عند الغزالى ، وإن لم يتم تشكلهما فى قالب أكاديمى واضح .

١ـ تعريف الغزالى للتفسير الموضوعى:

يعرف الغزالى التفسير الموضوعى ، فيقول:

« يطلق التفسير الموضوعى على نوعين جديدين من خدمة الكتاب العزيز:

أولهما : تتبع قضية ما فى القرآن كله ، وشرحها على ضوء الوحى النازل خلال ربع قرن تقريبا .

والآخر : النظر المتغلغل فى السورة الواحدة لمعرفة المحور الذى تدور عليه ، والخيوط الخفية التى تجعل أولها تمهيدا لآخرها ، وآخرها تصديقا لأولها ، أو بتعبير سريع: تكوين صورة عاجلة لملامح السورة كلها » (١) .

فالتفسير الموضوعى ـ على رأى الغزالى ـ منهج فى تفسير كتاب الله ـ عز وجل،

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل ، م . س ، ص: ١٢٨ .

يقوم على التأمل والنظر ومراعاة وحدة الموضوع؛ سواء بتتبع الآيات المتعلقة بعناصر الموضوع الواحد أو القضية الواحدة ، ثم جمعها وتنسيقها بما يظهر الصورة القرآنية العامة للقضية ، أو بالبحث عن المعنى الجامع الذى يمثل المحور الذى تدور عليه جميع آيات كل سورة من سور القرآن على حدة .

٢ـ أهمية التفسير الموضوعى:

ويرى الغزالى«أن التفسير الموضوعى بشقيه ، جدير بعناية الأمة ، فإن المستقبل له، ولعله فى عصرنا أقدر على خدمة الإسلام وإبراز أهدافه» (١) .

وتكمن قدرة هذا المنهج فى التفسير على خدمة الإسلام وإبراز أهدافه؛ فى المرونة التى يتمتع بها المفسر فى إطاره ، فهو يملك أن ينطلق من الواقع الذى يعيش فيه ويعلم معاناته وبعده عن هدايات الله ؛ ليبحث فى القرآن الكريم عن علاج لآلام هذا الواقع ومعاناته؛ سواء بإثارة قضية هامة فى حياة الناس ، وإبراز نظرة القرآن إلى هذه القضية، وإجلاء موقفه منها وهداياته فى شأنها ، أو بالتوجه إلى سورة من السور القرآنية التى يُعتقد ارتباطها بالقضية الواقعة ، والبحث عن المحور الذى تدور عليه السورة ، وإبراز الهدايات القرآنية التى تتكفل بعلاج هذه القضية فى الواقع وتوجيه الناس إلى موضع الحق فيها ، من خلال تلك السورة .

أما فى إطار مناهج التفسير الموضعى،فإن المفسر لا يمتلك هذه المرونة،وإنما هو ملزم بدراسة الآية فى إطار ما يسبقها وما يلحقها من الآيات ، وكذلك يفعل مع السورة ؛ بمعنى أنه لا يمتلك هامشا كبيرا للتحرك وإسقاط الهدايات القرآنية على الواقع ، بعكس حاله مع التفسير الموضوعى .

٣ـ التفسير الموضوعى لا يعنى رفض المناهج الأخرى:

ولكن ، هل يعنى هذا طرح مناهج التفسير الموضعى كلية ، وإحلال منهج التفسير الموضوعى كبديل عنها ؟

إن الغزالى يرفض هذا التصور تماما ، فلا يعنى الاهتمامُ بالتفسير الموضوعى الإعراضَ عن التفسير الموضعى ، بل لابد من اتخاذ التفسير الموضعى قاعدة يُنطلق منها فى التفسير الموضوعى ، يقول مؤكدا ذلك:

« أنبه إلى أن هذا التفسير الموضوعى لا يغنى أبدا عن التفسير الموضعى ، بل هو تكميل له ، وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة . . . » (٢) .

---

(١) م . ن ، ص: ١٢٩ .

(٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ١ ، ص: ٦ .

وذلك لأن « التفسير الموضعى لابد منه قبل الشروع فى التفسير الموضوعى ، فإنه فهم جيد للآية أو لجملة الآيات التى تتناول قضية واحدة . . . ويتعاون التفسير البلاغى والفقهى وغيرهما على توضيح الرؤية وتحديد المعنى » (١) .

فكأن الغزالى يعتبر التفسير الموضعى لآيات معينة تفسيرا موضوعيا للقضية موضوع تلك الآيات ، وذلك بتناول هذه القضية فى إطار تفسير تلك الآيات من جوانبها المختلفة ؛ العقدية والفقهية ، وغيرها . وبإمكان من يتناول القضية بالبحث عن التصور القرآنى لجوانبها المختلفة أن يجمع ما قدمه المفسرون الموضعيون فى تفسير الآيات المتعلقة بهذه القضية ؛ ليصبه فى قالب موضوعى متكامل يربط بين عناصر القضية كلها ويعرض هدايات القرآن فى شأنها كلها.

فمنهجا التفسير ـ إذن ـ متكاملان، ولا يمكن أن يكون أحدهما قسيما للآخر، فضلا عن أن يكون نقيضا له ، أو يُطرح كبديل عنه .

غاية ما هنالك أن المفسر فى إطار المناهج الموضعية إذا تطرق إلى آية من الآيات بالتفسير، ينبغى أن يكون على علم مسبق بما تضمنته الآيات الأخرى التي تقاسمها معالجة الموضوع ذاته، حتى لا يقع فى التناقض بين ما قد يصل إليه من فهم لهذه الآية، وبين ما يُفهم من الآيات الأخرى .

ولعل هذا التكامل الواضح بين منهجى التفسير ، هو الذى دعا الغزالى إلى التمييز بينهما بتعبير يكاد ينطق بأن كلا منهما جزء متمم للآخر ، ولا يفترقان إلا من حيث السبيل التى يسلكها كل منهما منفردا بها عن الآخر ، وذلك حين قال:

« التفسير الموضوعى غير التفسير الموضعى:

الأخير؛ يتناول الآية أو الطائفة من الآيات، فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام .

أما الأول؛ فهو يتناول السورة كلها ، يحاول رسم (صورة شمسية) لها ، تتناول أولها وآخرها ، وتتعرف الروابط الخفية التى تشدها كلها ، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها ، وآخرها تصديقا لأولها »(٢) .

فالمنهجان مترابطان ومتكاملان ، ولا داعى للتفضيل بينهما . . كل ما فى الأمر أن التفسير الموضعى قد أخذ من العناية والاهتمام من علماء التفسير ما يستحق وأكثر، فى حين أن التفسير الموضوعى لم يحظ بكثير اهتمام رغم الحاجة الماسة إليه، وخاصة فى عصرنا هذا الذى يشهد إثارة عديد من القضايا الشاغلة لبال الإنسان المعاصر ، فيحتاج

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل ، ص: ١٢٨ .
(٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن ، ج: ١ ، ص: ٥ .

المسلمون إلى معرفة الحكم العام للشارع فيها ، وهو ما لا يتسنى إلا بالتتبع الشامل للقضية وما يتعلق بها فى طول القرآن الكريم وعرضه .

ولعل ذلك سر اهتمام الغزالى بالتفسير الموضوعى أكثر من اهتمامه بالتفسير الموضعى ؛ حيث قدم مساهمات كثيرة فى إطار الاتجاه الموضوعى فى تفسير القرآن، وهى مساهمات غطت كلا نوعى هذا المنهج فى التفسير .

وما دمنا بصدد دراسة قسمات هذا الاتجاه عند الغزالى ، فإننا نقدم فيما يلى تحليلا لمساهماته وطريقته فى كلا هذين النوعين:

٤ـ التفسير الموضوعى للموضوع القرآنى:

يعتبر التفسير الموضوعى المتعلق بتتبع القضايا ودراستها فى ضوء الهدايات القرآنية ، سابقا ـ عند الغزالى ـ على التفسير الموضوعى للسور القرآنية . وقد قدم فى إطار هذا النوع مساهمات عديدة ،بدأها ـ كما سبق أن رأينا ـ مع أول كتاب أصدره سنة ١٩٤٧م، وهو: « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » ، حيث ضمنه فصلا بعنوان:« القرآن والطبقات المترفة»، مثَّل أولى تطبيقات منهج التفسير الموضوعى لديه ، حيث جمع الآيات التى تحدثت عن المترفين ، ونسق بينها ، ثم فسرها ، واستخلص منها صفات المترفين من خلال القرآن الكريم .

ولقد كانت محاولة الغزالى الأولى تلك فى التفسير الموضوعى ، محاولة موفقة إلى حد بعيد ؛ إذ مثلت لديه انطلاقة كان لها ما بعدها فى حياته الفكرية بعد ذلك ، لمدة تزيد على نصف قرن .

ولسنا هنا بصدد تتبع كيفية تناول الغزالى لهذا النوع من التفسير الموضوعى فى كل المساهمات التى قدمها ، وإنما نحاول فقط رسم صورة كلية للمنهج الذى سار عليه فى هذا النوع .

إننا إذا ذهبنا نستقرئ أهم الموضوعات التى درسها الغزالى من خلال القرآن الكريم، يمكننا أن نقف على العناوين الآتية:

ـ القرآن والطبقات المترفة[١].

ـ من صور القوة فى القرآن [٢].

ـ السنن العامة فى دعوات الرسل والأنبياء [٣].

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، ص: ٤٨ ـ ٥٥ .
(٢) فى موكب الدعوة ، ص : ٣٩ ـ ٤٤ .
(٣) مع الله . . دراسات فى الدعوة والدعاة ، ص : ٨٠ ـ ١٠٢ .

- الإنسان فى القرآن[١] .

- الحياة العامة فى القرآن [٢].

- الثروة فى القرآن[٣].

- الألوهية فى القرآن[٤] .

- النبوات فى القرآن [٥].

- الجزاء فى القرآن [٦].

- فساد الأمم كما يصوره القرآن[٧] .

- القرآن يتحدث عن الهجرة [٨].

- اليهود فى ميزان القرآن [٩].

- أولو الألباب فى كتاب الله [١٠].

- ميراث الأرض لمن ؟ [١١].

- بعض سنن الله الكونية من القرآن[١٢] .

- المحاور الخمسة للقرآن[١٣].

- الإسلام وأهل الكتاب بين آيات الوحى ووقائع التاريخ [١٤].

من خلال النظرة الأولى إلى هذه العناوين ، تتبدى أمامنا صلتها الوثيقة بالقضايا المطروحة على العقل الإنسانى المعاصر عامة،والإسلامى خاصة ، فهى موضوعات تتعلق بميادين الحياة الإنسانية كلها: العقدية،والسلوكية، والثقافية ، والحضارية ، والتاريخية ، عالجها الغزالى ؛ ليبحث - من خلالها فى كتاب الله عز وجل - عن أدوية للعلل التى

---

(١) نظرات فى القرآن ، ص: ٥٨ - ٦٢ ، وفى: علل وأدوية ، ص : ٥ - ٢٣ ، بأسلوب آخر .

(٢) نظرات فى القرآن ، ص: ٦٣ - ٦٧ .

(٣) م . ن ، ص : ٦٨ - ٧٢ .

(٤) م . ن ، ص : ٧٣ - ٨٥ .

(٥) م . ن ، ص : ٨٦ - ٩٠ .

(٦) م . ن ، ص : ٩١ - ١٠٠ .

(٧) م . ن ، ص : ١٠١ - ١٠٩ .

(٨) خطب الشيخ محمد الغزالى فى شؤون الدين والحياة ، ج: ٤ ، ص: ٢٠٨ - ٢١٧ .

(٩) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٢٤٢ - ٢٥٤ .

(١٠) علل وأدوية ، ص : ٣٩ - ٤٧ .

(١١) الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا ، ص : ١٥٣ - ١٦٩ .

(١٢) سر تخلف العرب والمسلمين ، ص : ٣٠ - ٤٠ .

(١٣) للشيخ كتاب كامل بهذا العنوان ، وقد سبق الحديث عنه .

(١٤) نماذج من التفسير الموضوعى للقرآن ، ص : ١٣٣ - ١٥٨ .

نخرت كيان الأمة وحطمته تحطيما شاملا ، حتى لم يعد يقوى معها على أى حراك.

لذلك ، لم يكن غريبا أن نجد الغزالى ـ وهو يعالج هذه الموضوعات ـ ينطلق من تشخيص الواقع ؛ لينتهى إلى البحث عن علاج له فى القرآن . أو ينطلق من القرآن مبرزا هداياته أولا ، ثم يسقط هذه الهدايات بعد ذلك على الواقع ، فيبين مدى بُعْد هذا الواقع أو اقترابه من تلك الهدايات .

* فمن نماذج انطلاقه من الواقع ؛ ما قدمه فى بحث: «الإنسان فى القرآن» ، حيث بدأ أولا بتصوير نظرة الفلسفة المادية المعاصرة إلى الإنسان ، وكيف أنها لم تنظر منه سوى إلى الجانب الحيوانى فيه ، يقول:

« الفلسفة المادية تزحف الآن على قارات الدنيا الخمس .

وهى فلسفة تقصر الوعى فى حياة البشر على بضع عشرات من السنين ، هى متوسط ما يعيشه الفرد على ظهر هذه الأرض . ثم يعود بعدها إلى عماء وظلمة من حيث جاء ، فليس قبل المهد إحساس ، ولا بعد اللحد شعور !!

وهذه الفلسفة المادية ، وإن نشطت فى استغلال قوى الوجود ، إلا أنها تحقر القيمة الذاتية للإنسان . ومن هنا ، فهى بقدر ما تعمر تدمر ، وبقدر ما تعلى البناء تسوق الفناء !

ما الإنسان فى نظر أهل المادة ؟

إن أحد العلماء رد جسم الإنسان إلى العناصر الأساسية فيه ، فخرج بالنتائج الآتية:

إذا جئنا بإنسان زنته مائة وأربعون رطلا ، وغلغلنا النظر فى تكوينه ، وجدنا بدنه يحتوى على المواد الآتية:

ـ قدر من الدهن يكفى لصنع سبع قطع من الصابون .

ـ قدر من الكربون يكفى لصنع سبعة أقلام رصاص .

ـ قدر من الفوسفور يكفى لصنع رؤوس ١٢٠ عود ثقاب .

ـ قدر من ملح المغنسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات .

ـ قدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه .

ـ قدر من الجير يكفى فى تبييض بيت الدجاج .

ـ قدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره .

ـ قدر من الماء يملأ برميلا سعته عشر جالونات .

وهذه المواد تُشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوى خمسين أو ستين قرشا مصريا . وتلك هى قيمة الإنسان المادية . صحيح أن فى الإنسان عقلا يمتاز به . ولكن: ما العقل عند الماديين ؟ إن الكبد كما تفرز الصفراء ، يفرز المخ التفكير ، لا روح هناك ولا نفحة من السماء يختص بها هذا الكائن الفذ . . !!» [1] .

ويرجع الغزالى نجاح الماديين فى فرض هذه النظرة الضيقة إلى الإنسان، إلى ما وصلوا إليه من تفوق فى مجالات كثيرة من ميادين الحياة ، وهو تفوق لم يصنعوه بقدراتهم الذاتية، وإنما صنعه لهم عجز المتدينين وتكاسلهم، نتيجة نظرتهم السيئة لحقيقة الإنسان .

فإن«فساد الحكم على القيمة الحقيقية للإنسان وعلى الوظيفة الطبيعية له فى الحياة، كان أهم سبب لتأخر المتدينين على ظهر هذه الأرض .

ففى الوقت الذى بذل الملحدون فيه جهودهم لعبادة الوجود والإفادة من فرصة حياتهم فيه ، واستثارة قواهم الظاهرة والباطنة لمصلحتهم ، كان المتدينون يقيمون فى كهوف سحيقة ، وكأنما ابتلعوا جرعا ثقيلة من الأفيون ، فهم يتثاءبون فى كسل، ويفكرون فى ذهول وغفلة .

كانت فى أوربا جماهير متدينة تبغض الغسل ، وتتعبد ببقاء الأوساخ على الجسم ، وكانت هنا وهناك أمم تحسب الجوع والعرى والغربة فى هذا الكون الكبير بعض أسباب القربى إلى الله » [2] .

وبعد هذا التصوير لنظرة الفلسفة المادية إلى الإنسان ، وسبب سيادة هذه النظرة ، يمضى الشيخ إلى الإبانة عن النظرة الصحيحة التى ينبغى أن يُنظر بها إلى الإنسان . . . إنها نظرة القرآن الكريم ، كلام الله العليم الحكيم الخبير ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد:

« التأمل اليسير فى القرآن الكريم يميط اللثام عن وجه الحق فى قيمة الإنسان ووظيفته ، ومنزلته ورسالته .

فالإنسان فى القرآن الكريم خليفة الله فى أرضه ،وقد تكررت قصة خلافته فى كثير من السور ، متضمنة: أن الله جعله سيدا يُطاع ويُكرم ، ومتضمنة أن من يتجرأ على إهانته ، ويتمرد على مكانته ليس بأهل لرحمة الله وبره .

ومن هنا حكم على إبليس بالطرد والهوان ، وما نزلت هذه العقوبة إلا بسبب

---

(١) نظرات فى القرآن ، ص: ٥٩ .
(٢) م . ن ، ص: ٦٠ .

مخاصمته لآدم وذريته» (١).

ولا يكتفى الغزالى بالإبانة عن النظرة الصحيحة إلى الإنسان كما يجدها فى القرآن، بل يمضى إلى الإبانة عن الأثر الذى تتركه هذه النظرة فى حياة الإنسان المتدين، من حيث ينبغى عليه أن يسلك سبل الخير التى تقوده إلى رضا ربه والانتفاع بالسعادة فى حياته:

« شرح القرآن الكريم طريق الخير لابن آدم ، فجعل أساسه أن يحافظوا على فطرتهم ، وأن يغسلوا عنها النكت والأقذار التى تعلو وجهها ، حتى تبقى سليمة كما ذرأها الله ، مثلما تغسل زجاجة المصباح إذا غشيتها الشوائب والأكدار ، فيرتد إليها صفاؤها وينبت إشراقها نقيا وضاء .

التدين ليس استجلاب عناصر جديدة تزكو بها النفس ، وإنما هو إقامة حصانات وضوابط لبقاء النفس على طبيعتها النقية وفطرتها الأصلية .

وكل تدين فسدت فيه الفطرة فهو جملة تزويرات وأكاذيب !!

ذلك ، وقد ربط القرآن الإيمان بحسن النظر فى الكون وطول التأمل فى ملكوت الله . وهناك عشرات السور مفعمة بهذه المعانى ، توثق صلات المؤمنين بهذا العالم العظيم ، وتحض على استجلاء غوامضه ، والغوص فى أسراره . ومن ثم فلا دين بلا عقل: ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٢] .

والفكر المحترم ، ليس ذلك الفكر الشارد فى أوهام الفلسفة النظرية ، كلا، بل هو الذى يستمد الحق من معالم الكون ، ويتبع فى سيره منطق الإحصاء والاستقراء والملاحظة والتجربة .

ولذلك نستطيع الجزم بأن جميع البحوث المتصلة بما وراء المادة ، والتى خاضها الإسلاميون تقليدا لغيرهم ، لا قيمة لها ولا جدوى منها » (٢) .

وهكذا ، وفى بحث موجز ، استطاع الغزالى أن يكشف سوءات واقع ، ويُسفر عن أسبابها ، ثم يصف الدواء والعلاج الشافى لما يعانيه هذا الواقع من أسقام ، وهذا العلاج الذى يراه الغزالى هو :

« إصلاح العمل حتى يبلغ به درجة الإتقان ، شارة الإيمان الحق ، وسور القرآن وآياته ، ووعده ووعيده ، وإنذاره وتبشيره ، تتزاحم كلها على الإنسان لتدفع به فى طريق الإحسان ، ولتجنبه طريق الزلل » (٣) .

---

(١) م . ن ، ص: ٦١ .
(٢) م . ن ، ص: ٦٠ ، ٦١ .
(٣) م.ن ، ص : ٦٢ .

* نتتهى من هذا النموذج ، لنبدأ مع نموذج آخر من نماذج التفسير الموضوعى عند الغزالى ، ولكنه نموذج لا يحذو فيه حذوه فى النموذج الأول . . . إنه هنا يتخذ مسلكا معاكسا ، وإن كانت الغاية المتوخاة من المسلكين واحدة . . . إنه هنا ينطلق ، لا من الواقع ، وإنما من القرآن أولا ، يرسم هداياته فى قضية من القضايا ، ثم يسقط هذه الهدايات على الواقع؛ ليرى مدى حضورها أو عدم حضورها فى واقع المسلمين المعاصرين .

إنه مسلك أشبه ما يكون بأسلوب المحاكمة ، فهو يحاكم الواقع بالقرآن ، ويبين فساده من خلال عرض هدايات هذا الكتاب الكريم .

ففى بحث بعنوان: «ميراث الأرض لمن ؟ »[1]، يعالج الغزالى قضية حضارية بالغة الأهمية ، وهى تلك المتعلقة بالبحث عمن له الحق فى أن يسود هذه الأرض ويقود أهلها ، وما هى الشروط التى ينبغى أن تتوفر فيه حتى يكون أهلا لهذه المكانة ؟

يجيب الغزالى منذ البداية ، بنقل موقف القرآن من المسألة كلها ، قائلا:

« جاء فى القرآن الكريم هذا الحكم الحاسم: ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦] ، ما معنى وراثة الأرض ؟ ومن هم العباد الصالحون ؟

من تتبع الآيات المتشابهة فى القرآن الكريم ، نجد أن هناك معنيين لوراثة الأرض:

الأول : وهو الشائع بين العابدين ، يتصل بالدار الآخرة ، أى أن العراك الرهيب فى هذه الدنيا ، والميدان الملىء بالانتصارات والانكسارات ، والصاعدين والهابطين ، والظالمين والمظلومين ، والمكثرين والمقلين ، سينتهى حتما لمصلحة الأخيار من الناس ، فهم الذين يضعون أيديهم على مصيرها ، وتقر أعينهم بما أسلفوا فيها . وفى هذا يقول الله تبارك اسمه ، واصفا ما يدور على ألسنة المؤمنين بعد هذه النهاية : ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾

[الزمر: ٧٤]

وهناك معنى آخر لوراثة الأرض ، نريد أن نتريث عنده طويلا ، نجده فى قوله سبحانه عن بنى إسرائيل فى صراعهم مع الفراعنة ، وبعد محنتهم باستئصال الذكور واستبقاء النساء : ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا**

---

(١) ضمن كتاب : الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا ، ص: ١٥٥ ـ ١٦٩.

﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ [الأعراف: ١٣٦] .

وظاهر أن الصراع بين الحق والباطل طال أمده، لقد بقى عشرات السنين التى لاقى المستضعفون خلالها عنتا هائلا، وتحملوا تضحيات ثقيلة، ولكنهم صبروا، وكأن الصبر كان على النار التى اشتعلت فى كيانهم لينضجوا ويصلحوا لميراث الأرض»(١).

ولأن المعنى الأول واضح وصريح ويتعلق بالحياة الآخرة ، ولأن الغزالى مهموم بما عرا واقع المسلمين من أسقام وبالبحث له عن علاج شاف منها، فإنه اهتم فى هذا البحث بالمعنى الثانى لوراثة الأرض غاية الاهتمام؛ إذ فى هذا المعنى يكمن صلاح المسلمين ، وبقصورهم وعجزهم عن تمثُّله تكمن أسباب ضياعهم وتسلط غيرهم عليهم. لذلك وجدنا الغزالى يمضى فى استقراء ما يتعلق بهذا المعنى الثانى من آيات القرآن؛ ليستخلص منها كل ما يتعلق به من شروط وقسمات .

فيعرض هذا المعنى الثانى لميراث الأرض ، والمتعلق بالسيادة فى هذه الحياة الدنيا ، باعتباره ـ أولا ـ سنة إلهية لا تتبدل ولا تتغير ، يقول:

« مع أن عقيدة التوحيد أجدر بالنصر أول يوم عندما تشتبك بالاستبداد الفردى وادعاء بشر للألوهية ، إلا أن حملة العقيدة لا يُكتب لهم الفوز حتى يبلغوا مستوى معينا من الكمال الشخصى والرقى الاجتماعى والقدرة على إسداء الخير العام .

قد تسأل: من أين أتت هذه الشروط التى ذكرتها ؟

والجواب: من وصف الله للحق وأهله ،والباطل وأهله فى آيات أخرى تفسر المجمل هنا ،والقرآن يفسر بعضه بعضا .

إن القرآن الكريم يجعل الخاصة الأولى للحق؛ أنه ينفع الناس،ماديا وأدبيا، وتسعد به الجماهير فى عاجل أمرها وآجله. وقد يعلو الباطل،ولا قيمة لعلوه ، فالغثاء الرخيص قد يكسو سطح الماء ، والجيف الميتة قد تطفو فوق التيار ، ولا قيمة لهذا ولا لذاك . تدبر قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد : ١٧] .

والأنفع للناس هو العدل، سياسيا كان أو اجتماعيا، والشورى ولو بين أفراد الأسرة

---

(١) م . ن ، ص: ١٥٥ ، ١٥٦ بتصرف .

الواحدة ، والنظام الشامل لا الفوضى السائدة، والحرية التى تكتمل فى جوها العقول ، وتنضج الملكات، وتمحص الآراء ، والتعارف لا التناكر ، والتعاون على البر والتقوى لا الإثم والعدوان، وإتاحة الفرص للفطر السليمة والمواهب الرفيعة أن تتفتح وتبدع» (1).

فسيادة الصالحين على الأرض وميراثهم لها، لا يتسنى كل ذلك لمجرد كونهم صالحين، وإنما لكونهم صالحين ينهجون فى حياتهم منهج الصلاح ، أما أن يحملوا اسم الصلاح ولا يصلحون ، فهؤلاء لا يستحقون ميراث الأرض أبدا ، ولن يُتاح لهم ولو كانوا أكثر تعبدا لله من دون سائر الناس :

« إن حملة العقائد الجديرين بالنصر ليسوا قُطَّاع طريق ورجال عصابات ، إنهم طلائع المعرفة وأشعة اليقين وأصحاب الأخلاق الزكية والأنفاس الطاهرة . . . إنهم - بإيجاز - صانعو النهضات الحقيقية ، وأخلاف النبيين التقاة ، وقادة الفكر الواعى والسلوك المجدى .

هؤلاء هم الصالحون الجديرون بالسيادة فى الدنيا .

إن الله لم ينصر العرب قديما ؛ لأنه حابى جنسا على جنس ، ولكن لأن عدل عمر أنفع للإنسانية من جبروت كسرى ، وضوابط الوحى عند الصحابة الأولين أفضل للناس من تحريف أهل الكتاب . . .

إن انتصار العرب على الفرس والرومان، يعنى انتصار حضارة متفوقة على حضارات تعفنت ووجب دفنها. لا محاباة هنالك، وإنما هو اطراد السنن الكونية التى وضعها الله للمجتمع البشرى قديما وحديثا . . وطبقت بصرامة فى الأنبياء والصديقين ، كما طبقت على العتاة والمفسدين: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ، ١٣٨] » (2) .

الصلاح مطلوب - إذن - فى من يرث الأرض. ولكن ما هو الصلاح المطلوب؟: هل هو مجرد الإيمان السلبى المنغلق على الذات ، المستقيل عن العالم الخارجى ، الذى لا يسعى معه صاحبه لنفع نفسه ، فضلا عن أن يسعى لنفع الآخرين ؟

لا ، فما هذا بالصلاح المطلوب . . . إن الصلاح المطلوب هو الذى يقترن فيه الإيمان بالله عز وجل بالضمير الحى اليقظ ، بالعقل المتوثب ، بالنفس الزاكية ، باليد العاملة المنتجة ؛ إذ إن « عناصر الصلاح تجمع اكتمالا نفسيا وصناعيا وسياسيا، أى

(1) م . ن ، ص: ١٥٧ .

(2) م . ن ، ص: ١٥٨ .

عناصر حضارة مؤمنة لا يجوز أن تنساها الأمم» (١).

وينعى الغزالى على المسلمين جهلهم بهذه الحقيقة، وإمعانهم فى تجاهلها، ويقول:

«هناك ناس مرضوا كما تمرض النباتات والحيوانات ، ونسوا كلا أو جزءا مما ذكرنا ؛ وليتهم ـ لما مرضوا ـ نشدوا العافية كى يحيوا أصحاء،لقد حسبوا أمراضهم هى الأصل، أو هى طبائع الأشياء ، وأرادوا فرض ذلك على الدين والدنيا .

الأرض ذلول للإنسان منذ نشأته الأولى ، فإذا البعض يعجز عن امتطاء هذه الوسيلة الذلول؛ لأنه كسيح معلول ، فإذا هو يريد جعل كساحه الفكرى فلسفة تُعتنق أو دينا يُتبع ؛ وإذا هو يستحلى الجهل بالدنيا وتجهيل غيره فيها ، ومن ثَمَّ أمست الفرية على المادة وقوانينها وأسرارها شريعة الأمم المتخلفة ، والظاهرة المنتشرة فيما يُسمى اليوم: العالم الثالث .

من قال: إن هذا الجهل صلاح ؟ وإنه طبيعة الدين ؟ أى دين ؟ الدين الذى يقول لأتباعه: ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ** ﴾ [الأعراف:٩] ؟ الدين الذى يقول لأتباعه: ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ [الحديد: ٢٥]؟ . إن أولئك المتخلفين عقليا وحضاريا فقدوا أهم معالم الصلاح، وهم أعجز من أن يقيموا مجتمعا تقيا،أو يقاوموا مجتمعا كفورا .

والمتخلفون عقليا وحضاريا يستحيل أن يصنعوا صحوة إسلامية ؛ لأن الصلاح فى الإسلام ليس خيمة من الغيبيات يهرع إليها العجزة . إنه اقتدار فى عالم الشهادة يتمكن المرء به أن يحمى إيمانه المعقول بكل الوسائل الممكنة فى الأرض والسماء»(٢).

ويعجب الغزالى:كيف يستريح المسلمون إلى واقعهم غارقين فى الكسل والخمول ، عاجزين حتى عن حماية أنفسهم أمام أدنى أذى يوجه إليهم!!

«كلمة الصلاح تعنى الصحة النفسية والفكرية والاجتماعية ، وأبعد الناس عنها هم المعلولون فى تلك النواحى جميعا.وإنى أعجب من عجز إنسان عن حماية المسجد، وهو يعلم أن هناك خصوما يتربصون به ، ويريدون تخريبه ، مصداق قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا** ﴾ [البقرة: ١١٤] .

ما سر عجزه ؟ إنه لا يستطيع صنع الأسلحة التى يدفع بها عنه . . .

---

(١) م. ن ، ص: ١٥٩ ، ١٦٠ .   (٢) م . ن ، ص: ١٦١ ، ١٦٢ .

هل التخلف الكيمياوى والهندسى والفيزيائى من معالم التقوى ؟» (١) .

إن الصلاح - فى رأى الغزالى - معنى جامع شامل ، لا يمكن أن يتحقق فى الفرد أو الجماعة إلا إذا استجمع كل منهما خصال الصلاح كلها:

« إذا نبه الله عباده إلى أن الأرض يرثها عباده الصالحون ، فمعنى ذلك أن الصلاح أوسع من ركعات تُؤدَّى أو أيام تُصام ، إنه علم رحب الآفاق بكل شىء فى مقدور البشر ، وعدل ممدود الرواق لا يشقى معه ضعيف ، ولا يزيد فيه نصيب مؤيد على نصيب معارض ، وتنظيم لنظافة الوجوه والثياب والبيوت والشوارع والقرى والمدن ، وأمان ضد الجوع والقلق وطوارق اليوم والغد، وكفالة لحرية العقل والضمير، تنمو فيها المواهب، وتنضج الملكات، وتكتمل الشخصية، وتُصان المرافق العامة والخاصة» (٢) .

ويؤكد الغزالى أن خفوت هذا المعنى فى نفوس المسلمين ، كان السبب وراء الهزائم الساحقة التى لحقت بهم خلال تاريخهم الطويل:

« لقد انهزم المسلمون فى أحد ؛ لأنهم لم يستجمعوا المقدمات التى تنتج النصر، ولم يكن المشركون أولى بالله منهم ؛ إن الله وضع للنصر أسبابا كثيرة وأوجب على عباده كلهم رعايتها ، فمن أبى فلا يلومن إلا نفسه .

وهل تلاشى الوجود الإسلامى فى الأندلس ، وفى غيره ، إلا لهذا الغرور الذى زين للمسلمين الاسترخاء الفكرى والكسل العقلى ، وأطمعهم - مع ذلك - فى النصر ؟ كيف وهم يقرؤون فى كتابهم: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [يونس : ٨١ ، ٨٢] » (٣).

وهكذا يوظف الغزالى آيات الكتاب الكريم فى الإبانة عن الحقائق ونقد الأوضاع ، ومحاولة إصلاح حال المسلمين ، ورفعهم من دركات التخلف والضياع إلى درجات التقدم والازدهار .

والواقع أن النماذج من أعمال الغزالى فى هذا المجال كثيرة ، ولا بد للقارئ الذى يطلب الاستزادة أن يرجع إلى مؤلفاته ؛ ليقف على تلك النماذج بنفسه ، ويتملى منها ما شاء الله له أن يتملى.

أما نحن فنكتفى بما قدمنا؛ لنمضى إلى النوع الثانى من التفسير الموضوعى عند الغزالى؛

---

(١) م . ن ، ص: ١٦٣ ، ١٦٤ . (٢) م . ن ، ص: ١٦٤ .
(٣) م . ن ، ص: ١٦٥ ، ١٦٦ .

لنستجلى جوانبه هو الآخر ،ونعرف ما قدمه الغزالى من تجديد وإبداع فى هذا الإطار .

٥ـ التفسير الموضوعى للسور القرآنية :

إذا كان اهتمام الغزالى بتتبع القضايا الموضوعية فى إطار القرآن وعرضها من خلال هداياته ، قد بدأ مع بواكير آثار الغزالى الفكرية ، فإن اهتمامه بالتفسير الموضوعى للسور القرآنية لم يظهر إلا مع بداية السبعينيات ، كما سبق أن ذكرنا ، وذلك حين بدأ ممارسة هذا النوع من التفسير فى خطب الجمعة التى كان يلقيها على المصلين .

منذ ذلك الحين ، والشيخ يتفاعل مع هذا الضرب من التفسير الموضوعى ، حيث تناوله خطابة ، وتدريسا ، ومحاضرة ، وفى آخر المطاف كتابة ، حين قدم تفسيرا موضوعيا لكل السور القرآنية فى آخر ما صدر له من مؤلفات : «نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم » .

إن استقراء ما قدمه الغزالى فى هذا المجال ، عبر أزيد من ربع قرن ، يفضى إلى الكشف عن معالم منهج التفسير الموضوعى للسور القرآنية لديه ، وهو منهج يمكن أن نعرض قسماته فى النقاط الآتية:

١ـ أول ما يحرص عليه الغزالى ، وهو يفسر السور القرآنية ، هو التأكيد على أن للسورة محورا عاما وموضوعا كليا تدور عليه ؛ إذ كثيرا ما كان يبدأ تفسيره للسورة بالعرض الإجمالى لمحورها الرئيس أو موضوعاتها الأساسية .

من ذلك قوله فى أول تفسيره لسورة آل عمران :

« يستطيع قارئ سورة آل عمران ، أن يستبين ـ على عجل ـ موضوع السورة الكريمة، فهى تدور على قضيتين كبيرتين:

الأولى : حوار مع أهل الكتاب الذين يخاصمون الإسلام داخل المدينة .

والأخرى : تعليق على هزيمة أحد التى أصابت المسلمين بجرح غائر ، وأدخلت الأحزان إلى عشرات البيوت .

والحديث فى كلتا القضيتين يأخذ بدايته منفردا فى أول السورة ووسطها،ثم يختلط الحوار والتعليق أواخر السورة،كأن جهاد الدعوة يقضى بالثبات فى الموقفين،ويوجب على المسلمين مواجهة مشتركة لكيد اليهود داخل المدينة وهجوم الوثنيين عليها تمشيا مع عدوانهم السابق » (١).

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ١ ، ص: ٢٧ .

وفى أول حديثه عن سورة النساء قرر أن:

« الثلث الأول من سورة النساء حديث عن الأسرة وقضاياها ، والأسرة هى المجتمع الصغير . والثلثان الباقيان حديث عن الأمة وشؤونها ، والأمة هى المجتمع الكبير، فمحور السورة كلها العلاقات الاجتماعية وضرورة إحكامها وتسديدها» (١).

وفى تفسيره لسورة النور ، علق على موضوعها بقوله:

« وسورة النور تتحدث عن احترام الغريزة وضبطها حتى لا تنحرف يمنة أو يسرة، ثم التخويف لمن يدع حدود الله أو يترك العقوبات التى قررت تقريرا حاسما فى هذه السورة المباركة » (٢).

فى أحيان أخرى ، لا يعمد الغزالى إلى تصوير موضوع السورة بشكل مباشر ، وإنما ينطلق على سجيته فى الحديث عن قضية من القضايا ، حتى إذا أحاط بتلك القضية، أشار بعد ذلك إلى أن السورة محل التفسير ، قد تناولت موضوع هذه القضية، فيكون ذلك مدخلا له لدراسة الموضوع فى إطار ما ترسمه السورة .

من ذلك ما عرض له فى بداية تفسيره لسورة الفرقان ، حيث قال:

«من حق الله أن نعرفه ولو لم يبعث لنا رسلا؛ فآثاره تدل عليه، وفطرتنا تتجه إليه، ومع ذلك فقد شاء ـ رحمة منه وفضلا ـ أن يبعث إلينا من أنفسنا من نأنس بهم ونتعلم منهم.

ونحن لا نعرف أعداد المرسلين الذين جاؤونا ولا أسماءهم ، ولكننا نعلم أن جماعتهم خُتمت برسول جمع كتابُه زبدة تعاليمهم ، وقدر الله له أن يصحب الحياة فى مسيرتها الباقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ذلكم هو محمد بن عبد الله: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾ [الفرقان: ١] .

إن محمدا إنسان مثلنا، ولكن أمجاد البشرية التقت فى كيانه، ولواء الإمامة العامة انعقد له وحده ؛ ورُشد العالم كله ارتبط برسالته الخالدة ، فما يصد عنها إلا محروم.

وحين أرسله الله سبحانه، وصف نفسه بما هو أهل له: ﴿ **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾ [الفرقان: ٢] . وهى صفات مارى فيها الجاهلون بالله والجاحدون له، ولكن صاحب الرسالة الخاتمة صنع أمة تؤمن بها وتقاتل دونها . . . وفى سورة الفرقان التى نزلت عليه، إحصاء لشبهات وأقوال أعدائه» (٣).

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٤٧ .

(٢) خطب الشيخ محمد الغزالى فى شؤون الدين والحياة ، ج:٢ ، ص: ٩٥ .

(٣) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ٢ ، ص: ١٢٩ .

٢ـ وتتميما للتأكيد على موضوع السورة ومحورها العام ، يكشف الغزالى عن الوحدة الموضوعية بين آيات السورة كلها ، فرغم أن القضايا التى تعالجها السورة قد تكثر وتستفيض ، إلا أن الرجل يجتهد فى جمع هذه القضايا تحت محور واحد جامع تشترك فيه هذه القضايا كلها .

ويذكر الغزالى : أنه فى هذا السلوك إنما يتأسى بما سبقه إليه الأستاذ الجليل الدكتور محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ يقول:

« لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع فى السورة ، وإن كثرت قضاياها ، وتأسيت فى ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة ، وهى أطول سورة فى القرآن الكريم ، فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة ، يعرف ذلك من قرأ كتابه: « النبأ العظيم » وهو أول تفسير موضوعى لسورة كاملة، فيما أعتقد . . . » (١).

وقد ظهر هذا الاهتمام بالوحدة الموضوعية للسورة عند الغزالى ، منذ أول توجه له إلى هذا اللون من التفسير ، ففى أول تناول له للتفسير الموضوعى لسورة البقرة فى أوائل السبعينيات ، حرص على التأكيد على وحدتها الموضوعية :

« أحب أن أوجه النظر إلى خطأ شائع بين المسلمين ، إنهم يظنون أن الآيات تُجمع فى السورة من السور ويُركم بعضها فوق البعض الآخر دون ترتيب أو ضبط أو تنسيق . بعض الناس يظن سور القرآن تجمعت الآيات فيها على هذا النحو: ركام من الأحكام ، ليس هناك ضابط ولا رابط فى حشده وسوْقه ، وهذا خطأ كبير .

وتفسير سورة البقرة، سنأخذ فيه هذا المنهج؛ أن السورة كلها وحدة مرتبطة متناسقة، لها محور تدور عليه ، ولها أول يمهد للآخر ، وآخِر يصدق الأول ، ومهما طالت السورة فإن المعنى الذى نقرؤه الآن يطرد فى سور القرآن ، ومن أول هذه السور سورة البقرة » (٢).

ولم يحد الغزالى عن هذا المنهج فى تناول السور القرآنية بالتفسير، طيلة اشتغاله به، حيث نقف عليه فى آخر ما كتب فى هذا الاتجاه، فيقول مثلا فى ختام تفسيره لسورة النساء:

«وقد رأيت أن موضوع السورة عام يتناول المجتمع كله ، وأحوال الطوائف العديدة التى يتكون منها ، فحديث النساء جزء من كل، أو كما عبرنا: الأسرة مجتمع صغير ،

(١) م. ن ، ج: ١ ، ص: ٥ .

(٢) خطب الشيخ محمد الغزالى فى شؤون الدين والحياة ، ج: ٤ ، ص: ٨٠ .

والمجتمع أسرة كبيرة ، وهداية الله تشمل الجميع لأنه بكل شىء عليم .

وقُصَّار النظر يحسبون السورة أجزاء مفككة ، وهذا خطأ يحمى الله منه أهل التدبر والاعتبار . . . » [1] .

ويرى الغزالى ـ فى هذا الإطار ـ أن موضوعات السور القرآنية لا ينبغى أخذها من عناوينها أو أسمائها ، فإن العنوان قد ينصرف إلى مسألة جزئية مما عالجته السورة، فلا يكون جامعا لما تنطوى عليه من معان شتى ينتظمها محور جامع:

« أرفض خداع العناوين . إن أسماء السور القرآنية شىء غير موضوعاتها ، الموضوعات غالبا متشعبة مستفيضة ، أما الأسماء فذات دلالات جزئية . خذ مثلا سورة البقرة ، إن قصة بنى إسرائيل مع البقرة التى أمروا بذبحها لا تستغرق نصف صفحة من صفحات السورة التى تزيد على الأربعين . . . والسورة بعدئذ بحر متلاطم من التاريخ والتشريع والحكمة والأدب» [2] .

فالسورة لها محور موضوعى جامع ، يشمل هذه المعانى ، مما لا يدل عليه اسم السورة منفردا ؛ ولذلك يقول الشيخ:

« بينى وبين نفسى ـ وأنا أشرح القرآن الكريم وأفسره ـ سميتها ـ أى سورة البقرة ـ سورة « الأتقياء » .

وقد تسأل: لِمَ سميت هذه السورة ـ بينك وبين نفسك ـ بهذه التسمية ؟

والجواب: لأنى لاحظت ـ فعلا .. أن السورة كلها تدور حول حقيقة التقوى ومعالمها وما يوصل إليها، وأقسام الناس منها، ومواقف الأولين والآخرين من حقيقة التقوى» [3] .

فالغزالى ـ إذن ـ حريص على التأكيد على الوحدة الموضوعية للسورة ، حتى وإن لم يدل العنوان على ذلك . وهو تأكيد نجده مثلا فى أول تفسيره لسورة المائدة:

« سورة المائدة ، وتسمى كذلك سورة العقود ، والتسمية الأخيرة أدل على موضوع السورة الواسع .

أما الأولى ، فهى تشير إلى اقتراح الحواريين على عيسى أن ينزل عليهم مائدة من السماء يأكلون منها ويستبشرون بها .

وقصة المائدة لا تستغرق من السورة سوى أربع آيات . أما قضايا العقود فتشمل

(١، ٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ١ ، ص: ٧٠ .

(٣) خطب الشيخ محمد الغزالى فى شؤون الدين والحياة ، ج: ٤ ، ص: ٨٠ ، ٨١ .

أغلب السورة . . . » [1] .

ثم إن حرص الغزالى على إبراز الوحدة الموضوعية للسورة ، لا يتوقف عند حد الإبانة عن المحور الذى يجمعها فحسب ، بل نجده يجتهد فى إبراز الروابط الوثيقة التى تجمع أول السورة بآخرها ، وتجعل آخرها تصديقا لأولها .

ففى تفسيره لسورة الحجر مثلا يقول:

« وقد لاحظنا أن آخر هذه السورة يؤكد أولها ويتجاوب معه ، فعندما يتحدى عبيد الحياة أنبياءهم ، ويعترضون طريقهم ، ويظنون الدولة خالدة لهم ،يجىء فى أول السورة قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ . مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** ﴾ [الحجر: ٤ ، ٥] وهذا قول موجز تفسره أواخر السورة عندما تقص كيف هلك قوم لوط ، وقوم شعيب ، وقوم صالح !!» [2] .

وفى آخر تفسيره لسورة الكهف ، يقرر:

« وتختم سورة الكهف بالمعانى التى ذكرت أولها ، فالسورة ـ كما أوضحنا ـ لتقرير عقيدة التوحيد ونفى أن يكون لله أولاد أو أنداد: ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾ [الكهف: ٥] ،وهنا يقول: ﴿ **أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً** ﴾ [الكهف: ١٠٢] .

وفى أول السورة يبين المولى سبحانه أن الناس خلقوا لإحسان العمل،وتلك وظائفهم فى الحياة :﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الكهف:٧] . وهنا يقول : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ** ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥] » [3].

وفى آخر تفسيره لسورة الأنبياء يؤكد أنه « كما بدأت السورة بالدعوة إلى التوحيد والاستعداد للآخرة والانتفاع بالوحى ، ختمت بالمعانى نفسها: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٨] » [4].

٣ ـ ودائما فى إطار التأكيد على الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية ، يجتهد الغزالى فى الكشف عما تمتاز به كل سورة من خصائص تميزها عن غيرها من السور، سواء من حيث موضوعها ، أو من حيث الأسلوب الذى تفردت به .

---

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ١ ، ص: ٧١ .

(٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٤٩ .

(٣) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٨٨ ، ٨٩ .

(٤) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٠٨ .

من ذلك ما أورده فى تفسير سورة الفاتحة ، وهى أم القرآن وأول سوره ترتيبا:

«سورة الحمد من قصار السور ، ولكنها أم الكتاب وأعظم سوره ، تضمنت خلاصة وجيزة لعقائد الإسلام ، وعهدا وثيقا بين الناس وربهم يحقق رسالتهم فى الوجود، ورجاء فى الله أن يهدى الطريق،ويمنح التوفيق، وينعم بالرضا. . .»(١) .

وأكثر من هذا صراحة ، قوله فى الإبانة عن خصائص سورة البقرة:

«خلال المتقين التى أحصتها سورة البقرة كثيرة ، فقد تكررت مادة التقوى خلال السورة بضعا وثلاثين مرة ، لا تشبهها فى ذلك سورة أخرى » (٢).

وكذلك قوله فى سورة الأنعام:

«تمتاز سورة الأنعام بخاصتين شاعتا فيها ، هما:كثرة التقريرات والتلقينات ، لاستنقاذ العقل العربى مما تردى فيه» (٣) .

وفى تفسير سورة هود ، وبعد أن أورد الغزالى ما جاء فى السنة:قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ: ما شيبك؟ قال: «شيبتنى هود وأخواتها . .»(٤).

قال مستفسرا ومعلقا:

« تُرى ماذا فى هذه السورة ينبت الشيب ؟ لقد شرعت أبحث عن السبب ؛ فقلت: لعله مصارع الأمم التى ضلت فحاق بها الهلاك ؟ إن هذه المصارع قصها الله على نبيه فى سور أخرى ، فلم تحدث هذا الأثر .

هل تنكر الناس للرسول وإشاحتهم عنه معرضين هو الذى شيَّبه ؟ فقد جاء فى هذه السورة: ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ [هود: ٥] .

وقد استبعدت هذا السبب ، فإن الرسول أكبر من أن يهتز لصدود الجهلة ! . . إذن ما السبب ؟

إن هناك شيئا لاحظته فى هذه السورة لم ألحظه فى غيرها :

كثرة التوجيهات التى تمس شخص الرسول وتتناوله بضمير الخطاب المفرد بين الفينة والفينة ، كأنما تشعره بما هو مكلف به من بلاغ » (٥).

وفى التعليق على سورة النحل ، يقول:

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٧ . (٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ١١ .

(٣) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٩١ .

(٤) الطبرانى فى الكبير ١٧/ ٢٨٦ ، ٢٨٧ (٧٩٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٠:«رجاله رجال الصحيح».

(٥) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج:٢ ، ص: ١٧ .

« وسورة النحل تسمى سورة النعم ؛ لكثرة ما وصف الله فيها أنعمه على عباده، طالبا منهم أن يذكروه ويشكروه» (١) .

وأكثر من هذا وضوحا فى الاهتمام بمزايا السورة وخصائصها ما أورده عند تفسيره لسورة التوبة ، فهو يتحدث عن تميزها بانتزاع البسملة من أولها ، ويذهب بعد ذلك مجتهدا فى البحث عن سبب تميز هذه السورة بهذه الميزة ، دون غيرها من السور:

« هذه السورة ـ أى براءة ـ تميزت بخاصة لم تُرَ فى السور الأخرى . . إن البسملة انتُزعت من صدرها ، نزلت هكذا: ﴿ **بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [التوبة : ١] . والسِّر فى ذلك : أن السورة المباركة أنهت وضعا معلقا بين المسلمين وخصومهم. . . فإن الإسلام منح الناظرين فيه والمستمعين إليه حرية واسعة فى أن يؤمنوا به إذا شاؤوا،وأن يكفروا به إذا شاؤوا ، لا إكراه ولا ضغط، هو دين يعتمد على صلاحيته الذاتية،وعلى حقائقه التى تتجاوب مع منطق الفطرة والعقل؛ولذلك فإنه ما يفكر فى القوة يرغم بها الآخرين،إنه يعتمد على بيئة حرة يستمع الناس فيها ويشعرون بمسؤوليتهم الأدبية بإزاء ما يُلقى عليهم وما يستمعون إليه ببصائرهم وأفكارهم.

لكن هذه الحرية الواسعة فهمها أعداء الإسلام غلطا ، فهموها خطأ ، ظنوا الحرية ضعفا ، ظنوا المرونة ميوعة ، ظنوا أن الإسلام إذْ يعرض نفسه بهذه الأدلة وحدها ، ويدفع عن نفسه هجوم المعوِّقين فقط،ظنوا ذلك دليل ضعف ؛ ولهذا حاولوا النيل منه، وفكروا فى أن يتلاعبوا به ، وأن يتخذوا طريقا مغشوشا ، يستغلون الهدنة التى تُفرض أو المسالمة التى بسط المسلمون أيديهم بها ، يستغلون هذا للعب بالإسلام والعبث به ، فنزلت هذه السورة ترفض كل هذه المحاولات، وتكشف خبايا أصحابها ، وتأمر المسلمين أن يعاملوا بالسيف من أبى أن يستمع إلى الحق وأن يترك غيره يقتنع به إذا شاء .

هـذه السورة بـدأت بدايـة حاسمة صارمة ، تمنع التلاعب والعبث ؛ ولذلك نُزعت معانـى الرحمة مـن صدرها ؛ لأنهـا تضمنت القصاص مـن المجرميـن والتـأديب للمعتدين. . . »(٢) .

٤ ـ فى تناوله للتفسير الموضوعى للسورة ، يحرص الغزالى على ربط موضوع السورة بالأجواء والملابسات التاريخية التى نزلت السورة معالجة لها ومتناولة لمشكلاتها الواقعة .

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٥٨ .

(٢) خطب الشيخ محمد الغزالى فى شؤون الدين والحياة ، ج: ٢ ، ص: ٥٣ ـ ٥٥ .

وهو يعتبر الإحاطة بالجو الذى نزل فيه القرآن شرطا أساسا فيمن يتصدى للتفسير ، فيقول:

«لكى نفهم القرآن فهما صحيحا ، لابد أن نفهم الأحداث التى عاصرته ، وأن نعى الأحوال التى قارنت نزوله .

فإن آيات القرآن وثيقة الارتباط بالظروف التى جاء فيها . وفقه هذه الظروف جزء من فقه الهدايات السماوية التى تعلقت بها وتعرضت لها .

لو أنزل القرآن دفعة واحدة لأمكن لدارسه أن يفصل بين معانيه وبين الملابسات العديدة المتشعبة التى أحاطت بها ، أو لَحَارَ فى وضع كل حكم بإزاء الحالة الدقيقة التى تناسبه . أمَا والقرآن نزل مفرقا على بضع وعشرين سنة حفلت بالحوادث الجسام ، وتتابعت عليها أطوار شتى ، وكان نزوله على هذا النحو يُمتُّ بأوثق الصِّلات لتغاير الحوادث وتجدد الأطوار ؛ لذلك لابد فى فقه القرآن من فقه الحياة نفسها التى أحاطت ببداية أمره ، ولابد من استيعاب التاريخ المفصل لهذه الفترة الخطيرة .

ومن الظلم الفادح للقرآن الكريم أن يحاول أحد تفسيره ، وهو ذاهل عن الجو الذى اكتنف نزول الآيات ، فإن تاريخ النزول وسببه جزءان لا يمكن تجاهلهما فى تكوين المعنى وإيضاح القصد ، بل لا يمكن تجاهلهما فى تربية الناس بالقرآن وأخذهم بآدابه» (١) .

إن التأمل فيما تركه الغزالى من تراث فى التفسير الموضوعى ، يوقفنا على التطبيق الكامل لهذه التوصيات ، فهو لا ينى ـ وفى كل سورة تقريبا ـ يصف الأجواء التى نزلت فيها ، ويبرز كيفية علاج السورة للواقع الذى نزلت فيه ، مقبِّحة سوءاته ، ومادحة حسناته .

ولكن الغزالى ، وهو يفسر السورة فى إطار الأجواء التاريخية التى نزلت فيها، لا يتخذ إلى ذلك مسلكا واحدا:

أ ـ فهو ـ أحيانا ـ يهتم بعرض الأجواء التاريخية والاجتماعية التى نزلت فيها السورة، ثم ينفذ من ذلك إلى عرض القضايا التى تضمنتها ، كما فعل عند تفسيره لسورة البقرة ، حيث بدأه بقوله:

---

(١) نظرات فى القرآن ، ص: ١٨ .

«اتجهت الجهود بعد الهجرة إلى تكوين المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة المنورة، لقد نجح المسلمون أفرادا فى مقاومة فتن الوثنية ، وها هم أولاء قد خلصوا بدينهم ووجدوا دارا تجمعهم وتقيم دولتهم .

لكنهم فوجئوا بعداوة من نوع آخر ، عداوة اليهود الذين حسبوا الدين حكرا على جنسهم ، فتجهموا للمنافسين الجدد ،وشرعوا يستعدون لمقاومتهم ، ويتآمرون سرا وعلنا على الكيد لهم .

والقبائل اليهودية التى استوطنت البقاع الخصبة فى الحجاز،بدأت حياتها فارّة بعقائدها من بطش الرومان ، وقد عاشت بين العرب الأميين مترفعة عليهم ، فما حاولت محاربة الأصنام،ولا أنشأت دعوة إلى الله،ولا عرضت تعاليم السماء لتغنى عن تعاليم الأرض.

كلا ، لقد نأت بنفسها ، واستراحت إلى مواريثها ، وظنت أن الدين امتياز لها، ما ينبغى أن يشركهم فيه أحد .

فهل بقيت على هذا الشعور عندما ظهر الإسلام؟لا، لقد رفضته وقلّبت له الأمور.

وحاول النبى الخاتم أن يستلين جانبهم ، ويتعاون على الخير معهم ، بيْدَ أن حقدهم غلب ، وبدأ شرهم ينمو ، فكان المسلمون فى مهجرهم الذى ظفروا به يبنون بيد ، ويقاومون بأخرى ، يؤسسون مجتمعهم وفق إشارات الوحى ، ويدفعون عنه أعداء لا يخفى لهم ضغن .

فى هذا الجو نزلت سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم وأحفلها بالتعاليم المنوعة . . . » (١).

وفى أول تفسيره لسورة النحل ، صور الغزالى جو العلاقة التى كانت تسود بين المسلمين والمشركين أواخر العهد المكى ، وكيف جاءت هذه السورة لعلاج ذلك الجو، حيث يقول:

« ظاهر أن سورة النحل نزلت فى أخريات العهد المكى بعدما احتدم العراك بين المشركين والمؤمنين ، وطال الأمد ولم يظفر الإيمان بنصر يشد أزره ، ولم ينزل بالشرك حدث يقصم ظهره .

وكأن المشركين يقولون للمؤمنين: أين ما توعِدوننا به وتنتظرون وقوعه ؟ فكان

---

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ١ ، ص:١١ .

الجواب: كل آت قريب: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوه ﴾ [النحل: ١] .

وما يتحقق وقوعه يمكن الجزم به ، وقد انتهى الصراع بين الحق والباطل بهزيمة أخرست الوثنيين وأخضعت أعناقهم . . واحتاج ذلك إلى أجل يعده المجرمون طويلا ، ويعده القدر قصيرا .

وفى هذا الأجل يجب على المسلمين أن يصبروا دون ارتياب ؛ ولذلك يقول الله فى آخر السورة لنبيه: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُون ﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨] . وقد صابر المسلمون الأيام ، وعندما حزَّت فى جلودهم الآلام نزلت آيتان فى هذه السورة تعزيان المسلمين ، وتصبرانهم على ما نزل بهم:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١] .

والثانية: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيم ﴾ [النحل: ١١٠] .

والهجرة المقصودة هنا هى الهجرة إلى الحبشة . . . » [١] .

ب ـ وفى أحيان أخرى يتخذ من التفسير كله مجالا لعرض الأجواء التى نزلت فيها السورة ، حيث يعرض فى كل مرة يفسر فيها جزءا من السورة الأجواء التى لابست نزول ذلك الجزء ، والواقع الذى جاء لعلاجه .

فعل ذلك، مثلا، عند تفسيره لسورة النساء، حيث بعد أن عرض الموضوع العام للسورة والتفاصيل الجزئية لهذا الموضوع، انتقل إلى مسائل أخرى عالجتها السورة، ومنها علاقة المسلمين باليهود، فعرض حرص المسلمين على تألُّف اليهود، وكيف أن هؤلاء «كانوا عند أسوأ الظن، فما بالوا بعهد ولا بجوار، وقدموا إلى الإسلام كل ما يستطيعون من إساءة »[٢].

وبين كيف عالج القرآن الكريم هذه القضية من خلال سورة النساء .

ومن الحديث عن معالجة السورة لقضية اليهود وموقفهم من الدعوة ، انتقل إلى الحديث عن موقف طائفة أخرى أكثر خطرا ، عالجت السورة أيضا شؤونها بما تستحق:

« بعدما قص القرآن من أخبار اليهود ، شرع يحكى أخبار طائفة ثانية كان لها خطر

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٥٥ . (٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٥١ .

كبير على الإسلام وأهله ، هى طائفة المنافقين الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان ، حتى كشفتهم أعمالهم وفضحتهم سرائرهم» (١) .

كما تناول أيضا حديث السورة عن ضِعاف الإيمان ، وهم أناس كانوا يحبون الله ورسوله ﷺ ويؤمنون بدعوته، إلا أن يقينهم فى نصر الله للرسول وللمؤمنين كان ضعيفا:

« والسورة تعالج ضعفاء الإيمان فى أماكن شتى ، ومن رحمة الله ألا يترك هؤلاء صرعى وساوسهم ، حتى يفقدوا دينهم » (٢).

وعلى مثل هذا النسق الذى سار عليه فى تفسير سورة النساء ، سار أيضا فى تفسير سورة المؤمنون (٣)، وتفسير سورة براءة (٤)، وغيرهما من سور القرآن الكريم .

٥ـ يعقد الغزالى مقارنات بين السور القرآنية فى موضوعاتها ، أو فى أساليبها فى عرض تلك الموضوعات ، مبرزا ما تتميز به كل سورة وتنفرد به عن غيرها .

من ذلك مقارنته بين سورة هود وسورة الأعراف، فى شأن ما ورد فيهما من قصص:

« والقصص تتكرر فى القرآن ، وفى كل واحدة منها ملحظ لا يُرى فى الأخرى، وإنما تُعرف حقيقة القوم كاملة من الجمع بين شتى القصص فى صعيد واحد ، وهذا الصنيع يحتاج إلى علم خاص به .

وفى سورة هود ، جاءت قصص الأولين ومصارعهم على النحو الذى تم فى سورة الأعراف ، لكنك تقرأ هنا تفاصيل عن قوم نوح لم ترد قط فى سورة الأعراف .

تفاصيل استغرقت نحو صفحتين، على حين لم تأخذ من سورة الأعراف إلا سطورا»(٥).

ومن ذلك أيضا ، المقارنة التى عقدها بين سورة إبراهيم وسورة الرعد:

« تشبه سورة إبراهيم سورة الرعد فى شرحها لطبيعة الحق ؛ فإن الحق ينفع الناس إلى جانب صدقه العقلى ، أما الباطل فمجلبة للمتاعب والآلام .

فى سورة الرعد ، يقول جل شأنه: ﴿ **كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [الرعد: ١٧] .

وفى سورة إبراهيم يقول جل شأنه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ**

---

(١) م . ن ، ج: ١ ص: ٥٥ .
(٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٥٧ .
(٣) م . ن ، ج: ٢ ، ص : ١١٧ ـ ١٢١ .
(٤) م . ن ، ج: ١ ، ص : ١٤١ ـ ١٥٥ .
(٥) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٢٠ .

طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] »(١).

٦ـ إضافة إلى كل ما سبق ، يهتم الغزالى ـ وهو يفسر السور القرآنية تفسيرا موضوعيا ـ بنقد الآراء السقيمة التى دخلت كتب التفسير فأضرت بالفكر الإسلامى أكثر مما نفعت .

من ذلك، نقده لبعض الأقوال التى تزعم أن فى سورة الأنعام المكية، بعض آيات مدنية:

« ظاهر أن السورة الكريمة ـ أى الأنعام ـ نزلت فى ذروة المعركة المحتدمة بين الحق والباطل.

والمشهور من أقوال العلماء أنها نزلت ـ على طولها ـ جملة واحدة .

وقد رويت أقوال بأن آيات منها نزلت فى المدينة المنورة ، بعضها باطل ، وبعضها ضعيف.

وعلتها أن بعض القراء يحسب أن كل ما يتصل بأهل الكتاب لا علاقة له بمكة. وهذا خطأ .

كما أن البعض تصور أن فرض الزكاة كان فى المدينة ، والحق أنه بدأ فى مكة وفُصلت الأنصبة فى المدينة .

والسورة نزلت فى نفس واحد واحتفَّ لنزولها عشرات الألوف من الملائكة»(٢).

وفى تفسيره لسورة براءة ، يشن الغزالى حربا شعواء على من يدَّعون أن الإسلام دين يقوم على إكراه الناس على اعتناقه بالسيف ، وأن الأصل فيه أن يبدأ هو بالهجوم دون إعلان ولا دعوة . فبعد أن عرض الغزالى لمعنى البراءة فى السورة ، مفسرا له فى ضوء الملابسات التاريخية التى استدعت هذه البراءة من الله ورسوله إلى المشركين المعاهدين ، قال:

«المؤسف أن بعض الناس جاء إلى الوحى النازل ، وشرع يتعسف فى تفسيره .

فهو يقسم الجملة قسمين ، يأخذ بأولها ، وينسى آخرها ، مثل قوله بأن السورة شنت حربا هجومية على الكفار جميعا ،مستدلا بقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ ، وناسيا بقيتها: ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦] . ومثل فهمه كلمة «الناس» فى قوله تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ [التوبة: ٣] ، فقد فهم أن

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٤٥ .
(٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٩٢ ، ٩٣ .

كلمة « الناس » تعنى البشرية قاطبة !! ونسى الاستثناء والتعقيب الواردين بعد هذا العموم . وهما؛ أولا: قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا... ﴾ [التوبة : ٤] .

فالمعنى واضح حاسم فى أن الحرب ضد قوم معينين ظاهروا علينا العدو واستباحوا حقوقنا ، وهل علينا من جُناح فى حرب هؤلاء ؟

أما التعقيب فهو بالغ الأهمية ؛ ذلك أنه فى أثناء تأديب المعتدين يظهر أقوام لا ناقة لهم فى الحرب ولا جمل ، لا يريدون قتالا ولا يفكرون فيه .

هؤلاء أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بتأمينهم وطمأنتهم وإعادتهم سالمين إلى أرضهم: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦] .

فأين الحرب الهجومية فى هذا السياق النبيل ؟

إن سورة براءة بريئة من التحريض على العدوان وتشريع الحرب الهجومية على الأبرياء والمسالمين»[(١)] .

٧ ـ هذا ، ولعل أبرز ما يمكن أن نلاحظه على عمل الغزالى فى التفسير الموضوعى للسور القرآنية ؛ حرصه البالغ على الإيجاز والاختصار ما أمكن ، والسر فى ذلك أن الرجل إنما قصد إلى وضع الخطوات الأولى فى منهج التفسير الموضوعى للسور القرآنية؛ ولذلك رأى أن يسمى كتابه : « نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم » .

وقد أكد فى مقدمة الجزء الأول منه ، كما فى مقدمة الجزء الثانى أيضا ، أنه يضع الخطوات الأولى فى هذا الطريق ، ويترك لغيره ممن يأتون من بعده مهمة التفصيل والاستفاضة:

« الرائد يشغله عناء الكشف عن إحسان الترتيب والتبويب . فليكن ذلك التفسير تمهيدا لمن يجيئون بعدى ؛ يبنون عليه ويزيدون فيه»[(٢)] .

لأجل ذلك وجدناه ـ وهو يفسر السورة ـ يكتفى باختيار مجموعة محددة من آياتها، يرى أنها كافية فى إبراز الملامح العامة لها:

«إننى أختار من الآيات ما يبرز ملامح السورة، وأترك غيرها للقارئ يضمها إلى

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ١٤١ ، ١٤٢ .   (٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٥ .

السياق المشابه ، وذلك حتى لا يطول العرض ويتشتت، والإيجاز مقصود لدىَّ » (١).

وقد سار الغزالى على هذا المنهج فى تفسيره لسور القرآن كلها ، دون استثناء .

والذى يبدو أن السن التى كتب فيها الغزالى تفسيره هذا ، كان لها تأثيرها عليه، مما حدا به إلى الانصراف إلى الإيجاز بدل الاستفاضة والإسهاب ، فالرجل بدأ يكتب التفسير بعد أن تجاوز السبعين من عمره ، بحيث أصبح ترقب الموت يلح عليه فى كل لحظة ؛ لذلك حرص على أن يتم التفسير قبل حلول الأجل ، بل لقد كان يسأل ربه ـ عز وجل ـ أن يمد فى أجله حتى ينتهى من كتابته . نلاحظ هذا واضحا فيما كتبه فى مقدمة الجزء الأول من التفسير ، حيث يقول:

«فاسترسلت مستعينا بالله ، معتمدا عليه ، وكتبت هذه الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم ، على أمل أن يأتى الأجل بعد أن أفرغ من الكتابة ، والمستقبل بيد الله وحده» (٢) .

وهو نفس المعنى الذى نجده فى مقدمة الجزء الثانى من التفسير:

« وأضرع إلى الله أن يعيننى قبل حلول الأجل على إتمام الأجزاء العشرة الأخيرة حتى أتم التفسير كله » (٣).

وقد حقق الله ـ عز وجل ـ لعبده الخاشع الضارع أمنيته تلك ، ومكنه من أسباب الحياة حتى أنهى تفسير الكتاب الكريم . وهو ما استدعى من العبد أن يتوجه لخالقه بالشكر العارم والحمد الوفير . وذلك ما كتبه فى مقدمة الجزء الأخير من التفسير:

« أثنى على الله بما هو أهله؛ إذ أعاننى على إكمال هذا الجزء الأخير من التفسير برغم كثرة الأسقام والأعباء، فله الحمد كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

أشكر ربى ما تراخت منيتى ، وبعد أن ألقاه تبارك اسمه ، أن جعلنى أهلا لتدبر كتابه ، واجتذاب المؤمنين إليه » (٤) .

فالاختصار فى منهج التفسير عند الغزالى ، مبرر ـ إذن ـ بهذا السبب ، ولم يكن نتيجة قصور فكرى أو علمى، كما حاول الغزالى نفسه ـ بتواضعه ـ أن يبرره، حين قال:

«هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم، سبق أن قدمت نماذج منها فى بعض ما كتبت.

(١، ٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٦ .
(٣) م . ن ، ج:٢ ، ص: ٥ .
(٤) م . ن ، ج: ٣ ، ص: ٥ .

وقد لازمنى شعور بالقصور وأنا أمضى فيها ، فشأن القرآن أكبر من أن يتعرض له مثلى ، ولكنى حرصت على أن أزداد فقها فى القرآن وتدبرا لمعانيه» [1] .

إنه التواضع الذى زان سلوك الشيخ حياته كلها ، والذى بفضله أعلى الله مكانته ورفع ذكره فى العالمين .

---

(١) م . ن ، ج:١ ، ص: ٥ .

الفصل الخامس

الاهتمامات والغايات

الاهتمامات والغايات

الاهتمامات الفكرية للغزالى، مجالها واسع، ورقعتها متسعة لا تشملها حدود، فقد عايش أحداثا كثيرة، وتأمل فى قضايا وطنه، وقضايا دينه، وقضايا عصره، وقضايا أمته ، وسائر القضايا التى مر بها أو اهتم لها فى أطوار حياته، وذلك سر اتساع دائرة اهتماماته الفكرية.

ومع تنوع القضايا الفكرية للغزالى، والتى نجد صداها فى تفسيره لكتاب الله - عز وجل - فإن هناك عددا من القضايا التى تسجل حضورها بقوة فى فكر الغزالى وأبحاثه الكثيرة ، ومنها مباحثه فى التفسير ، وهذه الاهتمامات نفصل القول فيها فيما يلى:

١- التعريف بالله - عز وجل - وإبراز نعمه على الخلق :

يمثل التعريف بالله - عز وجل - وإبراز نعمه على خلقه، والعلاقة التى ينبغى أن تربط الخلق بخالقهم - عز وجل - الاهتمام الأكبر الذى يسيطر على الغزالى وهو يكتب أو يخطب أو يحاضر، فهذا الاهتمام نجده حاضرا فى كل إسهام فكرى للغزالى، بحيث يكاد يكون هو الاهتمام الأول والأخير، وسائر الاهتمامات الأخرى هى كالخادمة له والمعينة عليه.

وإذا كان الأمر كذلك فى سائر مؤلفات الغزالى وإسهاماته الفكرية المتنوعة، فلا عجب أن يكون حب الله والتعريف به وتصوير العلاقة الصحيحة التى ينبغى أن تربط عباده به ، هو الاهتمام الأول الذى يشغل الغزالى وهو يفسر كتاب الله - عز وجل - ويشرحه للناس.

ولا غرابة فى ذلك، فإن القرآن نفسه ليس سوى رسالة من الله إلى خلقه ؛ يعرفهم من خلالها بنفسه وبصفاته وبعجيب صنعه وبمكونات هذا الكون الذى أبدعه، وبرسالة هذا الإنسان الذى خلقه فسواه .

وفى هذا يقول الغزالى:

« إن أمجاد الألوهية تتألق فى جو القرآن ، وتجعل الإنسان شديد الحس بعظمة الله وقيامه على العالم أجمع ، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، كما يعلم أين تهوى النجوم ، ثم تشرق بعد أن تغرب .

إن آيات القرآن تشيِّد للجلال الإلهى صرحا فى كل نفس ، وتجعل المرء عبدا لله وحده ، لا عبد رغبة ورهبة» (١) .

---

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ٢ ، ص: ٦٣ .

فالله ـ عز وجل ـ هو وحده الذى يستحق أن يُعبد . فهو وحده الإله الذى يملك هذا الكون ويبسط عليه قدرته وسيطرته ، وكل الدلائل تشير إلى ذلك:

« الحق أن التنقيب فى الكون ، والبحث الشاق فى السموات والأرض لا يُسفر إلا عن إله واحد . أين الآخر ؟ أين ما خلق ورزق ؟ من الذى شارك الله فى خلق الذرة والمجرة ؟ من الذى شاركه فى خلق النطفة والبويضة ؟

من الذى يساعده فى تدبير الأمور ؟ إن العالم الكبير لا تديره شركة من أى نوع .

إنما الله إله واحد ، الخضوع له حق ، والامتثال له حق ، والزلفى إليه واجبة، وعبادته فريضة على الكل .

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا** ﴾ [النساء: ١٧٢] » (١) .

كما أن كل الدلائل تشير أيضا إلى عدم وجود إله آخر غير الله ، و«إذا كان هناك غير الله فلماذا صمت فلم يتكلم؟ وعجز فلم يبعث أحدا ينبئ عنه ؟ إنه لا إله إلا الله، وما يتبع المعدِّدون إلا أصفارا » (٢) .

ولأن الغزالى يدرك أن الله ـ عز وجل ـ بهذه العظمة وبهذه القوة ، فهو يستغرب نظرة بعض الناس إلى الله ، تلك النظرة التى تنتقص من قدره وتريد أن تعامله باعتباره مخلوقا مثلها:

« إن فرعون طلب من وزيره هامان أن يبحث فى السماء عن إله موسى: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [القصص: ٣٨] .

إن الأحمق ظن أن الله مع الطيور فى الجو ، أو لعله جالس على السحاب.

وقد تكررت هذه الحماقة فى عصرنا ، فإن واحدا من رواد الفضاء الروس زعم أنه بحث عن الله فى جو السماء فلم يجده ، بل وجد فقط أحد زملائه الرواد.

وشاء الله أن يحترق ثلاثة من الرواد وهم يهبطون إلى الأرض اختناقا من قلة الهواء فى الجهاز الذى طاروا فيه .

إن الكفر ضلال بعيد ، ولست أدرى كيف يُبحث عن الله فى الجو ، وهو مُنبت الغذاء الذى نأكله ، وصانع الهواء الذى نستنشقه .

وآياته فى الأرض أقرب إلينا من آياته فى السماء،ولكنه العمى الذى طمس الأفئدة:

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٦٩ . (٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٠٥ .

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ . وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٤١ ، ٤٢] » (١).

ويقول الغزالى شارحا العقيدة الصحيحة فى الله :

« عقيدتنا أن الله هو الضار النافع ، الخافض الرافع، وأنه خالق كل شىء وسائقه، فلا قدرة لبشر على خلق وإنشاء ، ولكن البشر لهم إرادات وقُدَر تعمل داخل نطاق محدود فى هذا الكون الكبير الذى لا ندرى منه إلا القليل» (٢).

و« توحيد الله هو العهد الأعظم الذى أخذ على العباد قاطبة، فليس لبشر أن ينقض هذا العهد أو يتمرد عليه .

ومع ذلك فإن البعض يشبه اللقيط الذى يجهل أباه ، فهو يحيا بعيدا عنه ، أو يعرفه معرفة فاسدة ، فهو سيئ الظن به ، غبى الفهم له .

والذين يظنون مع الله إلها آخر هم من هذا القبيل» (٣) .

إن الإيمان بالله ـ عز وجل ـ والبراءة من الشرك والوثنية وسائر أنواع العبادة لغير الله ، هو الأصل الذى بُنِىَ عليه التكوين الفطرى للإنسان .

فـ«التعلق بالله الواحد، والبراءة من سائر الشركاء هو الأساس الأول للفطرة.

والإنسان عندما يخلو بنفسه لا يتجه إلى إلهين أو ثلاثة ، إنما يتجه إلى إله واحد ، يجأر إليه فى الضراء ، ويلهج بشكره فى السراء .

والواقع أن الشرك نضح بيئات ضالة فقدت رشدها وآذت غيرها » (٤).

ويرى الغزالى أن ذهول الناس عن الله ونسيانهم له وصدهم عن عبادته له أسبابه ، وفى ذلك يقول:

« للذهول عن الله أسباب ، أولها ـ فيما أرى : ما ينشأ عن اتِّصال الإلف واطِّراد العادة من مشاعر كاذبة .

فالغنىُّ من طول الشبع ينسى ألم الجوع . والسليم من استمرار الصحة ينسى ألم المرض . وكلاهما يظن الحياة لا تعدو ما أحسَّ .

بل إن الإنسان الفذ ينسيه حاضره الغالب ما عراه فى ماضيه القريب أو البعيد من شؤون أخرى .

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٥٠ . (٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٥٨ .

(٣) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٧٥ . (٤) م . ن ، ج: ١ ، ص: ١١٦ .

ونحن مع اختلاف الليل والنهار وطلوع الشمس والقمر ، نظن أن ذلك الواقع ضربة لازب ، وأنه لا مصرِّف له ، كأنما يقع من تلقاء نفسه .

فاحتاج الأمر إلى الوحى الإلهى يذكر الناس أن الله فاعل ذلك كله»(١) .

والعجيب أن الإنسان إذ ينسى الله ـ عز وجل ـ فى المسرات وأيام العز والرفاهية ، فيتبع شهواته ويقع صريع لذائذه وملذاته ، سرعان ما يؤوب إلى خالقه مستّجيرا مستغيثا به دون غيره إذا ما حزبه أمر أو واجهته مشكلة من المشكلات أو صعوبة من الصعوبات، وهذا مسلك ينم عن تجاهل لحق الله على عبده وتنكر لأفضاله ونعمه:

« من حق الناس أن يفزعوا إلى الله إذا مسهم ضر ، ولكن من حق الله عليهم أن يشكروه بعد النجاة ، وأن تبقى علاقتهم به قائمة إذا انتهى ما ألجأهم إليه، إنهم لن يستغنوا عنه أبدا » (٢).

ويحرص الغزالى ، وهو يفسر سور القرآن الكريم على تقديم نماذج وصور رائعة من المعجزات والسنن الإلهية فى الخلق والتكوين ، يستدل بها على عظمة الخالق الأعظم سبحانه وتعالى ، وعظيم حكمته وإتقان صنعه ـ عز وجل . من ذلك قوله تعليقا على طلب المشركين من النبى ﷺ معجزات كونية خارقة حتى يصدقوا برسالته:

« أنا أعجب: إذا كان النظام الكونى لا يدل على الله ، فهل خرْق هذا النظام أحيانا هو الذى يدل على الله ؟

إن القمر يدور حول الأرض من دهور خلت ، لا يتباطأ ولا يعوجّ ، فهل هذا الاطراد لا يشهد للخالق القدير ، ويشهد له انشقاق القمر بضع دقائق ؟

هل السراج الوهاج الذى لا يخبو وهجه على اختلاف الليل والنهار لا يدل على الله العظيم ، ويدل عليه تأخر الغروب بضع دقائق ليوشع غلام موسى ؟

إننى أشهد عالم الحيوان والإنسان والحشرات الزاحفة والطائرة فأدهش لسنن الله فى حياتها وبقائها وضمان الرزق لما دق وجل منها .

ولعل ما نذكر هو السر فى سوْق هذه الآية لمن يطلبون خوارق العادات من صاحب الرسالة العظمى ، أعنى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا من دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنعام: ٣٨] .

ولقد استوقفنى منظر العصفورة الأم ، وهى تطوف بين الحقول ثم ترجع بالغذاء

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ١١٧ .   (٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٥ .

فى جوفها ، ثم تفتح منقار وليدها فى العش لتطعمه وتسقيه !!

صنع الله الذى أتقن كل شىء » [1] .

ومن ذلك ما أورده فى تفسير سورة الحجر ، حيث استهل التفسير بقوله:

« فى أول سورة الحجر وآخرها حديث شائق عن الكون وأسراره وقواه الدالة على صاحبه .

إذا نظر المرء إلى أعلى ، لم يَنْقَضِ عجبه من شروق الأفلاك وغروبها فى فضائها المديد إلى غير نهاية . وإذا نظر إلى الأرض وما أودع فى برها وبحرها من بركات ، عجِب كيف ضمن الله الرزق لكائنات لا حصر لها ؟! وردد مع الرسول الكريم قوله: «اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن »[2] .

يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ . وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ . إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ . وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ . وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ**﴾ [الحجر:١٦ ـ ٢٠].

لقد فصل أول السورة بركات الكون وخيراته وعجائبه ، ولكنه أجمل فى آخر السورة وأوجز عندما قال: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الحجر: ٨٥ ، ٨٦] .

لقد ثبت أن عناصر الجسم البشرى هى عناصر هذه التربة الأرضية ، فكيف يتحول اللحم والعظم إلى تراب ؟ ثم كيف يتحول التراب مرة أخرى إلى لحم وعظم ؟

هل الخصيتان هما اللتان تهندسان خصائص الوراثة وتحملان الطبائع المادية والمعنوية للإنسان ؟

هل هذه الدريهمات من اللحم تصنع قدر الإنسان ؟ إنها غدد عبقرية .

إذن ، إنها ـ عند النظر الصائب ـ غطاء للقدرة العليا يخترقه العقل السليم فيرى أن الله وحده هو المحيى المميت ، وأنه بحكمته وإبداعه خالق كل شىء: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾ [الحجر: ٢١] .

العلم الإلهى صفحة واحدة ، يقترب فيها الأزل من الأبد، والأرض من السموات،

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٩٦ .

(٢) مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه (٧٦٩) .

والدقيق من الجليل ، وعالم الحشرات والجراثيم بعالم الإنس والجن والطير .

كنت فى الطائرة فرمقت قطعة من الصحراء خُيِّل إلىَّ أنها تصلح للزراعة ، فتساءلت: أتزرع هذه غدا ؟ ثم أجبت نفسى: إن كانت ستُزرع فإن الله وحده يعلم أيان يجيئها المطر ويلتف حولها البشر ويلتقطون منها الثمر: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الحجر: ٢٤، ٢٥].

إننى أتابع برامج عالم الحيوان وعالم البحار، وأعجب: كيف تتكاثر الأحياء وكيف تتفانى ، وكيف يجعل الله طعام طير سارح من دودة ملصقة بظهر حيوان ضخم يستريح حين يأكلها هذا الطير !

وعالم الإنسان نفسه مثار تفكير عميق ، لقد خلق من طينة منتنة : ﴿ **مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ [الحجر : ٢٦] .

وعندما يعود إلى التراب بعد انقضاء رحلة العمر ويُدفن تحته تكون رائحته أشد إزعاجا.

كأن الناس يتدافنون حتى لا يشمئز بعضهم من بعض .

بم زكا الإنسان وسما ؟ بم كُرِّم ونُعِّم ؟ بهذه اللطيفة الربانية التى نُفخت فيه ، والتى طالما جار عليها وضاق بأوجها» (١) .

ولا يكتفى الغزالى بالاستدلال على وجود الله ـ عز وجل ـ وإبراز نعمه على الخلق، بل يحرص أشد الحرص على استغلال كل فرصة تسنح لتقديم كلمات رائعة فى التعريف بالله ـ عز وجل ـ ووصف عظمته وجلاله واستحقاقه ـ وحده ـ للتعظيم والعبادة .

من ذلك قوله مثلا:

« لو سأل أحد: من ربنا الذى كلَّفنا بعبادته وسنعود للقائه بعد انتهاء آجالنا فى هذه الدنيا ؟ لكان الجواب: ما جاء فى سورة يونس: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [يونس: ٣] .

إن هذا جواب مجمل يحتاج إلى تفصيل تولَّته آيات أخرى فى السورة نفسها ، إن هناك ألوفا مؤلفة من الأفواه القاضمة والبطون الهاضمة .

تُرى من هيَّأ لها أرزاقها ، ومن حوَّل هذه الأرزاق إلى لحم وشحم وعيون وآذان ؟

---

(١) م . ن ، ص: ٥٠ ـ ٥٢ .

من جعل العيون تبصر والآذان تسمع ؟ إن هذه الحواس النفسية أجهزة محكمة معقدة فى كيان واحد ، فكيف صاغتها القدرة فى ملايين من الكائنات ؟ ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٣١] .

إن الفلاح يضع حبة واحدة فى الطين فتخرج له ألف حبة !! ومن حول الحمأ الكريه الطعم والرائحة إلى قمح أو أرز أو ذرة يُستحلى طعمها ورائحتها ؟ من حوَّل المخلفات العضوية إلى قصب سكر ؟ وإلى أزهار وورود ترفُّ عليها ألوان الطيف ، وتفوح منها روائح العطور ؟ ﴿ **فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾ [يونس: ٣٢] » (١) .

* * *

٢ـ إبراز فضل القرآن على الإنسانية وعلى العرب خاصة :

القرآن الكريم هو كتاب الله ـ عز وجل ـ إلى الإنسانية ، ضمنه أصول هدايتها وأسباب فلاحها ، وكلفها بالعمل بما فيه ، والسير على هديه وتعاليمه ، ففى ذلك وحده سبيل نجاتها وسعادتها فى الدنيا والآخرة .

يقرر الغزالى :

« إن القرآن معجزة باقية على امتداد العصور ، وأثره النفسى والاجتماعى عميق ، وقد حفظ أمتنا فى أشد الأزمات التى نزلت بها ، ولم أر كتابا مثله فى إنشاء علاقة بين المرء وربه تقوم على التقوى واليقين .

أما تعريفه بالله من خلال النظر فى الكون ، فاسأل علماء المادة : هل وجدوا فى هذا التعريف، إلا ما بهر وسر ؟ لماذا ؟ لأنه ﴿ **أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ [الفرقان: ٦] .

إن القرآن يصنع أجيالا تصحب ربها بمشاعر الرغبة والرهبة ، وتجعل من هذه الصحبة أسلوب حياة ومنهج سلوك شريف .

وذلك بعض إعجاز الكتاب الكريم .

إن الإيمان الذى صنعه القرآن صنع العجائب، ولا يزال يصنع»(٢) .

هذا المعنى الذى يقرره الغزالى هنا، نجده لا يفتأ يؤكد عليه ويوجه إلى أهميته،

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٩ ، ١٠ .
(٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٥٨ ، ١٥٩ .

ففى تفسيره لسورة النحل مثلا ، قال الغزالى:

«فى مطلع هذه السورة سمى الله الوحى روحا؛لأنه يحيى الأفراد والأمم: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾[النحل:٢]، ويقول جل شأنه فى مكان آخر: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ﴾ [الشورى:٥٢] .

والروح النازل على العرب فى تضاعيف هذا القرآن خلق منهم كيانا جديدا رشحهم لقيادة العالمين بجدارة بعدما كانوا صفرا . . .» (١) .

وفضل القرآن على العرب أولا ، وعلى الإنسانية كلها من بعدهم ، مثَّلَ بيانُه جانبا مهما من اهتمامات الغزالى فى تفسيره ، يقول مثلا عند تفسيره لسورة الأنبياء:

« ينبه الله سبحانه العرب إلى أنه اختار محمداً منهم ليرفع شأنهم فى العالمين ، ويجعلهم أصحاب رسالة تحولهم من رعاة للغنم إلى رعاة للأمم: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] .

ومع ذلك ، فقد دخل العرب الإسلام بشق النفس ، ولكنهم بعدما اطمأنوا إليه افتدوه بالنفس والنفيس ، وطوفوا به فى أرجاء العالمين» (٢).

ويقول فى موضع آخر ، مبينا دور القرآن الكريم فى حياة الجماعة الإسلامية الأولى ، التى كانت تتحرك به ، وتستهدى بكل تعاليمه:

« النهضة التى اقترنت بالقرآن الكريم اقتران النهار بالشمس ، وجدت أسباب الحياة والازدهار فى هذا الكتاب العزيز ، على نحو يروع الألباب .

بل إن هذا القرآن وفر للنهضة الإسلامية من عناصر الوجود والاكتمال ما لا تستطيع صنعه ألف وزارة للدعاية تجند فيها لتغذية العواطف والآراء آلاف الأقلام الواعية ، والألسنة الحادة .

كان هذا القرآن للحركة الإسلامية صحافتها،وإذاعتها ، وكتابتها ، وخطابتها، ومن آياته وحدها اهتزت الأجيال الهامدة اهتزازة الحياة ، وتخلصت بقوة وعزم من عقابيل الجاهلية الأولى لتنشئ نهضة جديدة متميزة بحقائقها وشاراتها،نهضة لم تنبعث من نفس رجل واحد فتموت بموته،بل نهضة تنبعث من أعماق النفوس التى آمنت عن يقين جازم، واقتناع محض،وكأن كل واحد من حملة هذه الرسالة هو الذى اختص بهذه الآيات:

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٥٦ .

(٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٠٤ ، ١٠٥ . .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣] .

إن الإسلام عقد الأواصر فأحكمها بين رسالته السماوية وبين الآخذين بها والحياة التى يريدونها ، وقد كان هذا القرآن الكريم السناد النفسى والعقلى لجهاد الأتباع وعملهم الرتيب فى توجيه الحياة ، وإعادة تخطيطها على أسس أرقى» (١).

ويصف الغزالى مقدار الفضل العظيم الذى حل بالعرب بفضل الإسلام وكتابه الكريم (القرآن) ، فيقول:

« الإسلام صنع للعرب قديما الكثير ، فقد ارتقى بهم عقليا ، وارتقى بهم روحيا. أما الارتقاء العقلى فإن الثقافة القرآنية التى انتشرت مع امتداد الإسلام ، وبدأت من صحراء غلبتها الأمية ، وتحول أصحابها بهدايات القرآن إلى أرقى من الفلاسفة ، وإلى أعظم من القادة والأئمة الذين ملكوا نواصى الثقافة فى كل دين. بهذه الثقافة القرآنية تحول العرب الأميون إلى أساتذة ، ونظروا فى كتب الإغريق نظرة الأستاذ إلى كراسات الطلاب ، ونظروا إلى آداب الفرس نظرة المشرف من أعلى على العامة الذين يموج بهم السفح القريب ، وبلغ من عظمة الإسلام - كما يؤكد علماء أوربا - أن الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين كانوا يرسلون أبناءهم إلى جامعات الأندلس لنيل إجازاتهم العلمية منها ، وفى القرن الحادى عشر الميلادى تولى بابوية الفاتيكان خريجون من جامعات الأندلس ، تعلموا الثقافة ، واتسعت آفاقهم مع العلم الذى تقدم به الإسلام إلى البشرية قاطبة ؛ لأن معنى كلمة مسلم وكلمة إسلام: نهضة فكرية رائقة شائقة ينظر إليها الناس بإعجاب ويودون أن يغترفوا من منابعها وأن يشرفوا بالانتماء إليها ، فكان العلم الإسلامى الذى قدمته هذه الحضارة موضع التقدير ، بل أكد العلماء أن النهضة الأوربية ما كانت لتتم لولا ظهور الإسلام وقيام جامعاته الكبرى .

هذا من الناحية العلمية ، أما من الناحية الخُلُقية ، فإن المروءة والأدب والسماحة ورحمة الصغار وتوقير الكبار وإسداء العون للضعاف وتحسين الحسن وتقبيح القبيح واحترام التقوى ، كل هذه المآثر كانت تنضح من مجتمع يبدأ مع الفجر يصلى لله ولا يأوى إلى فراشه إلا بعد أن يصلى لله ، فكان المجتمع المشغول بطاعة الله وتطهير البدن والروح ، كان هذا المجتمع يقدم للناس فى المشارق والمغارب نماذج من الخلق العالى ، هذه النماذج هى التى فتحت الأقطار للإسلام، خصوصا التواصى بالمرحمة، فإن المسلمين

---

(١) نظرات فى القرآن ، م . س ، ص: ١٥ ، ١٦ .

كانوا يزكون ويتصدقون، وأيديهم كانت العليا ، ما تدع ثغرة للبأساء والضراء إلا سدتها، ولا حاجة من حاجات البشر يبدو فيها الفقر إلا بدا فيها العون الإسلامى . وكان المسلمون يومئذ طول ألف سنة تقريبا سادة العالم ، فقدموا للناس مع العلم النضير الخلقَ الزكى والأدب العالى ، كان المسلمون ـ كما قلت ـ طليعة تقدمية فى كل مجال ، والذى أفاء عليهم هذا الفضل هو الإسلام» (١) .

* * *

٣ـ نقد واقع المسلمين وحثهم للنهوض به:

كما يهتم الغزالى بالتعريف بالله ـ عز وجل ـ وببيان فضل القرآن على العرب والإنسانية ، يهتم أيضا ، وبحرص بالغ ، بواقع المسلمين اليوم وما يعانونه من تخلف وضياع وانهيار فكرى واجتماعى واقتصادى وحضارى ، ودينى أيضا ، بل إن كل أبحاث الغزالى وكل جهوده التى بذلها خلال حياته المديدة ، كانت فى الأساس موجهة لهذا الهدف الأسمى ؛ السعى للنهوض بالمسلمين والعمل على انتشالهم مما هبطوا إليه من تضعضع وانهيار .

يؤكد الغزالى فى تفسيره على دور الأمة الإسلامية ، وما ينبغى عليها أن تقوم به باعتبارها أمة القيادة والشهادة ، فالأمم كلها بحاجة إلى أن تقوم هذه الأمة بهذا الدور ، وفى ذلك يقول:

« العالم اليوم محتاج إلى أمة تضرب المثل من نفسها فى عبادة الله ، والحديث عن أمجاده ووصاياه ، وتلك هى الأمة الإسلامية .

على أن هذه الأمة المسبحة بحمد الله يجب أن تكون مالكة لزمام الأرض ، سيدة على مرافق الحياة المختلفة » (٢).

وينتقد الغزالى على المسلمين ؛ اشتغال عامتهم بالشؤون الكبرى للأمة التى هى من اختصاص قادتها وعلمائها ، وتركهم لوظائفهم الأساسية:

« من المآسى أن تشتغل الدهماء بشؤون الدولة الكبرى ، وأن تبدى رأيها فيما لا تعرف له رأسا من ذنب .

وقد رأيت من يتحدث فى الفقه ولا فقه له ، ومن يفتى فى قضايا الحرب والسلام

---

(١) خطب الشيخ الغزالى ، م . س ، ج: ٢ ، ص: ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، م . س ، ج:٢ ، ص:٤٦ .

ولا رأى له ، ومن يريد إصلاح العالم وهو عاجز عن إصلاح بيته ، لماذا لا نترك الأمور لأربابها ؟ ولماذا تبعثر الشؤون الحربية والمالية فى كل مكان ؟ إن الله يأبى أن يُسأل عنه من يجهله: ﴿ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان: ٥٩] .

ومن الخير أن نحترم الأخصائيين، وأن نقف عند حدود علمنا» (١) .

كما ينتقد عليهم تخلفهم وهوانهم ، رغم ما حبى الله به أرضهم من بركات وخيرات ، فهم ـ لعجزهم ـ لا يستطيعون استثمار هذه الخيرات والبركات:

« لعل من أغرب مآسى الحياة الدنيا فى هذا العصر ؛ أن المسلمين الذين يتلون القرآن الكريم ، هم أبين الناس فاقة على ظهر الأرض ، وأقلهم جهدا ، وأضألهم إنتاجا .

كان جبل « المكبر » فى أيدى الأردنيين أجرد المناكب ، مقفر الأرجاء ، فلما استولى عليه اليهود لم تمض أيام حتى شجروه . . !!

وكانت بحيرة « الحولة » على حدود سوريا مجموعة من المستنقعات العفنة لا نفع منها ، فإذا اليهود يجففونها ويحرثون أرضها للزراعة . . .

ومررت بأرض « رفح » وهى قاع أملس لا حياة فيه ، فلما وصل إليها اليهود إبان العدوان الثلاثى لم تمض شهور قلائل حتى مدوا مواسير المياه إليها وشرعوا فى تمهيدها للحبوب والفاكهة .

يا غوثاه ، هذه أرضنا فكيف نحيا فوقها هملا ؟ وكيف نتحول عنها ليجىء من يقدرها ، ويجعلها مزدهرة بالحرث والنسل ؟

لمن يقول الله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٥ ، ٦٦] .

هذا الخطاب للناس جميعا دوننا ؟

إننى أضحك دهشا إذْ أرى البقر الهولندى، بل الدجاج الإنجليزى، أفضل من مثيله فى بلادنا ، وإذْ أرى تلفظ مكنوناتها لأحباس الناس فيقتنون منه ويستغنون به، أما نحن فنفتقر إلى المعونات يمدنا بها هؤلاء تارة ، وأولئك تارة أخرى .

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٥٩ .

ما هذا النكر؟ وما هذا العطل ؟ بم اشتغلنا عن هذه الوظائف العمرانية الخطيرة ؟ !

اشتغلنا بفنون من السخافات .

إن غلبة الجهل واتباع الشهوات هما سر ذلك البلاء الحائق » (١) .

وينتقد على المسلمين فرقتهم واشتغالهم بكل ما من شأنه أن يهدم كيانهم ويشتت صفوفهم:

«أنا أستشعر الأسى عندما أرى أخلاقنا أضعف من عدونا، ومسالكنا أردأ، فأنى ننتصر؟

والمسلمون اليوم خمس العالم ، وأرضهم مستنقع لجراثيم الفرقة كلها ، فهم سبعون حزبا بأسهم بينهم شديد ، على حين ترى اليهود ـ وهم عشر معشارهم ـ قد وحَّدوا صفهم ، وقاتلونا جبهة متساندة متعاضدة فنالوا منا وما نلنا منهم شيئا .

وحاصروا المسجد الأقصى ونحن مشغولون بأنفسنا وقضايانا ، فذهبت ريحنا وفُلَّ حدنا . . » (٢) .

فالمسلمون اليوم يقدمون صورة سيئة عن الإسلام ويصدون بأخلاقهم وسلوكاتهم عنه:

«ربما لا تزال جماهير فى أوربا وأمريكا تبحث عن الحق ، وترتاب فيما ورثت، وما يصدها عن الدخول فى الإسلام إلا الحال الزرية التى عليها المسلمون .

فالمسلمون بلا شك صورة سيئة منفرة عن دينهم . . » (٣) .

ويؤكد الغزالى أن ذهاب ريح العرب وانكسار شوكتهم مام أعدائهم ، إنما كان لتركهم دينهم وصدهم عن تعاليمه:

« لقد قامت اليوم دولة لليهود على حساب العرب ، والسبب واضح ،أن اليهود قاتلوا شرا منهم .

قاتلوا العرب ، والعرب معطلون لحدود الله ، مستبيحون لحرماته ، تاركون للواء محمد لا يمشى تحته أحد ، وسائرون تحت ألوية الغدر والعصيان .

فلا عجب أن ينطبق عليهم ما انطبق على غيرهم ، مصداق قوله تعالى فى اليهود

---

(١) نظرات فى القرآن ، م . س ، ص:٧١ ، ٧٢ .

(٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، م . س، ج: ١ ، ص: ١٣٦ .

(٣) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٨٨ .

وكل مارق: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]» (١).

وفى تعليقه على قصة ذى القرنين ، انتقد الغزالى بشدة وضع التخلف الحضارى الذى يعانى منه المسلمون ، فهم أعجز من أن يقدموا لأنفسهم خيرا فى هذا المجال ، بل هم دائما فى وضع المستجدى الأحمق الذى يطلب من عدوه أن يمده بسلاحه :

« إننى عندما أقرأ خبر هذا الرجل ـ أى ذو القرنين ـ أشعر بالحزن ؛ لأن الخبرة الفنية التى أبداها لا تُعرف اليوم بين المسلمين ، لقد انفرد الأجانب بها ، وأمسوا الخبراء المتخصصين فيها .

إن المهارة فى شؤون الحياة صارت لديهم ملكة راسخة .

والغريب أننا بدل أن نتعلم الإبداع فى شؤون الدنيا تعلمنا الابتداع فى شؤون الدين، فأتينا بأمور ما أنزل الله بها من سلطان .

وكان من وراء ذلك فوضى عقلية وخلقية ، أخرتنا فى معاشنا ومعادنا !!»(٢).

كما يستنكر الغزالى من المسلمين مباهاتهم لغيرهم بدينهم ، فى حين لا يعملون به ولا يلتزمون بتعاليمه:

« المباهاة بالأديان لا تجدى أصحابها فتيلا ، المهم هو العمل الصادق والسلوك الراشد .

وفى عصرنا هذا ـ كما يقول محمد عبده ـ يوجد من يتحدث عن الإسلام فيثنى عليه أعظم الثناء ، يقول: أى دين أصْلَحَ إصلاحَه ؟ أى دين أرشَدَ إرشادَه ؟ أى شرع كشرعه فى اكتماله ؟

فإذا سئل الواحد منهم: ماذا فعل للإسلام ؟ وبماذا يمتاز على غيره من أتباع الأديان الأخرى ؟ لا يحير جوابا .

وردعا لقائلين غير فعالين ، يقول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴾ [النساء: ١٢٣].

ومن الفتن المزعجة فى هذه الأيام العجاف أن نرى اليهود متشبثين بشرائعهم الدينية،يلبس أحدهم قلنسوة الصلاة ويمرق لها فى أكثر الميادين زحاما ليؤدى شعيرته.

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ١٢١ ، ١٢٢ . (٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٨٨ .

أمـا المسلمون فأغلب ساستهم لا يحـرص علـى أوقات الصلاة ، إلا مـن عصم الله . . . » [1].

ويؤكد الغزالى أن خروج المسلمين مما هم عليه من هوان ، أمر سائغ وميسور، ولكنه يحتاج إلى البذل والتضحية:

«حالة المسلمين فى هذا العصر رديئة ، والهزائم المادية والمعنوية تحيط بهم ، ولكن الله فتح أمامهم أبواب الآمال عندما قال لهم: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ** ﴾ [النور: ٥٥] .

على أن هذا التمكين يحتاج إلى مقدمات طويلة ، وجهود موصولة ، فإن للقيادة والسيادة مؤهلات لابد من تحصيلها، ويستحيل أن يتحقق لعاطل أمل .

ولننظر ما فعل الرسول وصحبه عندما أرادوا إقامة دولة للإيمان ، لقد مكثوا قرابة ربع قرن يصارعون الوثنية العربية حتى هزموها ، ثم جمعوا بالتوحيد فلول العرب ، ومالوا على الرومان والفرس ميلة واحدة ، فما هى إلا جولات يسيرة حتى أصبح المسلمون الدولة الأولى فى العالم » [2].

فالحل إنما يكمن فى العودة إلى منهج الله ـ عز وجل ـ هذا المنهج الذى يقوم على المزاوجة بين التصديق القلبى بوجود الله ـ عز وجل ـ وقيوميته على الخلق ، والعمل بمقتضى هذا الإيمان فى واقع الحياة:

إذ « لا تعود للمسلمين حضارتهم الأولى إلا بالإيمان والعمل معا .

وأمتنا لابد أن تجمع بين إيمان واضح وعمل صالح ، حتى يُمكَّن لها ، وتستعد لآخرتها » [3] .

كما أن انتصار المسلمين على أعدائهم ممكن أيضا،ولكن بشرط توفير العدة اللازمة:

« انتصار المؤمنين يحتاج إلى أمرين: صدق النية وحسن الأداء ، ولا يغنى أحد الأمرين عن الآخر .

والمسلمون فقراء إلى معرفة الأمر الثانى وتوكيده ، فإن بعضهم يتخيل أن الصلاح وحده يحقق النتيجة المرجوة ، كأن الملائكة ستنزل لجبر القصور فى إعداد المؤمنين للمعركة أو سوء خوضهم لها ، وهذا بعيد .

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص:٦٤ ، ٦٥ . (٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٢٧

(٣) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٥٤ .

ابذل ما لديك كله إيمانا وعملا ، إخلاصا ومهارة ، ثم ارتقب الخير ولو كانت قواك أقل ، فقد بذلت ما تملك ، ولن يخذلك الله بعدئذ »(١).

ويؤكد للمسلمين أن انتمائهم المجرد إلى الدين لن يغنى عنهم فتيلا :

« إن المسلمين لا يشرفهم إلا الإخلاص لله ، والتفانى فى طاعته ، والشجاعة فى نصرته والجراءة على عدوه .

والانتماء المجرد لمحمد عليه الصلاة والسلام ـ وهو أفضل الخلق يقينا ـ لا يغنى عن العاطلين شيئا » (٢).

* * *

٤ـ إبراز مدى خسارة المسلمين ببعدهم عن القرآن :

ولا يكتفى الغزالى بدعوة المسلمين إلى العمل بالقرآن ، وإنما يضيف إلى ذلك وصف الخسارة الفادحة التى حاقت بهم منذ أن تنكروا له وأعرضوا عن العمل به .

ذلك أن العلاقة التى ينبغى أن تربط المسلم بدينه وكتاب ربه هى ـ لا شك ـ علاقة من نوع خاص .

هذه العلاقة يصفها الغزالى ، فيقول:

« إن القرآن الكريم كتاب تدور معانيه على محاور متقاربة وغايات متشابهة . وتوضيح هذا قد تُعنى به التفاسير المطولة ، وإنما نلفت النظر هنا إلى شىء ذى بال: أن الموضوعات الكثيرة التى يستعرضها الكتاب العزيز تتعاون كلها على تكوين عقل مؤمن أو قلب بصير يستطيع الاستقامة فى الدنيا والانتصار على همومها وعقدها. . ذاك ما يصنعه القرآن وهو يصف الكون ، أو حين يروى تاريخ الأولين ، أو حين يعرض مشاهد الحساب والثواب والعقاب، أو حين ينشئ العبادات ويقوِّم الأخلاق ويزجر عن الآثام .

إن هذه القضايا القرآنية تتساوق كلها على بناء إنسان سوى المواهب العقلية والخلقية، مأمون الحكم ، محترم الفطرة ، معتدل المنهج ، محيط بأطراف الدين، مدرك للنسب القائمة بين فروعه وأصوله .

وعلاقة المسلمين بقرآنهم هى أسمى العلاقات وأرسخها ؛ ولذلك يجب أن ندع نفوسنا للقرآن الكريم يشكلها بتوجيهاته وهداياته ، ويضبط اهتمامها بشعب الإيمان، فلا

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٤٠ .　　(٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٧٦ .

يطغى فرع على أصل ، ولا يموت فرع بإزاء أصل» (١) .

ولكن ؛ لأن المسلمين لم يتفاعلوا مع قرآنهم بهذه الطريقة ، ولم يرتبطوا به بهذه العلاقة ، فقد دفعوا الثمن غاليا:

«من غير شك، هناك خلل فى أخذنا من القرآن الكريم، وهذا الخلل سرى حتى فى الأعمال الشخصية المحدودة جدا، فأنت ترى الرجل يتوضأ ويبقى وسخا؛ لماذا ؟ لأنه أَمَرَّ الماء وهو ذاهل ، ما نظف به درنا، وما أزال به وسخا، فكذلك نحن نستمع للآيات دون وعى: ﴿ **فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِين** ﴾ [الروم: ٥٢] .

فلابد من أن يتلاشى هذا الخدر الذى قيد الأفكار وقيد الحواس وقيد الأعضاء، فأصبحنا لا نتحرك بكتاب ربنا كما حرك هذا الكتاب آباءنا » (٢).

ولقد كان من نتيجة هذا الخلل الفاحش فى تعاملنا مع القرآن الكريم ، أن انقلبت حياتنا رأسا على عقب ، وصرنا نسير فى هذه الدنيا على غير هدى:

« إن هناك مؤمنين شردوا عن الصراط المستقيم ، وتجمدت مواهبهم ، وعاشوا غرباء فوق أرض سخرت لهم ، فسُخِّروا فيها ، وبدل أن ينصروا الله بما آتاهم ؛ ارتعشت أصابعهم ، ونكصت أعقابهم ، فتقدم أعداء الله إلى الأمام الخالى فامتلكوه ، وسخروا الدنيا لكفرهم ، وأحرجوا الإيمان فى مواطنه فما يكاد يبين .

والجهاد فى عصرنا: سيادة فى البر والبحر والجو ، وعلم بالكون يرتفق الأرض والسماء وما بينهما ، فما هو حظ المسلمين من ذلك كله ؟

إن الأسى يقهرنى عندما أجد أننا لم نصنع «طيارة» تخترق الفضاء ، ولا «غواصة» تمخر العباب ، ولا « دبابات » يتحرك بها الحديد على الأرض ليدعم الحق وينصر المظلومين .

على حين مهر اليهود فى هذه الفنون ، وانطلقوا هنا وهناك وكأنهم جن سليمان .

والفارق أن جن سليمان كانوا فى قبضة رجل مؤمن يسخر قوته لله، أما يهود اليوم فإنهم جاؤوا لخلع جذور العروبة والإسلام ، وبناء سلطان للطغيان والتمرد على الله .

ما أوسع التفاوت بين ذرية إبراهيم ، فيهم من ذهب بنفسه وتبع هواه وكفر بعيسى

---

(١) علل وأدوية ، م . س ، ص: ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٢) كيف نتعامل مع القرآن ؟ م . س ، ص: ٥٦ .

ومحمد جميعا ، وهؤلاء الآن معهم القوة !

ومنهم من ورث الوحى ولم يحسن الوصاية عليه ، فعاش خاملا مسيئا ، وهم عرب هذه الأيام العجاف!» (١).

والسبب فى ذلك أن المسلمين لم يتخذوا من القرآن منهجا للهداية ، فبدلا من أن يتدبروه ويهتدوا بتعاليمه وقيمه ، راحوا يتخذون منه أداة للعب واللهو :

« القرآن هو القرآن ، لكن ، إلى الآن ، أين المتدبرون ؟! أنا أتأمل الآية فى همس ، وأتأملها وأنا أخافها أحيانا ، وأتأملها دون أن يتحرك لسانى بشىء ، أجد أنه قد نضحت معانى كثيرة منها فى نفسى . . . الناس تنسى هذا كله ، وتتبع النغم من قارئ يشبه المزمار الخنس ، يريد أن يلحن القرآن بصوته ، وانتهى الأمر . أهكذا يُعامل الكتاب ؟! الكتاب لا يُعامل بأن يُحول إلى موسيقى ، الكتاب لا يُعامل بأن يُحول إلى تراتيل دينية . المعاملة التى عُومل بها القرآن من جانب المسلمين معاملة شاذة» (٢).

فـ « المسلمون الآن اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، فهم لا يعكفون على دراساته، ولا يستقصون دلالاته ، ولا يوائمون بين مجتمعهم وبين شرحه المستفيض لرسالة الحياة الصحيحة وواجبات الأحياء فيها .

وفى القرآن من ذلك كله كنوز أهملها المسلمون ، وعاشوا من غيرها سكارى فى دنيا صحا فيها كل جنس ، وتحرك إلى الأمام بقوة .

ولا تحسبن أن من العناية بالقرآن تحفيظه للألوف من العرج والعميان والمساكين وإذاعته على الناس بين الحين والحين، فإن هذا التصرف يدور بين إهانة القرآن، أو الاحترام التافه لتلاوة الحروف وتنغيم السور، وهذا ما لا يساوى فى نظر العقلاء شيئا»(٣) .

ويرجع الغزالى سبب ما يعيشه المسلمون من ضياع وتيه إلى بعدهم عن المنهج الصحيح فى البحث ، الذى يدعوهم إليه القرآن:

« الغريب أن بعض الناس بدل أن يسير فى الأرض فيبحث كيف بدأ الخلق، انتكس على رأسه ورأى أن يبحث فى ذات الخالق يحاول أن يعرف كنهها .

إنه يفر من وظيفته الطبيعية ، ويستر بطالته القبيحة بعمل باطل .

---

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، م . س ، ج: ٢ ، ص: ٤٦ ، ٤٧ .
(٢) كيف نتعامل مع القرآن ؟ م . س ، ص: ١٤٩ ، ١٥٠ .
(٣) نظرات فى القرآن ، م . س ، ص: ١٠٩ .

وقد كان هذا الانتكاس من أسباب غروب الحضارة الإسلامية وانهزامها العالمى»(١).

لقد كانت خسارة المسلمين ـ نتيجة بعدهم عن القرآن ـ فادحة ووخيمة العواقب، تجرعوا ولا يزالون يتجرعون غصصها ، ولا خلاص لهم ولا فلاح ، إلا بعودتهم إليه متدبرين ممتثلين.

* * *

٥ ـ كشف طبيعة الحضارة الحديثة وخطرها على مستقبل الإنسانية:

تبسط الحضارة الغربية الحديثة سلطان سيطرتها على كامل بقاع الأرض تقريبا ، وقد كان المفروض أن تكون هذه الحضارة خادمة لمصلحة الإنسانية ، وسببا لجلب مصالحها العاجلة والآجلة، ولكن الذى حدث أن هذه الحضارة تحولت إلى نقمة على الإنسانية ، فقد حملت فى ركابها الحروب المدمرة ، وأسباب الموت الكثيرة ؛ ولذلك فإن الغزالى ، ورغم اعترافه بما جاءت به هذه الحضارة من أسباب الرفاهية واليسر للإنسانية ، فهو يرى أن حسناتها أقل بكثير من سيئاتها .

وأول ما يعيبه الغزالى على هذه الحضارة ،أنها رغم كشوفها الضخمة ، فهى مبتوتة الصلة بالله ، فيقول:

«الغريب أن الحضارة الحديثة كشفت الكثير من عجائب الكون، وعاينت من آثار العظمة العليا ما يدفع إلى الله دفعا ! ومع ذلك فهى واهية الصلة بالله ،لا تفكر فى لقائه،ولا تنتفع بوحيه،ولا تكترث إلا بضراوتها المادية،وما يرفه معيشتها على ظهر الأرض» (٢) .

وما دامت مبتوتة الصلة بالله ، فهى كذلك مبتوتة الصلة باليوم الآخر ، فهى قد استبعدت ذكر الآخرة من حسابها ، وجعلت التفكير فيها أو الحديث عنها لونا من الخرافة لا يخوض فيه العقلاء أو يخطر لهم ببال:

« القرآن عموما يؤكد أن الوجود الأول الذى نعيش فيه تمهيد لوجود آخر سوف نُبعث فيه ، وأن الذين يعرفون الله هنا سوف يعرفونه هناك .

والحضارة العصرية ترفض ذلك كله.

إن الاستغراق فى عبادة اليوم الحاضر والذهول التام عما وراءه ديدن الحضارة الغربية . . ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ**

---

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن ، م . س ، ج: ٢ ، ص: ١٠ .
(٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٣٣ .

آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧ ، ٨] .

والمنطق المادى يستغرب القرآن الكريم ، أو يستغرب الوحى كله ؛ لأنه مادى لا ينظر إلى السماء أبدا إلا عند التفكير فى غزو الكواكب . . !!إنه كفر شديد الغرور» (١).

ويرى الغزالى أنه لا فرق فى هذا المجال بين الحضارة الحديثة والجاهلية العربية القديمة :

فـ « عبدة الأصنام ، المنطق الحسى كان يسيطر عليهم ، والعمل للدنيا وحدها هو ما يشغلهم ، وهذه أمراض تشبه ما وفدت به الحضارة الحديثة ، فإن الناس فى أوربا وأمريكا ـ وحيث امتدت هذه الحضارة ـ لا يهتمون بالله ولا بلقائه » (٢).

هذه الحضارة تشجع وقوع المعاصى ، بل وتوفر أسباب اقترافها والاشتغال بها والانهماك فيها:

« من المشاهد أن الحضارة المعاصرة تجرأت على المناكر ، ومهدت لها الطرق ، ولم تزل تواقعها حتى استباحتها ، والزنا الآن لا يسمى زنا ، بل يسمى فى أغلب الأحيان حبا أو صداقة .

وقد دُحرجت الأديان عن مكانتها فى التربية ، وفُسح الطريق أمام مذاهب لا إيمان لها ولا شرف ، والجهود الاستعمارية مبذولة كى ينتهى الإسلام إلى هذا المصير » (٣) .

ولذلك فهى تحمل فى ذاتها بذور فنائها؛ لأن المعصية سبب لضياع الفرد وانهيار الجماعة:

« المعصية العابرة لا تدمر المستقبل ، إنها تولد لتموت ، وقد يلحقها من الندم ما يمحو لها كل ذكرى حسنة ، بل ربما كانت « لقاحا » يحصن من الوقوع فى مثيلاتها ، فنفعت من حيث ضرت .

إن المعاصى التى تهلك الأمم هى التى تستقر فى النفس ولا تعبرها ، تستقر فيها لتكون جزءا منها، ولتكون بعدئذ جزءا من المجتمع الكبير ، لعلها تتحول إلى تقليد متبع أو إلى تشريع قائم ، فيكون البعد عنها مستغربا والنهى عنها جريمة .

وتدبر كلام قوم لوط له: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢] ، لقد أمسى التطهر منكرا والتدنس مألوفا .

والحضارات الفاجرة هى التى تهوى إلى هذا الدرك . وقد ظهرت أمارات السقوط

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٧ ، ٨ .
(٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٧ .
(٣) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٢٤ .

على الحضارة المعاصرة فى جوانب شتى . . وأهلها بحاجة إلى من يقول لهم ما جاء فى سورة هود : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:١ـ ٣] » (١).

من المعاصى الخطيرة التى شجعت عليها هذه الحضارة ، بل ووضعت القوانين لإبقائها وحماية مقترفيها ؛ جريمة اللواط ، و « اللواط مرض يظهر مع الإسراف الجنسى والحرمان الجنسى على سواء ، وقد كان أصحابه يتوارون به استخذاء ، حتى جاء الأوربيون والأمريكيون ، فأقروه ، ثم شرعوه » (٢).

وقديما حارب نبى الله لوط عليه السلام هذه الجريمة ودعا قومه إلى الإقلاع عنها ، حتى جاءت هذه الحضارة وأحيت تلك السنة السيئة القديمة:

«هناك من طغت حيوانيتهم فأسرفوا فى الشهوات الجنسية إسرافا منكورا،وشذوا عن سنة الفطرة فى الزواج الشريف،فقال لوط لهم: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ ، ٢٩]

والغريب أن مدنية الغرب سارت فى الطريق نفسه ، حذو النعل بالنعل ، وهى الآن تتعرض لطاعون «الإيدز» ، والسبب أنهم رفضوا الإطار الذى صنعه الإسلام حول الشهوة الجنسية ، وكيف جعل الزواج عبادة . وكيف صنع سدودا أمام المثيرات والمغريات بالحرام » (٣).

وإذا كانت هذه الحضارة قد شرعت جريمة اللواط ، فلا عجب أن تيسر أسباب الزنا والعلاقات الجنسية المحرَّمة بين الرجال والنساء ، وتوفر الوسائل الكافية لنشرها ودفع الناس إليها . كما منعت أيضا تطبيق عقوبة القصاص على القتلة، ورأت فى ذلك تنافيا مع حقوق الإنسان:

« الزنا عملة متداولة فى الحضارة الحديثة ، وهو أفضل من الكبت فى مجال التربية عندهم ، ولا يعاقَب عليه قانونا ما دام بالتراضى، والله يقول: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٢] .

ومع أن قتل النفس جريمة،فالقانون لا يقتل القاتل . . وقد حرمت عقوبة الإعدام

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٩ ، ٢٠ . (٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٥٣ .
(٣) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٥٧ .

فى دول كثيرة . وأدى ذلك إلى شيوع القتل وسفك الدماء الحرام: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا** ﴾ [الإسراء: ٣٣] » (١).

« لقد هززت رأسى عجبا وأنا أسمع كاهن الفاتيكان الأعظم يناشد الناس أن يستعملوا الأغشية الواقية من الإيدز عندما يباشرون العلاقات المحرمة !

أهذه غاية الجهد ؟ أهذا عمل الدين؟» (٢) .

ومن مثالب هذه الحضارة كذلك؛ تشجيع الأولاد على التخلى عن رعاية الوالدين:

«مع عبادة الله وحده يجىء البر بالوالدين، ويدرك المرء قيمة هذه الوصاة عندما يتأمل المجتمعات الغربية، ويرمق ملاجئ العجزة؛ أى الآباء والأمهات عند الكبر. لقد ضاقت بهم بيوتهم، وابتعد عنهم أولادهم، وصاروا إلى هذه المبانى المخصصة لهم حتى يدركهم الموت.

إن الأجيال التى وهبت الحياة للآخرين لم تجد لديهم لمسة وفاء ، إنهم ينطلقون فى الدنيا انطلاق الوحش فى البرية ، حتى إذا ولى شبابهم سكنوا فى مساكن آبائهم بعد أن يخليها منهم الموت . . وهكذا . . لقد صارت الأثرة قانونا . . .

والغريب أن الآباء يربون أولادهم حتى البلوغ ، فإذا جاء سن الرشد فلكل وجهة هو موليها ! ما تجمعهم فى الدنيا إلا أعياد الميلاد ، أو مناسبات خاصة »(٣).

ومن مثالب هذه الحضارة أيضا ؛ تربية الإنسان على عبادة الذات:

« الإنسان عادة حريص على مصلحته ويحسن الجرى وراء حاجته ، لكن هذا السعى قد يتورم ويربو ويسد عليه الآفاق، فلا يعرف إلا ما يريد ، وما يبقى لله مكان فى ضميره ولا فى سلوكه ؛ إنه الأول والآخر .

والحضارة الحديثة صنعت أجيالا من هذا القبيل ارتبطت بهذا التراب ، فلا تبصر وراءه شيئا » (٤).

ومن مثالبها كذلك ؛ التعصب للجنس الأبيض ، الناشئ لديها من الاستكبار الذى يملأ نفوس أبناء هذه الحضارة:

« ذهاب المرء بنفسه رذيلة ، ويزداد السوء إذا ذهبت أمة بنفسها .

والتعصب الجنسى ينشأ من هذا الكبر الأعمى . . وهو من وراء النزعات

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٧٢ .
(٢) م . ن ، ج:٢ ، ص: ١٥٩ .
(٣) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٧١ .
(٤) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٨٣ .

القومية التى شاعت قديما وحديثا بين الناس .

وهذا التعصب كامن فى الجنس الأبيض الذى يسكن أوربا وأمريكا الآن ، تظهره القوة ويخفيه الضعف» (١) .

والحضارة الغربية لم تكتف بإشاعة هذه المثالب فى بلادها ، بل ذهبت تصدرها إلى البلاد الأخرى:

«الغرب الذى يدعى المسيحية يصدر للعالمين تقاليد العرى والتبرج وانتهاك الحرمات، وما أظن تاريخ الدنيا شهد مثل هذا الدنس الذى ينشره هؤلاء الناس ، لقد سميتها فى بعض كتبى حضارة البغى والبغاء .

ووسائل الإعلام المختلفة تتسابق إلى بث الفتنة داخل البيوت ، وتعرض صورا للرقص الغربى المزدوج والرقص الشرقى المفرد ، يفرح بها الشيطان ، وتزلزل الطهر المنشود » (٢).

ولكن مع كل هذا الذى ينتقده الغزالى على هذه الحضارة ، فهو يؤكد أنها حضارة باقية ، لا تزال تنطوى على مقومات البقاء ، ولا مطمع للمسلمين فى التخلص من سيطرتها أو الخروج من دائرة هيمنتها ، إلا إذا أوجدوا البديل الذى يعطى الإنسانية التائهة ما لم تستطع هذه الحضارة أن تعطيه لها ، وغيروا من واقعهم المنحط ، ومعاصيهم الكثيرة التى يتقلبون فيها (٣) .

* * *

٦ ـ الإبانة عن عظمة الشرائع الإلهية وقصور النظم البشرية:

يعانى المسلمون اليوم من مرض خطير ، هو نتيجة طبيعية لوضعيتهم الحضارية التى يعيشونها ، إنه مرض الانبهار بما يأتى من الغرب، والشعور بالحاجة إليه، مع الشعور بأن ما عندهم لا قيمة له، بل يعتبرون أنه سبب تأخرهم عن اللحاق بما وصل إليه الغربيون.

ويعمل الغزالى على تزييف هذا الوهم ، وعلى محاولة إقناع المسلمين بنفاسة ما عندهم ، وأن نجاتهم فى العمل به والتطابق معه:

« الوحى الإلهى هو المصدر الفريد لشرائع العبادات ، وشرائع المواريث ، وشرائع

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٢٢ .
(٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٢٥ .
(٣) انظر : مقال: حضارة باقية حتى يجد خصومها البديل ، ضمن كتابه : الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا ، ص: ٣٠ ـ ٤٣ .

الحدود والقصاص ،لا مكان هنالك لرأى أو قياس أو مصلحة .

وأهل الأديان المتعاقبة يتوارثون هذه الحقيقة ، ولكنهم يحيدون عنها أحيانا لغلبة الأهواء وضعف مبدأ السمع والطاعة .

إن الجرائم التى تقع على الدماء والأموال والأعراض ، خطيرة الآثار ، ولذلك تولى الله سبحانه الحكم فيها ، ولم يتركها لاجتهاد أحد ؛ لأن الناس سوف يتساهلون فى التطبيق الواجب ، ويحتالون باختلاق بدائل لا تسمن ولا تغنى من جوع .

والبشر عندما يسنون قانونا يتصورون أنفسهم مكان الجانى فتخف حدتهم ، وتذهب غيرتهم على الحق ، فإن لم يضعوا أنفسهم مكان الجانى وضعوا أولادهم وأقاربهم ، فكانوا أميل إلى تخفيف العقوبة والرحمة بالمجرمين .

وربما كان للأوضاع الاجتماعية أثرها فى مؤاخذة الضعيف ومسامحة الشريف.

وقد شاع ذلك فى أهل الكتاب الأولين ، قال رسول الله ﷺ: « إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وايم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (١) .

وقد تطورت الأمور بين أهل الكتاب فأهمل حكم القطع وتنوسى عمدا ، وحلت مكانه عقوبات السجن مددا مختلفة مما جعل جرائم السرقة لا حصر لها .

وعُدَّ ذلك عدالة أرقى من عدالة السماء .

وكذلك وقع التغيير فى جرائم شتى،وانتهى الأمر إلى إلغاء الحدود كلها .

وقد تفرست فى أحوال المجتمعات وعواقب هذا التفريط ، فوجدت الخسائر المادية والمعنوية كثيرة ، اختل الأمن وضاعت أموال وأعراض ، وحلت بالأمم كوارث شتى .

ففهمت معنى قول رسول الله ﷺ: «لحدٌّ يقام فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطروا ثلاثين صباحا »(٢) .

وما روى عنه: «أقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ، ولا تأخذكم فى الله

---

(١) رواه البخارى فى الحدود ، باب: إقامة الحدود ، ج: ٨ ، ص: ١٩٩ . ومسلم فى الحدود ، باب: قطع السارق ، رقم: (١٦٨٨) .

(٢) النسائى فى قطع السارق ، باب : الترغيب فى إقامة الحد رقم (٤٥٠٤).

لومة لائم » (١)» (٢).

ويؤكد الغزالى أن سبب البلاوى التى حاقت بالعالم الإسلامى ، إنما كانت نتيجة التشريعات الوضعية التى زرعها الأوربيون عندما اجتاحت جيوشهم الدول الإسلامية ، وبقيت تحكمها لعقود طويلة:

« عندما أغار الأوربيون على العالم الإسلامى ، وأحلوا القوانين الوضعية محل الشرائع الدينية ، شاع فى أرجاء الدنيا فساد عريض .

والأروبيون فى قوانينهم أباحوا الزنا ما دام بالتراضى الحر ، وأباحت أرقى دولهم اللواط .

وأهالوا التراب على شرائع الحدود والقصاص، فلا يتحدث عنها إلا جرىء يتعرض للملام والمؤاخذة . .

والأوربيون فى هذا المضمار يقلدون آباءهم الأولين ، وإن كان فجورهم تجاوز الحدود » (٣).

ويؤكد الغزالى أن أى تشريع لا يقوم على تربية الأفراد على أساس من العقيدة المكينة ، مآله الفشل الذريع:

« التربية الصحيحة على مهاد من العقيدة المكينة ، هى أساس الارتقاء البشرى على اختلاف العصور ، وقد ذكرت سورة آل عمران ذلك فى أولها ، قال تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ [آل عمران: ١٤] .

إن هذه الغرائز لابد منها لقيام الحياة ، فلو لم تكن الغريزة الجنسية ـ مثلا ـ ما اتصلت قوافل الأحياء على ظهر الأرض ، وكذلك سائر الغرائز الأخرى ، والمهم ألا تتجاوز طور الاعتدال ، وألا تضل سواء السبيل .

والإسلام أباح ما يفيد وحرم ما يضر ، وبنى قواعد الحلال والحرام على الإيمان والعمل الصالح، وشرع من عناصر التقوى ما يستبقى العلاقة قوية بالله واليوم الآخر .

وقد استمعت إلى خطاب زعيم كبير يحذر من مرض «الإيدز» ، فرأيته يوصى باستعمال وقاء معين عند المباشرة الحرام ، إنه يائس من العفة فلا يوصى بها لاستحالتها

---

(١) ابن ماجه فى الحدود ، باب : إقامة الحدود ، رقم (٢٥٤٠) ، وفى الزوائد : « هذا إسناد صحيح على شرط ابن حبان ؛ فقد ذكر جميع رواته فى ثقاته ».

(٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، م . س ، ج: ١ ، ص: ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٧٩ .

فى منطقه ، وهى مستحيلة مع فقدان اليقين بالحى القيوم .

وسوف يبقى أتباع الأديان الشكلية يلقون العنت من غرائزهم التى فقدوا السيطرة عليها ، حتى يفهموا قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ. الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ [آل عمران: ١٥ ـ ١٧] » (١) .

ويستغرب الغزالى من هؤلاء الذين يضعون التشريعات الضالة ليحكموا بها حياة الناس ، إعجابهم بهذه التشريعات ، مع أن مآلها فى النهاية معلوم:

« إن كثيرا من المبطلين يعتقد أنه محق ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا** ﴾ [فاطر: ٨] ، بيد أنهم لا يبقون طويلا حتى يحصدوا المر مما غرسوا .

ولمسالك السوء نتائجها القريبة والبعيدة ، وعندما تتكشف يجىء هؤلاء محاولين الاعتذار: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٢] .

والمتعصبون فى عصرنا للقوانين الوضعية يدافعون عنها،ويحسبون أنهم على شىء، وعندما تسود الفتن البلاد وتكثر الجرائم ، عندئذ قد يفكرون ويتراجعون ويعتذرون : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا** ﴾ [النساء: ٦٣] » (٢).

* * *

٧ـ إبراز السنن الإلهية فى الأنفس والمجتمعات والتأكيد على حاجة الأمة الإسلامية إلى فقهها :

تخلف المسلمين وهوانهم بين الأمم ووقوعهم فريسة الاعتداءات الخارجية المختلفة، هو بعض مظاهر جهلهم بمقتضيات سنن الله ـ عز وجل ـ التى وضعها لتحكم حياة الأفراد والأمم والمجتمعات .

وقد كان اهتمام الغزالى بإبراز هذه السنن والتأكيد على أهمية فقهها والتفاعل معها بالتسخير والتطابق ، واضحا بصورة ظاهرة فى تفسيره لكتاب الله ـ عز وجل؛ إذ يؤكد

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٣٣ ، ٣٤ . (٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٥٦ .

أن « الله يحكم عباده بسنن ثابتة لا يغيرها أحد »(١).

وهذه السنن كما حكمت الأمم الأخرى ، فهى تحكم الأمة الإسلامية أيضا ، يقول الشيخ عند تفسيره لسورة الأنعام:

«من أول ما ذكرته السورة من مقررات؛مصير الظلمة مهما طال عليهم الأمد.

إن تكذيبهم للأنبياء يأخذ مراحل متتابعة تبدأ بالإعراض ، ثم بالتكذيب المتجهم، ثم بالاستهزاء المتواصل ، ثم بالعدوان الآثم .

والقدر الحكيم يطاولهم فى هذه الأثناء ابتلاء للمؤمنين والكافرين جميعا .

وهذه طبيعة الحياة الدنيا ، ولكن عقبى الصراع وخيمة على الكافرين .

ومن ثم يقول الله لكفار العرب : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾ [الأنعام : ٦].

هذه مصاير الحضارات عندما تتفسخ ، ومصاير الأمم عندما تستكبر وتطغى ، تبقى على ظهر الأرض حينا ثم تختفى تحتها مخلية المكان لآخرين .

ونسأل: هل هذا شأن الكفر المحض؟ أم القانون عام يشمل مع الكافرين أمما أخرى خلطت الحق بالباطل ، والهوى بالهدى ؟ أو بعبارة أخرى: هل يستوى الذين أعرضوا عن الإيمان كله ، والذين لم يكسبوا فى إيمانهم خيرا ؟

الظاهر من الآيات الواردة فى السورة تشرح هذه القضية؛ أن الكل سواء»(٢).

« إن الأمة الإسلامية لم تُسْتَثْنَ من جملة الأمم الأخرى ، ولم تنل شيئا من المحاباة ، بل قيل لها: إن الجزاء من جنس العمل .

وإذا كانت الأمم البائدة قد جنت ما غرست ، وذاقت ما قدمت ، فإن المسلمين معاملون بالمنطق نفسه: ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس: ١٣ ، ١٤] » (٣).

لذلك ، فحتى تتمكن الأمة الإسلامية من استعادة عافيتها والتخلص من ظلم

---

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٩٥ .
(٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٩٣ .
(٣) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٩ .

أعدائها ، ينبغى عليها أن تغير بالإيمان أحوالَها . ويقرر الغزالى هذه القضية فى شكل سنة عامة ، فيقول:

« إن الأمم المغلوبة على أمرها ، المحجوبة بخواصها عن السيادة والصدارة ، لا تبلغ القمة وهى واهنة الإرادة مختلطة القصد ، لابد أن يغير الإيمان أحوالها ويزودها بطاقات جديدة من اليقين والتجرد والجراءة ، حتى تستطيع أن تقهر خصومها ، وتضع على الأرض طابعا جديدا من العبودية لله ، والإزدراء لشهوات الدنيا .

عندئذ يحكم الله بزوال دول وإقامة أخرى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٥]

فلتفقه هذا الدرس أمتنا الإسلامية التى لا تريد أن تغير نفسها !! » (١) .

ولا يكتفى الغزالى بإبراز أهمية فقه السنن الإلهية فى الأنفس والجماعات فحسب ، بل يشفع ذلك بتقديم نماذج من هذه السنن ، يعرضها من خلال ما قرره الله فى شأنها فى كتابه الكريم ، من ذلك مثلا:

أ ـ سنة انهيار الأمم بسبب الفساد والصد عن سبيل الله:

يستخلص الشيخ من تاريخ بنى إسرائيل ـ كما حكاه القرآن ـ سنة ثابتة تسرى على الأمم الأخرى ، فيقول:

« يشرح القرآن الكريم أن العجز الإدارى والخلقى فى سلطة بلد ما ينتهى بزوال هذه السلطة ، وقدوم آخرين من الخارج، ليتولوا هم الحكم ، ويعاقبوا العابثين ، قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ ، يعنى سجلات العلم الأزلى ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ٤ ، ٥] .

إن الدولة التى تختل أمورها تُحتل أرضها ، وتفقد استقلالها وحريتها .

أوتيت ملكا فلم تحسن سياسته   كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

إن الفساد والاستعلاء لا يُتصوران فى حكم يقوم على الوحى وينتسب إلى السماء؛ ولذلك فإن عقوبة أهله تكون شديدة ، استعمار أجنبى يقوم على الإذلال والاضطهاد ، حتى إذا استقام المعوج وعاد إلى أدبه واصطلح مع ربه عادت إليه مكانته وكرامته: ﴿ ثُمَّ

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٤٤ .

رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ [الإسراء: ٦] .

وليس ما يقع مكافأة أنهت المأساة . إنه اختبار جديد ، وعلى الشعوب أن تعى وترعوى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧]» (١).

وكما ينتج الانهيار عن الفساد ، فإنه ينتج قبل ذلك عن التخلى عن تعاليم الله والصد عنها ورميها وراء الظهور، من ذلك ما أورده الغزالى عند تفسيره لسورة الأعراف:

« القضية الثانية التى افتتحت بها السورة ، تُدرك من قوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ . فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤، ٥] .

وهلاك القرى التى تمردت على المرسلين ، سنة وعاها التاريخ» (٢).

وفى تفسيره لسورة الأنفال يقول تعليقا على قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠ ، ٥١] .

« سير الطغاة متشابهة ومصايرهم واحدة: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٥٢] .

إن العصور تختلف ، ولكن سنة الله واحدة فى الأولين والآخرين» (٣).

ب ـ سنة التدرج:

مشكلة الكثيرين من المسلمين اليوم، استعجالهم نتائج الأعمال؛ فما يكادون يبدؤون عملا حتى يطلبوا نتائجه قبل إتمامهم له، مما يؤدى إلى توقف العمل وضياع نتيجته فى آن واحد ، والغزالى ينبه إلى أن الآجال فى الأعمال سنة من سنن الله ـ عز وجل ـ فى الكون والحياة ، يقول فى هذا الصدد:

«من تجاوُز الحق ومتابعة الوهم أن تزرع فى الصباح وتنتظر الحصاد فى الأصيل؛ إن لكل شىء أوانا يتم فيه ، رضى المرء أم سخط .

والإنسان لا يشب فى يوم ، والحضارة لا تزدهر فى شهر ، والنتائج تتحقق وفق قوانين مضبوطة تتم مع كر الغداة ومر العشى .

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص:٦٧ . (٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ١١٠ .
(٣) م . ن . ، ج: ١ ، ص: ١٣٦ .

ومهما دعا المؤمن فلابد من الصبر على سنن الله الكونية: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء:١١] .

ورعاية للزمان وخضوعا له ، جاء الحديث عنه فى الآية اللاحقة: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٢] » (١) .

جـ ـ سنة التدافع:

ونعنى بالتدافع : الصراع الذى ينشأ بين الطوائف المختلفة للمجتمع البشرى ، ويدفع بها إلى التنازع والتصارع من أجل إثبات الذات ، والانتصار على الآخر ، للاستحواذ على دوائر النفوذ .

هذا الصراع يعتبره الغزالى سنة ، باعتبار أن الصراع الذى ينشأ بين الحق والباطل ، هو جزء من هذا التدافع العام ، وإن كان أهم أجزائه ، ويستخلص الغزالى هذه السنة من القرآن ، فيقول:

«حينما أتأمل فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١] ، أشعر بأمرين:

الأمر الأول : أن الاختبار الإلهى ليست له صورة محددة ، فصوره كثيرة متعددة، وعلى الإنسان أن يكون على استعداد دائم لكى يتحمل تبعات الدفاع عن معتقده وعن سيرته ومسلكه وقيمه . . . لكن كيف سيكون لون هذا الاختبار ؟ لا ندرى .

الأمر الثانى: أن هذا التدافع هو طبيعة الحياة الفردية والاجتماعية ، بمعنى أنه فى داخل الجسم البشرى ، تفرض المناعة نفسها عندما تدخل جراثيم غازية ويبدأ القتال حتى يبقى الجسم حيا.

الحياة الإنسانية لابد فيها من هذا التدافع ، هذا اللون من التدافع ،ربما تنشط أجهزة الإيمان وتتحرك فيه قواه الداخلية ـ إذا كانت فاترة ـ عندما يشعر بالتحدى ، ويكون هذا سببا فى إمداده بحياة جديدة ، وهنا سنن الله الكونية التى يجب أن يخضع لها المؤمنون والكافرون : أن الحياة فيها هذا التصادم المستمر بين قوى ومبادئ مختلفة . . . وهكذا الحياة ، يحاول الكفر أن يفرض نفسه ، فتنشط قوى الإيمان لكى تبقى ، فيبقى الإيمان

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٦٩ ، ٧٠ .

بعد أن نمت قواه بضغط الكافرين عليه: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

هذا التدافع الحضارى ، جزء من الاختبار الإلهى، وجزء من تمكين الخير من أن تزداد صلابته فى مواجهة الشر» [١] .

د ـ سنة انتصار الحق على الباطل:

ونتيجة لسنة التدافع هذه ، فقد كانت المعركة بين الحق والباطل قديمة قدم تاريخ الإنسانية ، وستظل هذه المعركة مشتعلة متأججة الأوار حتى يأذن الله بنهاية الحياة على هذه الأرض ؛ ولذلك فالواجب على أهل الحق أن يعدوا العدة لمواجهة الباطل ؛ لأن المعركة مفروضة عليهم بالرغم منهم ، وعليهم أن يصبروا على النتائج ولا يستعجلوها ؛ لأن المعركة طويلة لا ترتبط بحياة الأفراد الذين هم وقود هذه المعركة ، وإنما ترتبط بوجود كل من الحق والباطل فى هذه الحياة ، وهي معركة منتهية لا محالة بانتصار الحق لأنه حق ، على الباطل لأنه باطل:

« فى المعركة الأزلية بين الحق والباطل ، سيشعر بالضيم مستضعفون ومهزومون، وسيقولون لقاهريهم: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ [إبراهيم: ١٢] ، والظلم مرتعه وخيم .

« وقد يعجل الله بعقوبته فى الدنيا ،ومهما تخلف الجزاء ، فالقصاص حق: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾[إبراهيم:٤٢].

وقد تبين لنا من استقراء التاريخ أن كيد الكافرين شديد ، وأن مكرهم سيئ ، وأن الخطط التى يرسمونها لضرب الحق خبيثة ماكرة . على أن ذلك كله لن يغير النتائج المقدورة: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٦ ، ٤٧] »[٢].

ويبين الغزالى أن الواجب على أصحاب الحق هو تبليغه والدفاع عنه ، وألا يجعلوا همهم تحقيق النصر ورؤيته فى الواقع ؛ لأن ذلك مقرون بحكمة الله ، يظهر نصره متى شاء:

« البلاء المقرون بالحياة البشرية منذ نشأتها بلاء معقد صعب ، فإنه ما قام داع للحق والخير إلا انتصب أمامه دعاة للباطل والشر يريدون إبطال سعيه،وتعويق خطوه ،وتظل

(١) كيف نتعامل مع القرآن ، م . س ، ص: ١٢٨ . (٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٤٧ .

الحرب بينهما أمدا يستفرغ الجهد .

وقد يأذن القدر فى هذه الحرب بهزيمة الحق ـ لحكمة عليا ـ فترى مساجد تحولت إلى متاحف أو مخازن أو اصطبلات .

وفى عصرنا هذا هدم الهنادك مسجد « بابرى » بالهند. قالوا: إنه موضع ولادة إله لهم اسمه «مايا» ، ويبدو أنه إله حديث الولادة .

وقد قُتل مسلمون كثيرون وهم يدافعون عن المسجد ليبقى نداء التوحيد يعلو قبابه ومحاريبه، لقد ذهبوا شهداء ، ولا تزال المعركة محتدمة ، والمستقبل غيب ، ولكن على المسلمين أن يثابروا ويصابروا ، فإن الكلمة الأخيرة لهم ، وليسمعوا مواساة الله لنبيه: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ . وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤] .

ثم تمتد المواساة لتكشف أن للزمن حسابا آخر عند الله ، فقد يشهد جيلٌ الهزيمة ، ثم بعد أعصار يشهد جيل آخر النصر : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧] » (١) .

ويعتبر الغزالى أن هذه السنن « لها دقة القوانين العلمية ، التى تسمح بجرى السفن فى البحار، ودوران الآلات فى المصانع»(٢)، و«دراستها حياة ونماء للعقائد والأخلاق . . . والعكوف عليها أجدى ، ذلك أنها حقائق، والمقابل لها أباطيل»(٣).

* * *

٨ ـ إبراز خصائص الأسلوب القرآنى ووجوه الإفادة منه:

مما اهتم به الغزالى أيضا فى تفسيره ، العناية بإبراز خصائص الأسلوب القرآنى وسبل الإفادة منه فى التربية والتوجيه والإعداد .

فيقرر أن « الأسلوب القرآنى يقلِّب بين الرغبة والرهبة ، والخوف والرجاء ، حتى لا نطيش أو نطغى» (٤) .

ويؤكد أن القرآن الكريم يتضمن خلاصات روحية ، من شأنها تربية النفس الإنسانية وتوجيهها إلى الخير فى الدنيا والآخرة ، وأن أسلوب القرآن فى إثبات هذه

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ،ص: ١١٣ ، ١١٤ . (٢) سر تخلف العرب والمسلمين ، م . س ، ص: ٣٠ .
(٣) م . ن ، ص: ٣٢ .
(٤) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، م . س ، ج:١ ، ص: ٩٥ .

الخلاصات وإدخالها إلى شغاف النفوس أسلوب لا يضاهيه أسلوب آخر مطلقا :

« فى القرآن الكريم خلاصات روحية فعالة تثير الحياة فى الضمائر ، وتقيم حواجز معينة حول السلوك الإنسانى كى لا يشرد أو يزيغ .

وقوام هذه الخلاصات دعم قوى الخير وكبح وساوس الشر بوسائل الترغيب والترهيب والتربية والتوجيه .

والقرآن فى هذه الخلاصات يستهدف إيقاظ النفس وبعث ملكتها العليا ، ولا يعتمد على الإكثار من الحوادث العارضة ثم البت فيها بحكم الله.

بل إن هذه الأحكام المحدودة توجد فى القرآن الكريم كما توجد الجزر المتناثرة فى بحر محيط ، ذلك أن القرآن الكريم يركز اهتمامه فى ربط المرء بالله على أساس بارز من توحيده وتقواه والاستعداد للقائه.

وهذه المعانى هى ضمانات الكمال على اختلاف العصور والأجيال .

ويلاحظ أن أسلوب القرآن فى هذا المجال يشفى العامة ويشفى الخاصة ، فظاهره القريب يهدى الجماهير الساذجة ، وباطنه العميق يشبع نهم الفلاسفة إلى مزيد من الحكمة والفكر . . .

ثم إن مرونته اللفظية تجعله واسع الدلالة، أعنى سعة الورد الذى تزدحم عليه الوفود ثم تصدر عنه وهى ريانة راضية. وليست السعة التى تتحمل النقائض أو تخلق الريب .

وهذه المرونة من أسباب خلود القرآن ، فإن الأساليب العربية طوال أربعة عشر قرنا عراها كثير من التغيير والتلوين اللفظى والذهنى ، ومع ذلك فإنه بقى ممتازا بخصائصه وخلاصاته الآنفة ، يبلى الأسلوب فى عصر ما وكان مزدهرا فى عصر سبق ، أما القرآن فإن أسلوبه ظل جديدا رائع الأثر على ترامى الأجيال إلى هذه الأيام »(١) .

ويؤكد الغزالى أن التأثير العميق والدوى الهائل الذى أحدثه نزول القرآن فى البيئة العربية ، كان نتيجة منطقية لهذه الخصائص التى تجمل بها ، فيقول:

« نجاح الدعاية النفسية والفكرية التى أحدثها القرآن هو الذى قذف بالوهن فى قلوب خصومه، فحاربوه وفى نفوسهم ريبة من موقفهم ، وشك فى قضاياهم ، بل إن الألوف خاصموا الإسلام، وهم يخفون فى طواياهم احترام حقيقته، وتصديق رسالته .

---

(١) نظرات فى القرآن ، م . س ، ص: ١٨٠ ، ١٨١ .

ذلك أن الأدلة التى بسطها القرآن الكريم والأساليب التى ساقها، حسمت جميع الشُّبه التى يمكن أن تهجس فى النفس، وجعلت دعوته عالية لا تُنال. وليس أنجح لدعاية من أن خصمها يحس فى أعماق ضميره أنه مبطل فى جفائها ، وليس أنجح لدعاية من أنها تبلغ فى التأثير على عدوها درجة تفرق بين المرء ونفسه» (١).

ويصف الغزالى أسلوب القرآن النازل فى مكة ، فيقول :

« عندى أن الأسلوب المكى الذى اتجه أول ما اتجه إلى الوثنيين قدير على تحريك العقل ، وإشعال الفكر الخامد ، ودفع الناس بقوة إلى ربهم ، والاعتماد عليه يصلح عند مخاطبة العلمانيين والماديين وأحزاب الملاحدة الأخرى» (٢).

ويتحدث الغزالى عن منهج القرآن فى بناء النفس الإنسانية وقيادتها إلى الله، فيقول:

« إذا كانت المعجزة تورث أصحابها ـ الذين رأوها ـ يقينا ، فإن هذا القرآن لا يزال يصنع اليقين ، ويؤكد أن الإسلام هو الحق الفذ إلى يوم الدين .

ووسيلة القرآن فى هذا أنه يقول للإنسان :لست إنسانا إلا بعقلك، ولست إنسانا إلا بخلقك، ومهمة هذا القرآن أن يفتح عقلك فلا يُظلم، وأن يفتح قلبك فلا يُسِفَّ ويهبط.

كتابنا جاء ليفجر الطاقة الإنسانية فى الناس ، وليصحح نظرتهم إلى الأمور ، وليجعل لهم منطقا سديدا يعرفون به الحق ، ويبتعدون به عن الظنون والأوهام ، ثم هو دين يقوم على تصحيح القلب الإنسانى ، وإبعاد الشهوات عنه ، وما يتم ذلك إلا بأنواع من الرغبة والرهبة ، والخوف والرجاء ، والوعد والوعيد » (٣).

والواجب على المسلمين وأهل الذكر منهم خاصة أن يتدبروا هذا القرآن ، ويفتشوا فيه عن السبل التى يعيدون بها بناء حياتهم وتغيير ما بأنفسهم ، حتى يستفيدوا من هذا القرآن ويتحققوا بما ينطوى عليه من تعاليم وأحكام:

«لابد من قراءة القرآن الكريم قراءة متدبرة واعية تفهم الجملة فهما دقيقا، ويبذل كل امرئ ما يستطيع لوعى معناها وإدراك مقاصدها، فإن عزَّ عليه سأل أهل الذكر. . والمدارسة للقرآن مطلوبة باستمرار . . ومعنى مدارسة القرآن: القراءة والفهم والتدبر والتبيُّن لسنن الله فى الأنفس والآفاق ومقومات الشهود الحضارى، ومعرفة الوصايا والأحكام، وأنواع

---

(١) م.ن ، ص : ١٦، ١٧ .

(٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن ، ج: ٢ ، ص: ٧ .

(٣) خطب الشيخ الغزالى فى شؤون الدين والحياة ، م . س ، ج:٣ ، ص: ٦٩ .

الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، وما إلى ذلك مما يحتاج المسلمون إليه لاستئناف دورهم المفقود »[1].

* * *

٩ـ الرد على المستشرقين فيما يفترونه على الإسلام والقرآن :

إن الغزالى، وهو يفسر كلام الله ـ عز وجل ـ ويشرح مراده منه، يعمل ما وسعه على أن يكون المعنى المفهوم من النص القرآنى، متطابقا مع مألوف العرب فى الخطاب، ومتناغما مع واقع المجتمع الذى نزل فيه القرآن والمشكلات الحضارية والاجتماعية التى عالجها .

ولذلك نجده يحمل حملات شعواء على بعض الفهوم التى يحاول المستشرقون إدخالها فى ميدان التفسير ، بغرض التشويش على النص القرآنى والحيلولة بين قارئه وبين الفهم الصحيح له .

من ذلك ما أورده فى تفسيره لسورة يونس ، حين قال:

«من المضحك أن أحد سماسرة الفكر الاستشراقى، زعم أن الأسلوب المكى عاطفى، وأن المدنى عقلانى؛ لأنه تأثر بالجو العلمى عند أهل الكتاب. فلما أراد الاستدلال على المنطق العلمى للقرآن المدنى جاء بآية مما نزل بمكة، جاء بقوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾[الأنبياء: ٢٢]، فانظر إلى هذا الطمس»[2].

كما يستنكر الغزالى قول بعض المستشرقين بأن القرآن مأخوذ من المواريث الدينية التى آلت إلى اليهود والنصارى ؛ مستهدفين من وراء ذلك التشويش على صحة نزول الوحى على رسول الله ﷺ ، فيقول:

« لقد انفرد القرآن بنسق لم يُعهد فى غيره من الكتب ، فكيف يزعم زاعم أنه مأخوذ مما قيل من قبل ؟ إن الأقوى لا يأخذ من الأضعف، والمكثر لا يأخذ من المقل ، وقارون لا يأخذ ماله من بائع خبز فى دكان مهجور .

والمستشرقون الذين يرددون هذا اللغو يهرفون بما لا يعرفون، ويبعثوننا على السخرية منهم » [3].

* * *

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن ، م . س ، ص: ٢٨ .

(٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن ، م. س ، ج: ٢ ، ص: ٧ .

(٣) م . ن ، ج:٢ ، ص: ٦٤ .

١٠ـ تصحيح بعض الآراء الشائعة فى الفكر الإسلامى :

وكما يرد الغزالى على المستشرقين، ويكشف دعاويهم وافتراءاتهم، فهو أيضا يحاول تصحيح بعض الآراء الشائعة فى علوم الفقه والتفسير وغيرها من علوم الشريعة ، حيث يحاول أن يقدم بعض الاجتهادات فى هذا الميدان ، ربما يخالف بها جمهور العلماء .

من ذلك ما أورده فى تفسيره لسورة النساء، حيث ساق قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾[النساء: ١٠١] ، حيث علق عليها بقوله:

« الظاهر أن هذه الآية وما بعدها فى صلاة الخوف؛ أى عند الاشتباك مع الأعداء ، أما القصر فى السفر فحكمه مقرر من نصوص أخرى ، ويمكن فى علم الفقه الوقوف على الأحكام الكثيرة الخاصة بالموضوع .

وقد فصلت الآية التالية حكم الصلاة فى أثناء الحروب: ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُم...** ﴾ [النساء: ١٠٢].

وجمهور الفقهاء على أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الإمام ، وأن المسلمين يصلون خلفه بالتتابع .

والذى أميل إليه: أن هذا الحكم خاص بالرسول وصحابته ، فليس من السائغ أن يؤم المسلمين أحد وهو موجود . . . أما فى هذا العصر مثلا فإن تعدد الأئمة سهل ، وقد اختلفت أساليب القتال ، ومن الممكن أن تتعدد الجماعات والقيادات دون خوف على دين أو دنيا »(١).

ومن ذلك أيضا ،اعتراضه على الرأى السائد بأن سورة الرعد مدنية ، حيث قرر أنها مكية بالنظر إلى موضوعها ومضمونها الذى يدل على أنها نزلت فى مكة لا فى المدينة ، يقول:

« الرأى السائد أن سورة الرعد مدنية نزلت بعد سورة محمد ، والذى أميل إليه أنها مكية ، وأسلوبها يرجح ما أرى ، لاسيما والمشركون يلحّون فيها على طلب معجزة حسية مثل ما حكت سورة الأنعام ويونس والإسراء » (٢).

ومن ذلك أيضا: رأيه فى المقصود بقوم «يأجوج ومأجوج » المذكورين فى سورة

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٦٢ ، ٦٣ .   (٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٣٨ .

الكهف ، حيث انتقد رأى المفسرين القائلين بأنهم المغول والتتار الذين دمروا الخلافة الإسلامية فى بغداد ، يقول:

« يبدو أن التقطع بين أتباع الرسل سوف يبقى حتى يظهر جنس همجى من شرق العالم لم يحمل يوما ما رسالة سماوية ، فيجتاح الدنيا ويهزم من يعترضه: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [الأنبياء: ٩٦ ، ٩٧] .

والذى يظهر لى أن هؤلاء من الصين وشرق آسيا عامة . ومن المفسرين من يقول: إنهم المغول والتتار الذين أسقطوا دولة الإسلام فى بغداد، وداسوا الشعوب من سبعة قرون تقريبا،وليس هذا بمقبول،فالسياق يدل على أن يأجوج ومأجوج من الفتن التى تظهر بين يدى الساعة، وأنهم من أشراطها القريبة جدا»[١] .

والنماذج من هذا القبيل كثيرة فى تفسير الشيخ ، وفى سائر بحوثه ودراساته .

* * *

تلك ـ إذن ـ أهم الاهتمامات والغايات التى شكلت الرصيد الفكرى والنظرى للشيخ الغزالى وهو يفسر كتاب الله ـ عز وجل ـ تفسيرا موضوعيا .

وربما تكون هناك اهتمامات وغايات أخرى ، وهى موجودة ولا شك ، ولا ضيْر فى ذلك ، ولكن الذى بدا لنا أن الاهتمامات والغايات التى ذكرناها هى أهم ما يميز فكر الشيخ الغزالى ، ويطغى على أبحاثه ودراساته المختلفة ، التى يُعتبر تفسيره خلاصتها والجامع لسائر عناصرها .

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٠٧ .

الفصل السادس

الوسائل والأدوات

الوسائل والأدوات

«لكل مفسر وسائل يستخدمها فى تفسيره، والذى يحدد هذه الوسائل هو «شخصية» المفسر ونوع ثقافته، واتجاهه الفكرى ، والمدرسة التفسيرية التى يتبعها، وطبيعة تفسيره ، وهدفه الذى يرجوه منه . وهذه الوسائل ضرورية لكل مفسر ، ولا يخلو منها تفسير فى القديم والحديث ، وملاحظة هذه الوسائل وتحديدها يساعد على التعرف على منهج المفسر وطريقته فى التفسير» (١) .

والشيخ الغزالى ، كأى مفسر آخر ، كانت له وسائله التى استخدمها ووظفها فى تفسيره ، وهذه الوسائل تعود فى عمومها إلى الروافد والأصول الثقافية والفكرية التى رفدت التوجه الموضوعى فى التفسير عنده .

ولا يمكننا هنا أن نلم بعناصر ثقافة الغزالى ورصيده المعرفى الضخم الذى بناه خلال أزيد من سبعين سنة من حياته المديدة ، وإنما نكتفى بأن نقول:

لقد توفر الغزالى على ثقافة عميقة فى مختلف العلوم ، والإسلامية منها خاصة ، وهذه الثقافة الواسعة أفادته كثيرا وهو يفسر القرآن الكريم . وقد اكتسب الغزالى هذه الثقافة من طبيعة تكوينه الأزهرى فى كلية أصول الدين ، ومن قراءاته المستمرة لما ينتجه الفكر الإنسانى من معلومات وأفكار:

« تخرج الشيخ فى كلية أصول الدين، وهى كلية الثقافة الإسلامية المتنوعة: التفسير والحديث والعقيدة، والملل والنحل، والمنطق والفلسفة، والتصوف وعلم النفس، والتاريخ وأصول الفقه. وكان الشيخ أزهريا متمكنا متفوقا، وأكد ذلك بدراسته فى تخصص الدعوة والإرشاد، ثم أضاف إلى ذلك قراءته الخاصة ـ طوال حياته ـ فى مختلف حقول المعارف .

وإلى جوار هذه الثقافة الدينية والإنسانية الأصيلة ، نجد ثقافة أدبية ولغوية عميقة، أساسها دراسة الشيخ الأزهرية ، ثم قراءاته الحرة المستمرة » (٢) .

هذه الثقافة الواسعة والعميقة والمتنوعة ، وظفها الغزالى كثيرا فى تفسيره ، واتخذ منها وسيلة إلى الإبانة عن المراد الإلهى فى كتابه الكريم .

---

(١) د/ صلاح عبد الفتاح الخالدى: مدخل إلى ظلال القرآن ، شركة شهاب، الجزائر، بدون تاريخ، ص: ١٨١ .

(٢) د/ يوسف القرضاوى ؛ الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ٨٠ .

ومن أهم الوسائل الثقافية التى استخدمها الغزالى فى تفسيره:

١ـ تفسير القرآن بالقرآن:

اهتم الغزالى بتفسير الآيات القرآنية بعضها ببعض ، حيث كان يستكمل المعنى الذى تدل عليه آية ما بالاستشهاد بما يكمل هذا المعنى من الآيات القرآنية الأخرى . وهذا واضح فى التفسير الموضوعى للموضوع ؛ إذ هو ليس سوى جمع للآيات المتعلقة بالموضوع الواحد وتفسير بعضها ببعض.

أما فى التفسير الموضوعى للسورة القرآنية ، فقد طبق الغزالى هذا المنهج أيضا، حيث كان يستدل للمعنى الذى تتضمنه الآية بالآيات الأخرى التى تتضمن نفس المعنى .

من ذلك قوله فى بداية تفسيره لسورة الأنفال ، متحدثا عن خصال الإيمان التى أشارت إليها السورة فى بدايتها:

« بدأت السورة فقطعت تعلق المسلمين بالغنائم ، وجعلت توزيعها لله ورسوله. فلا معنى للدعوى ولا للنزاع فى خير ساقه الله إلى طائفة من عباده: ﴿ **وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٧] .

وكان الاهتمام الأول لإظهار أن الرجولة مواقف ، وأن للإيمان أمارات تبعث على سيَر معينة: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤] .

تأمل فى آيات الإيمان هنا . . .إنها ذكر ووجل وقراءة وتوكل ونفقة .

لكننا فى آخر السورة، نجد أن للإيمان الحق أمارات أخرى، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾[الأنفال: ٧٤]، إنه هجرة ،وجهاد وإيواء ونصرة ، هذا هو الإيمان الحق .

وفى سورة أخرى يقول تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات: ١٥].

هنا تنويه باليقين الذى لا يتزلزل والإنفاق الذى لا ينقطع،إنه الجهد بالنفس والنفيس.

وفى سورة أخرى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ** ﴾ [النور: ٦٢] .

ظاهر من هذه التعريفات الكثيرة أن الرجولة مواقف شتى لا موقف واحد ، وأن للإيمان مطالب مفروضة تتباين بتباين الأحوال والأوقات . . . وأنه لا يجوز أن يتخلف مطلب فى حينه ومناسبته . . . وأن المسلمين إذا قيل لهم: دعوا أمر الغنائم الآن فسوف يحكم الله فيها ، وجب أن يستجيبوا ، فمصلحتهم فى الاستسلام لأمر الله » [1].

٢ـ تفسير القرآن بالسنة :

استشهد الغزالى كثيرا بالسنة النبوية فى تفسير القرآن الكريم ، من ذلك ما أورده فى تفسير سورة الفاتحة ، حين قال:

« هذه السورة فرض الله قراءتها فى جميع الصلوات ؛ لتكون مناجاة متجددة مقبولة بين الناس ورب الناس ، فهى حقائق علمية ، وهى فى الوقت نفسه ضراعة عبد ينشد رضا مولاه » [2] .

حيث ساق فى هذا الصدد الحديث القدسى المشهور:

«قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾، قال الله: حمدنى عبدى. وإذا قال: ﴿ **الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾، قال الله: أثنى على عبدى . وإذا قال: ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ ، قال الله: مجدنى عبدى ، أو فوض إلى عبدى . فإذا قال: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ، قال الله: هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل . فإذا قال: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾ قال الله: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل» [3] .

وعند حديثه عن تأكيد القرآن على حسن عشرة النساء فى سورة النساء ، أورد من السنة حديثين يوصيان بالمعنى ذاته ، وهما:

ما روته عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: « إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » [4].

وما رواه ابن عباس رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قال: « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى »[5] .

---

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، م . س ، ج: ١ ، ص: ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٨ .

(٣) مالك فى الموطأ (١/ ٨٤ ، ٨٥)،ومسلم فى الصلاة ،باب:وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة،رقم(٣٩٥) .

(٤) ابن أبى شيبة فى المصنف (٨/ ٥١٥) ، وأخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠) عن أبى هريرة، والترمذى فى الرضاع، باب: ما جاء فى حق المرأة على زوجها ، رقم (١١٦٢) .

(٥) الدارمى (٢/ ١٥٩) ،والترمذى فى المناقب، باب : فضل أزواج النبى ﷺ رقم (٣٨٩٥) عن عائشة رضي الله عنها .

ومن ذلك أيضا ما أورده عند تفسيره لسورة المائدة ، حيث أبرز ما يترتب على ترك إقامة الحدود من آثار خطيرة على الفرد والمجتمع ، ثم عقب على ذلك بالاستشهاد بالسنة النبوية لكلامه ، فقال :

« وقد تفرست فى أحوال المجتمعات، وعواقب هذا التفريط، فوجدت الخسائر المادية والمعنوية كثيرة ؛ اختل الأمن، وضاعت أموال وأعراض، وحلت بالأمم كوارث شتى .

ففهمت معنى قول رسول الله ﷺ : « لحد يقام فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطروا ثلاثين صباحا » (١) .

وما روى عنه: « أقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ، ولا تأخذنكم فى الله لومة لائم » (٢) » (٣) .

وقبل ذلك استشهد للمعنى ذاته بقول النبى ﷺ: « إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(٤) .

ومن ذلك أيضا، ما أورده فى تفسير سورة الكهف ، عند الحديث عن صاحب الجنة الذى اغتر بماله ودنياه ، فكفر بالله ، حيث قال:

«إن الله لم يحرم اليسار والغنى على عباده الصالحين ليختص بهما العباد المجرمين. وهو لم يغضب على صاحب الجنة المغرور إن كانت له جنة أو جنان ، إنما غضب عليه لأنه كان ذا فكر سخيف ومنطق غبى .

ما معنى أن يقول : ﴿ **مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا** ﴾ [الكهف: ٣٥ ، ٣٦]، لماذا؟ مكافأة على الكفر والتطاول على الله؟ إن هذا الأحمق جدير أن يكون حطب النار فى الآخرة، كما هو جدير بالحرمان فى الدنيا.

وعلى ضوء هذا نفهم التعليق الإلهى على هذه القصة: ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا** ﴾ [الكهف: ٤٦].

---

(١) النسائى فى قطع السارق ، باب : الترغيب فى إقامة الحد ، رقم (٤٥٠٤) .

(٢) ابن ماجه فى الحدود ، باب : إقامة الحدود ، رقم (٢٥٤٠)، وفى الزوائد : « هذا إسناد صحيح على شرط ابن حبان ، فقد ذكر جميع رواته فى ثقاته ».

(٣) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ١ ، ص: ٧٩ .

(٤) البخارى فى الحدود ، باب : إقامة الحدود (٨ / ١٩٩) ، ومسلم فى الحدود ، باب : قطع السارق ، رقم: (١٦٨٨) .

إن المال والبنين، كما يكونان زينة الحياة الدنيا،يكونان عُدَّة النصر فى معركة التحرير والشرف ، كما قال تعالى لبنى إسرائيل حين نصرهم على عدوهم : ﴿ **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً** ﴾ [الإسراء: ٦] ، وفى الحديث: « نعم المال الصالح للعبد الصالح » (١).

ونحن ينبغى أن نفهم المرويات فى ذم الدنيا وألا نتجاوز بها حدودها .

ومن ذلك الحديث الرقيق الذى يعين على العفة والعزة ،قال رسول الله ﷺ: « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يمسى إلا فقيرا . وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب العباد تنقاد إليه بالود والرحمة . وكان الله بكل خير إليه أسرع » (٢) .

إن هذا الحديث شفاء من جنون الشره ، وعبادة الحياة،والتعلق بالحطام ، ولا يصد عن غنى يجىء مع التماسك والأدب » (٣).

ومن ذلك أيضا ما أورده بصدد تفسير سورة المؤمنون،حين تحدث عن المصير الذى آلت إليه قريش إثر كفرها بالله وصدها عن سبيله ، حيث قال:

«إيلام المرء قد يكون تطهيرا له ورفع درجة ، ويقع ذلك للصالحين والمجاهدين وأمثالهم ، كما جاء فى الحديث: « لا يصيب المسلم من هم ولا غم ولا وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفَّر الله بها من خطاياه » (٤).

وقد يكون الإيلام تأديبا وتهذيبا وردا إلى حالة الاعتدال التى يتجاوزها المخطىء. فإن للقوة صولة وللثروة طغيانا .

وقد يتطاول المرء فوق قدره ؛ لأن الرزق بسط له ، أو لأن جاهه اتسع .

وقد كانت قريش شديدة الكبر على الحق ؛ لأن رغد العيش أبطرها حتى دعا الرسول عليها: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف» (٥)؛ أى سبع سنوات عجاف.

---

(١) الإمام أحمد (٤/ ٢٠٢) عن عمرو بن العاص .

(٢) الترمذى ، فى صفة القيامة ، رقم (٢٤٦٥) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ٢ ، ص: ٨٣ ، ٨٤.

(٤) الإمام أحمد (٢/ ٢٣٥) ، (٣/ ١٨ ، ١٩) ، والبخارى فى المرضى ، باب: ما جاء فى كفارة المرض، رقم (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) .

(٥) أخرجه البخارى فى الاستسقاء ، باب: دعاء النبى ﷺ : «اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » رقم (١٠٠٧)، ومسلم فى صفات المنافقين ، باب: الدخان، رقم (٢٧٩٨) عن عبد الله بن مسعود .

ولا تزال أمواج الألم تغمر المخطئين حتى يرعووا ، وكلما تأخر صلاحهم ترادف البلاء عليهم ؛ لأنهم كما قال الله : ﴿ **وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧٥] .

ولقد مرت بقريش سنوات عضوض، قيل: ألح عليهم الجوع حتى اسودت الآفاق فى عيونهم . . . ومع ذلك ظلوا منتصبين نحو عشرين سنة يقاتلون الرسول وصحبه. وما زالوا كذلك حتى خارت قواهم، وسقطت دولة الكفر فى أرضهم، وقامت بدلها دولة الإيمان: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧٧] »(١).

إن هذه الاستشهادات التى يسوقها الغزالى تقوم دليلا قاطعا فى وجه الذين يتهمونه بالصد عن السنة ووقوفه منها موقفا لا يتفق مع إسلامه وسعة علمه .

إن الغزالى لم يكن يريد أن يدعو إلى الصد عن السنة، وإنما كان يرى أن إدمان النظر فى السنة والاشتغال المستمر بها قد يكون سببا فى البعد عن القرآن، مع أنه الأولى بالاهتمام والعناية؛ لأنه مصدر هذا الدين ، والسنة ما هى إلا بيان له وتكملة ، يقول:

« إن الغفلة عن القرآن الكريم والقصور فى إدراك معانيه القريبة أو الدقيقة ، عاهة نفسية وعقلية لا يداويها إدمان القراءة فى كتب السنة ، فإن السنة تجىء بعد القرآن ، وحسن فقهها يجىء من حسن الفقه فى الكتاب نفسه . وقد ذكر ابن كثير أن الإمام الشافعى قال: « كل ما حكم به رسول الله ﷺ ، فهو مما فهمه من القرآن » ، فكيف يفقه الفرع من جهل الأصل ؟

إن الوعى بمعانى القرآن وأهدافه يعطى الإطار العام للرسالة الإسلامية، ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة، ويعين على تثبيت السنن فى مواضعه الصحيحة. . . والإنسان الموصول بالقرآن، دقيق النظر إلى الكون، خبير بازدهار الحضارات وانهيارها ، نير الذهن بالأسماء الحسنى والصفات العُلى، حاضر الحس بمشاهد القيامة وما وراءها ، مشدود إلى أركان الأخلاق والسلوك ومعاقد الإيمان، وذلك كله وفق نسب لا يطغى بعضها على بعض، وعندما يضم إلى ذلك السنن الصحاح مفسرة للقرآن ومتممة لهداياته، فقد أوتى رشده»(٢).

٣ـ توظيف ملابسات النزول فى فهم القرآن :

يرى الغزالى أن القرآن بما أنه نزل منجما على الحوادث ، فإنه لذلك ينبغى علينا أن

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ٢ ، ص: ١١٩ ، ١٢٠ .
(٢) هموم داعية ، دار الشهاب ـ باتنة ، بدون تاريخ ، ص: ٥٣ ، ٥٤ .

« نفهم هذه الحوادث ، لنفهم حقيقة القضية، ومنحى الحكم جميعا. وهذه الحوادث ليس خصومة نشبت بين أفراد ، بل هى سير حياة وطبيعة بشر وحال مجتمع ، أو هى ـ كما قلنا ـ مثل يتكرر على العصور لشؤون الحياة والأحياء، والقرآن النازل بإزائها هو الإرشاد الإلهى الخالد لهذه النظائر المطردة»(١).

ولذلك يؤكد الغزالى أنه « لكى نفهم القرآن فهما صحيحا، لا بد أن نفهم الأحداث التى عاصرته ، وأن نعى الأحوال التى قارنت نزوله .

فإن آيات القرآن وثيقة الارتباط بالظروف التى جاءت فيها . وفقه هذه الظروف جزء من فقه الهدايات السماوية التى تعلقت بها وتعرضت لها . . . ومن الظلم الفادح للقرآن الكريم ، أن يحاول أحد تفسيره وهو ذاهل عن الجو الذى اكتنف نزول الآيات ، فإن تاريخ النزول وسببه جزءان لا يمكن تجاهلهما فى تكوين المعنى وإيضاح القصد، بل لا يمكن تجاهلهما فى تربية الناس بالقرآن وأخذهم بآدابه»(٢).

والغزالى لا يقول هذا الكلام على سبيل التنظير فحسب ، وإنما يمارسه ممارسة عملية ؛ إذ يقوم بتفسير السور القرآنية مراعيا ملابسات النزول ، ويشرح آياتها فى ضوء الواقع الذى نزلت تلك الآيات لمعالجة أحداثه .

ففى تفسيره لسورة النساء ، يقول:

«مضت سورة النساء تصف ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب، فذكرت قصة رجل لين القلب ميت الضمير ينتمى إلى الإسلام دون أن يُشرب حبه أو يحترم حدوده . . ارتكب هذا المرء جريمة سرقة، وإخفاء لآثارها ذهب بالمسروق إلى جار يهودى كى يخفيها عنده. . وجاء قفاة الأثر ، فشعروا بأن التهمة محصورة بين البيتين . . . وأخيرا استخرجوها من بيت اليهودى الذى قال ـ وهو صادق ـ : إن «طعمة» ـ اسم السارق ـ أودعها عنده .

وأنكر طعمة وزعم أن اليهودى هو السارق، وجاء قومه ـ وهم يعلمون إجرام صاحبهم ـ فدافعوا عنه، واستغلوا أن المتهم يهودى من أعداء الإسلام، فألصقوا الجريمة به .

وحسب النبى عليه الصلاة والسلام أن طعمة وقومه صادقون ، وكأنه مال إلى إدانة اليهودى ، وتبرئة المنتمى إلى الإسلام إحسانا للظن به .

وتنزل الوحى الأعلى يقول : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا . وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء : ١٠٥، ١٠٦]،

(١) نظرات فى القرآن ، ص: ٢٢ . (٢) م . ن ، ص: ١٨ .

فمنعه أن يكون مدافعا عن الخونة الآثمين، وأن يصدقهم فى اتهام يهودى برىء .

ويقول للرسول آخر الأمر : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] .

وقال معلقا على أحداث القضية نفسها: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٢] ، وعرض التوبة على الخاطئ قائلا : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠] .

وفى تآمر أهل المجرم على طمس الحقيقة ، وتضليل العدالة ، يقول: ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤]، ويقول: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥]. ذلك كله لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإنصاف رجل من خصوم الإسلام وإثبات براءته من تهمة تتضافر القرائن على إلصاقها به . ما أعظم الإسلام ! » (١) .

ولسنا نعنى بملابسات النزول هنا ؛ ما يسمى عند علماء التفسير وعلوم القرآن بأسباب النزول فحسب ، وإنما نعنى بها « تصوير الجو العام المصاحب لنزول السورة أو المقطع أو الآية ، وواقع المسلمين وواقع المشركين ، وملامح كل منهما ، والفترة الزمنية لنزول النص، وحاجة مجتمع المسلمين إليه وتأثرهم به، وحركة المسلمين فى مكة والمدينة بدينهم ومظاهر قوتهم وصفائهم ، والمرحلة التى وصلوها فى التربية والحركة والجهاد ، ومظاهر النقاء فى المجتمع ومظاهر الخلخلة فيه وأسبابها وعلاجها، وغير ذلك» (٢) .

وإننا لنقف على نماذج كثيرة لهذا التصوير لملابسات النزول بالمعنى المذكور، عند الغزالى .

ففى تفسيره لسورة الفتح ، مثلا ، يقدم الغزالى سردا تاريخيا متكاملا للأحداث التى سبقت نزول هذه السورة ، والتى تمثلت فى هجوم الأحزاب على المدينة ، وما تركه هذا الهجوم من أثر فى المجتمع الإسلامى فى ذلك الحين ، وما كان لأهل الكتاب ، وهم بنو قريظة خاصة ، من دور فى هذا الهجوم على المسلمين . . كما سبق نزول هذه السورة توجه النبى عليه الصلاة والسلام مع صحابته نحو مكة لأداء العمرة ، وما حدث

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ،م . س ، ج: ١ ، ص: ٦٣ ، ٦٤ .
(٢) د/ صلاح عبد الفتاح الخالدى: فى ظلال القرآن فى الميزان، شركة الشهاب ـ الجزائر، بدون تاريخ، ص: ٣٣ .

من قريش فى هذا الاتجاه، حيث منعتهم من دخول مكة ، وكذلك ما حدث بين الفريقين من صلح ومعاهدة ، وما كان عليه موقف الصحابة إزاء بنود هذه المعاهدة (١).

« هذه هى الملابسات التى نزلت فى أحوالها وأفعالها وأجوائها سورة الفتح .. نزلت سورة الفتح لتشرح مواقف ، ولتفسر مواقف ، ولتنبئ بمستقبل ، ولتحسم الأمور فيما اشتبه على الناس من هذه القضايا كلها» (٢) .

ثم مضى الغزالى يفسر السورة فى ضوء هذه الملابسات، يربط المقاطع بالأحداث ، ويفسر الآيات بالسلوكات والأفعال ، حتى انتهى من تفسير السورة على هذا النحو (٣).

٤ـ توظيف التاريخ فى فهم القرآن:

« الشيخ قارئ جيد للتاريخ ، مدرك لوقائعه الحاسمة وأحداثه الكبرى ومراحله المتلاحقة ، وبخاصة التاريخ الإسلامى، وأسرار انتصار أمته وتفوق حضارته، ثم تراجع هذه الحضارة ، وتخلف الأمة وتمزقها ، وغلبة أعدائها عليها وأسباب ذلك»(٤).

يعرف الغزالى التاريخ بقوله:

« التاريخ هو ذاكرة الأمة، ومستودع تجاربها ومعارفها، وهو عقلها الظاهر والباطن، وخزانة قيمها ومآثرها ، وأساس شخصيتها الغائرة فى القدم والممتدة مع الزمان» (٥) .

ويرى الغزالى أن لدراسة التاريخ أهمية قصوى فى حياة الأمم والشعوب ، وفى حياة المسلمين خاصة:

« إن ما وقع أمس لا يعنى أصحابه وحدهم ، يجب علينا أن نكترث به ، ونفيد منه ، ونوازن ونحكم، وإلا دفعنا ثمن جهالتنا من دمائنا واستقرارنا .

وقد أبان القرآن الكريم أن هناك عقل يتكون من التجربة، ومن السير فى الأرض ، ومن الرحلة إلى الماضى . وبيَّن أن الإنسان الذى تقوم معرفته على قراءات سريعة وأحكام نظرية أضعف حسا من إنسان له معاناة فى الدنيا وتجارب مع الناس .

---

(١) خطب الشيخ محمد الغزالى ، م . س ، ج: ٢ ، ص : ١٩٣ ـ ١٩٧ .

(٢) م . ن ، ص: ١٩٧ . (٣) م . ن ، ص : ١٩٧ ـ ٢٠٣ .

(٤) د/ يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، ص: ٧٩ .

(٥) التاريخ الإسلامى فى مساره الطويل ، محاضرة ألقاها الشيخ فى المركز الثقافى الإسلامى بالجزائر العاصمة، مساء الاثنين ٧ أبريل ١٩٨٦ م ، ونشرتها مجلة التاريخ التى تصدر عن المركز الوطنى للدراسات التاريخية بالجزائر ، ع: ٢٣ ، السداسى الأول من سنة ١٩٨٧م ، ص: ٢١ .

هذا العقل المتولد من الدراسة والمعاناة ، هو الذى يشير إليه القرآن الكريم عندما يقول: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] .

وقد تساءل القرآن الكريم مستنكرا حال قوم يمرون بآثار الماضين الهالكين ثم لا يرعوون: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ [الفرقان: ٤٠] .

ومن هنا نجد أن دراسة التاريخ فريضة دينية ،وهى إلى جوار ذلك فريضة إنسانية ، بل إننى ـ بعد التأمل فى تاريخ المسلمين القريب والبعيد ـ أشعر بأنها ضرورة بقاء ، وسياج لحياتنا ورسالتنا إذا كنا حراصا على صون حياتنا وتبليغ رسالتنا» (١).

فـ « دراسة التاريخ ليست نافلة يتطوع بأدائها من يشاء ، إنها ضرورة دينية واجتماعية تقوم بها الأمم الحية . ولو أن مؤسسة تجارية غفلت عن حساب الأرباح والخسائر ، وارتجلت أعمالها ذاهلة عن ماضيها وتجاربها ، لأغلقت أبوابها على عجل ، وانسحبت من الأسواق لتكون ذكرى . والوعى القاصر فى التاريخ السياسى للأمم لا يساويه إلا الوعى القاصر فى التاريخ العلمى والحضارى»(٢).

والغزالى لا يعيب على المسلمين غفلتهم عن دراسة التاريخ فحسب ، وإنما يعيب عليهم أيضا طريقتهم فى دراسته إذا درسوه ، وفى هذا يقول:

« العيب فى دراسة التاريخ ، أننا نطالع صفحات التاريخ لنقرأ أنباء الانتصارات والهزائم وأخبار المواليد والوفيات ، ولكن التاريخ شىء آخر وراء هذا الظاهر ، وهو أن تعرف ما المقدمات التى انتظمت حتى انتهت بالنصر أو بالهزيمة ، وما هى العوامل التى تجمعت فجعلت فترة من فترات التاريخ تُزهر ، وفترة أخرى تُجدب وتقشعر ولا ترى فى جوانبها ما يشرح صدرا أو يسر عينا ؟» (٣) .

فالغزالى يعتبر أن أى توظيف للدراسة التاريخية ينبغى أن ينصب على البحث عن الأسباب الخفية والظاهرة للحادثة التاريخية ، وكيف ينبغى أن نستفيد من معرفة هذه الأسباب فى الحاضر والمستقبل .

وقد وظف الغزالى معرفته التاريخية فى تفسير كتاب الله ـ عز وجل ـ وكان فى كل

(١) م . ن ، ص: ٢٢ ، ٢٣ . (٢) م . ن ، ص: ٤١ .

(٣) محاضرات الشيخ الغزالى ، م .س، ص: ٢٤٦ .

مرة يرجع إلى التاريخ ليستخلص منه الدروس الواقعية التى تأتى خلاصاتها مجملة فى الآيات والسور القرآنية .

من ذلك ما أورده فى تفسيره لسورة المائدة عند حديثه عن أهل الكتاب ، المسيحيين منهم خاصة ، وما خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام فى هذه السورة بشأنهم ، حيث يروى ـ فى إيجاز ـ قصة الود الذى كان بين أتباع المسيحية والإسلام منذ عهد النبى ﷺ ، وكيف تحول هذا الود إلى صراع مرير ظل يشتد مع الأيام ، قال:

«النزاع المرير الذى يسود العالم الآن هو بين الإسلام الذى يصف الله بالوحدانية المطلقة ، ويعد ما عداه فى الأرض والسموات ملكا له، خاضعا لعز جلاله ومجده، الملائكة والأنبياء والبشر كلهم يجثون خاضعين للواحد القاهر. . . وبين مسيحية استحدثها الغلاة، وعبدوا فيها ثلاثة، وزعموا بعدئذ أن الثلاثة واحد .

من أجل ذلك يتجه الخطاب الإلهى لمحمد: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾
[المائدة : ٧٧]

ويظهر أن هذا النزاع سوف يبقى حتى قبيل الساعة؛ إذ ينزل الله عبده عيسى ليحسمه بإعلانه عبوديته لله ، ومقاتلته من جعلوه لله ندا .

والفكر النصرانى منقسم على نفسه انقساما واسعا،وقد عرف العالم الحروب الدينية من خلال هذا الانقسام ، وهى حروب ظلت عدة قرون سفكت فيها الدماء بغزارة ، ولم ينج الناس من غوائلها إلا بعد تجريد الكنيسة من سلطان الدولة .

ومع ذلك فقد اصطلحت المذاهب المعزولة،وتجمعت فى هذا العصر كى تكيد الإسلام.

فاليهود يقتلون عرب فلسطين،والهنادك والبوذيون يقتلون المسلمين فى جنوب آسيا. . والاستعماريون الجدد يقاتلون سائر المسلمين أو يشنون عليهم غزوات ثقافية واقتصادية .

ونحن نتدبر بعمق هذه الآية الكريمة: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [المائدة: ٨٢ ، ٨٣] .

إن التاريخ يروى لنا ما حدث فى عصر البعثة ، كان مشركو مكة ويهود المدينة

أشد الناس بأسا فى عداوة الإسلام ، على حين كان المسلمون يؤملون الخير فى نصارى الحبشة والروم .

وقد صرحوا بأن هزيمة الفرس للروم مؤقتة ، وأن إخوانهم من أهل الكتاب سوف يكسبون المعركة التى خسروها ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

ثم إنه جاءت وفود مسيحية إلى مكة والمدينة واستمعت إلى الرسول يتلو كتابه فأعلنت إيمانها وقالت: ﴿ **إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** ﴾ [القصص: ٥٣] .

والواقع أن الإسلام ـ بعد انكسار السلطة الرومانية ـ ورث آسيا الصغرى كلها وشمال إفريقية كله ، فأضحت شعوب هذه المناطق مسلمة تدفع عن الإسلام وتعلى رايته ، وتركت مسيحيتها الأولى راضية مقتنعة . والآية التى ذكرناها تتحدث عن قوم أعلنوا إيمانهم وقالوا: ﴿ **وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [المائدة: ٨٤] .

لكن الذى حدث قديما عرض له ما وقفه . ومنذ ألف عام وحروب صليبية طاحنة تُشن على المسلمين وتنتقص أرضهم ، وتهز كيانهم هزا .

وما يمكن أن يكون هؤلاء أقرب الناس إلى الذين آمنوا . إن الآيات تصف مشاهد مضت ، فهل يجوز أن تتغير المشاهد ؟ ربما لا تزال جماهير فى أوربا وأمريكا تبحث عن الحق ، وترتاب فيما ورثت ، وما يصدها عن الدخول فى الإسلام إلا الحال الزرية التى عليها المسلمون» (١) .

ومن ذلك أيضا تأريخه لقصة الصراع بين مذاهب المسيحية ذاتها ، عند تفسيره لسورة المائدة ، حيث قال :

« كما أخذ الله الميثاق على اليهود ، أخذه على النصارى ، وإن كان التعبير الوارد فى ذلك يدفع إلى التأمل ؛ لأنه يشير إلى بعد الشقة بين العصور الآخرة ، وبين عيسى والحواريين أصحاب الدين الحق .

لذلك قال: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾[المائدة: ١٤].

وتاريخ المسيحية شاهد صدق على هذا الشقاق الدامى بين شتى الكنائس .

ولن تنسى أوربا الحروب الدينية التى ملأت ساحاتها بالدماء، وقد وضعت هذه

---

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن ، م . ن، ج: ١ ، ص: ٨٧ ، ٨٨ .

الحروب أوزارها ، إلا أن الكراهية ناشبة فى أعماق الصدور يخفيها انشغال الكل بالعلمانية التى أقصت الدين وسيطرت على الدولة .

ونرى أن هذه الهدنة عارضة، وأن الخصام عائد إلى الظهور حتما لأن أسبابه قائمة، وهو ما تؤكده الآية» (١) .

ومن ذلك أيضا ، ما أورده فى تفسير سورة المؤمنون ، عندما رجع إلى التاريخ لإثبات أن النبوات إنما ظهر معظمها فى منطقة الشرق الأوسط ، وأن معظم أقوام هذه المنطقة رفضوا هدايات الأنبياء وأبوا اتباعهم ، حيث قال:

«وعادت السورة بالناس إلى الماضى البعيد، تحكى جحود الأوائل لفضل الله وتمردهم على هداياته، وتكذيبهم لرسله. فذكرت نوحا وقومه، وهودا وقومه: **﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ . مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ . ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾**[المؤمنون: ٤٢ ـ ٤٤].

والأقوام التى رفضت الإيمان تعيش كثرتها فى المنطقة التى يقال لها الآن: «الشرق الأوسط» ، كان نوح شمالى العراق ، وهبط إبراهيم من العراق إلى الحجاز ، ومر بمصر والشام ، وخرج موسى من وادى النيل يريد الفرار بقومه ومات فى التيه ، وولد عيسى بفلسطين وزار مصر ، وكان صالح وشعيب شمال الجزيرة العربية ، وكان هود بالأحقاف فى اليمن . . . إلخ .

ويبدو لنا أن الناس فى هذه البلاد كانوا أقرب من غيرهم وعيا لرسالات السماء وحقائق الوحى . فلما جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم مزق القدر شملهم »(٢).

٥ـ توظيف فقه الواقع الإنسانى:

« الواقع وفقهه ، عن طريق المعايشة والاطلاع ، سواء كان واقع المسلمين أو واقع القوى المعادية لهم ؛ الواقع المحلى « المصرى » ، والواقع الإقليمى «العربى»، والواقع الإسلامى « واقع البلاد الإسلامية » ، والواقع الدولى « خارج عالم الإسلام » .

هذا الواقع ، كتاب مفتوح لدى الشيخ ، يقرأ سطوره وما بين سطوره ، ويتدبر أحداثه ، ويتعلم منها ويعلم ، ويوظفها فى نصرة دعوته وتحقيق مقاصدها.

لا يهتم فى الواقع بالجانب المادى أو الحسى فيه ، مغفلا الجوانب الأخرى ، بل اهتمامه ـ مع ذلك ـ مركوز على ما وراء المادى والحسى ، من الأفكار والأخلاق ،

(١) م . ن ، ج: ١ ، ص: ٧٣ ، ٧٤ . (٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١١٨ .

والعقائد والتقاليد ، فهى التى تصنع الإنسان والمجتمعات ، وتميز بعضها عن بعض»(١) .

والحق أن كل مؤلفات الغزالى ، وسائر بحوثه ، هى دراسات فى إطار ما يمكن أن نسميه: « فقه الواقع» ، فالرجل مهموم بهذا الواقع وراغب فى تغييره ، ومدرك للقوى والجهات الخفية والظاهرة التى تحركه وتوجه نتائجه . لذلك لم يكن غريبا أن نجد الشيخ يوظف فقهه للواقع فى التفسير ، ما دام يقصد من هذا التفسير تغيير هذا الواقع .

من ذلك ما أورده عند تفسيره لسورة الفتح فى إحدى خطبه ، بمسجد عمرو بن العاص ، سنة ١٩٧٣م ، حيث قال مبررا اختياره لتفسير هذه السورة:

« لقد اخترت أن أفسر سورة الفتح ؛ لأن هناك مَشَابِه بين المؤمنين قديما ـ فى أحوالهم وما يحيط بهم من منافقين وكافرين ـ وبين المؤمنين فى هذا العصر .

والواقع أن العالم العربى والإسلامى ، تتنازعه الآن ثلاث قوى رئيسية: قوة ترفض الإسلام علنا ، وتستميت فى أن تُحكم الأمة العربية والإسلامية حكما علمانيا كما يقولون . . وقوة أخرى ، تريد أن تعود بالمسلمين إلى ماضيهم الأول وكتابهم الكريم وسنتهم المطهرة ، لا تنزل عن آية من الآيات ولا تترخص فى حديث من الأحاديث . . وهناك قوة ثالثة ، لا تريد أن تكون لا من هؤلاء ولا من أولئك ، تريد أن تنتسب إلى الإسلام ، ولكنها تريد أن تتخير من أحكامه أحكاما تنفذها وأحكاما تتركها ، عبادات تقوم بها ، وعبادات تنأى عنها . . والصراع قائم بين القوى الثلاث . . وألفت النظر إلى أن القوة الأولى لو نجحت وتحول العالم العربى والإسلامى إلى الإلحاد والمادية ، فمعنى ذلك أنه انتحر وأُهيل التراب على جثمانه وانتهى تاريخه . . أما القوة الثالثة التى تريد أن تأخذ بعضا من الإيمان وتترك بعضا، وتنتسب إليه انتسابا ولكنها لا توفى له الوفاء الواجب ، فسوف تؤخر الأمة الإسلامية عن بلوغ أهدافها وعن غسل العار الذى نزل بها . ولن تنجو أمتنا أو تنجح إلا يوم تكون أزمتها فى يد المؤمنين الذين يريدون الإسلام كله شكلا وموضوعا ، وعنوانا وحقيقة»(٢) .

فالغزالى يدرك جيدا طبيعة القوى التى تتصارع فى طول العالم الإسلامى وعرضه، ويدرك جيدا كذلك ما يمكن أن ينتهى إليه حال الأمة إذا آلت السيطرة عليها إلى واحدة من هذه القوى . ويستغل الغزالى فقهه لواقع الأمة فى تفسير كتاب الله ـ عز وجل ـ

---

(١) د/ يوسف القرضاوى: الشيخ الغزالى كما عرفته ، م . س ، ص: ٨٠.

(٢) خطب الشيخ الغزالى ، م . س ، ج: ٢ ، ص: ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

بمقايسة هذا الواقع إلى واقع الدعوة الإسلامية يوم كان ينزل القرآن على النبى ﷺ يرشد هذه الدعوة ويرسم سبيلها .

ومن توظيفه لفقه الواقع الإنسانى فى التفسير ، ما عرضه من أنواع الكفر المختلفة ومظاهرها قديما وحديثا ، وكيف تمارس تأثيرها فى عالم الناس فى عصرنا الحاضر ، وذلك عند تفسيره لسورة محمد فى إحدى خطبه ، إذ يقول تعليقا على قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [محمد: ١] :

« للكفر صور كثيرة ؛ أولها: إنكار الألوهية أصلا ، كما يفعل الماديون والشيوعيون وناس كثيرون ممن انتشروا فى قارات الأرض الآن ، لا يعرفون إلا ما يعرفه سفْلة الأعراب قديما، عندما كان أحدهم يقول: إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلَع وما يهلكنا إلا الدهر ، تحول هذا إلى فلسفة عامة ، ودول مسلحة ، ومذاهب تدعى المعرفة ، وتنطلق باسمها أبواق ودعايات وإعلام وصحف إلى غير ذلك ، هذا نوع من الكفر .

هناك كفر آخر ؛ يؤمن بالله ، ولكن يراه جسدا ، يمكن فى نظره أن الله يجهل فلا يدرى ما يقع ، أو يندم على شىء صنعه؛ لأنه كان لا يعرف عاقبته ، أو يأكل مع الناس ، أو يتصارع مع بعض عباده ، وهذا الكفر هو دين اليهودية الآن ، وما ذكرته عنهم هو تلخيص لما ورد فى العهد القديم أو فى سفر التكوين بالذات .

ثم هناك كفر آخر ؛ ناس تدعى أن لله ابنا أو بنتا أو صاحبة ، أو أنه ابن لشخص آخر ، أو ما إلى ذلك مما لا أصل له ، وقد اشترك فى هذا وثنيو العرب ونصارى العالم، والقرآن الكريم حاسم : ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٩١ ، ٩٢] ، سبحان الله وتعالى: أى تنزه وترفع عن أن يكون له ولد ، أو أن يكون ولدا لأب ، أو ما إلى ذلك مما يقول الأفاكون وإن كثرت جيوشهم، وكثرت المخترعات الفتاكة بين أيديهم ، فإن شيئا من هذا لا يحول الضلال إلى حق .

هناك كفر آخر ؛ أن يعبد بعض الناس أصناما أو عناصر من الأرض يظنون أن الله حلَّ فيها ، أو جعلها مظهرًا له ، كما يفعل الهنادك فى الهند ، أو كما يفعل البوذيون فى جنوب آسيا وشرقها .

وهناك كفر معروف أيضا ؛ وهو أن يؤمن أحد الناس بالله كما يزعم ، ولكنه يرفض طاعته والانقياد لأمره ونهيه ، ويجادل فى الأحكام التى جاءت من عنده ، ولعله يتهمها بالرجعية أو بالقسوة ، أو بأن الفرائض تعطل الإنتاج ، أو ما إلى ذلك مما يقوله كفار فى البلاد العربية فى عصرها الحديث .

وأعتقد أنه مما يدخل فى باب الكفر ؛ إنكار السنة جملة وتفصيلا ، وهو ما حمل رايته الآن بعض العسكر الذين يحكمون أجزاء من العالم الإسلامى» [١].

فالغزالى محيط بأنواع الكفر المختلفة التى تسود العالم ، ويعرف جيدا أيها يمارس تأثيره على العالم الإسلامى ويزيد من بلائه وعذاب أبنائه ، ولذلك فهو [illegible] الكفر من جهة محدودية تأثيرها ، فيقول:

«قد يكون الكفر مرضا فتك بصاحبه، فانزوى به وعاش فى سوأته، وانتهى أمره على هذا النحو. هذا كفر ضرره محدود، وإن كان كفرا. لكنّ هناك كفارًا يرون أن ينقلوا الظُّلمة التى فى قلوبهم إلى قلوب الآخرين . . . بل قرروا أن يعترضوا السائرين على الطريق المستقيم . . . وهؤلاء هم الذين سماهم القرآن فى سوره كلها « الصادين عن سبيل الله». . . هذا الكفر المزدوج المقرون بالصد عن سبيل الله هو ما شكا المؤمنون منه قديما وحديثا، وهو ما أعلن القرآن عليه حربا شعواء: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا . إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** ﴾ [النساء: ١٦٧ ـ ١٦٩] »[٢].

٦ـ توظيف خلاصات تجاربه فى الحياة :

يوظف الغزالى خبراته المتعددة التى اكتسبها خلال رحلة حياته المديدة ، فى تفسير كتاب الله ـ عز وجل ـ ويحرص على إبراز هذه الخبرات ؛ بغرض الإبانة عن عظمة الشرائع الإلهية وقصور المناهج البشرية ، وكذلك حتى يكشف سوءات الواقع الإسلامى والعلاقات الحالية بين المسلمين التى هى فى حقيقتها بعيدة عن تعاليم الإسلام .

من ذلك ما أورده ، وهو بصدد تفسير سورة البقرة ، حيث تحدث عن نظرة بعض المتدينين إلى المرأة، وكشف عن امتهانهم لها، وحرمانها من حقوقها التى أقرها الله فى كتابه لها ، حيث يقول:

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ١٥٠ ، ١٥١ ، بتصرف .

« لقد ظُلمت المرأة فى بيئات كثيرة ، وغريب أن يُردَّ الحيف عليها إلى تعاليم الإسلام التى أنصفتها .

[illegible] ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوف وَلِلرِّجَال عَلَيْهِنَّ دَرَجَة ﴾ [البقرة: ٢٢٨] . والآية ظاهرة فى تبادل الحقوق والواجبات ، وفى تقرير درجة رياسة الرجل ، مع إتمام هذا التبادل . لكننى لاحظت فى بعض الأوساط الهابطة ، أن المرأة عليها وليس لها ، وأنها تعامل بامتهان وغلظة ، وأنها قد تأكل الفضلات فى البيت ، وتذهب أطايب الطعام إلى غيرها .

كيف تُنسب هذه الجلافة إلى دين من الأديان ، بله الإسلام ؟

وأعرف أن هناك نسوة شريرات يملأن البيوت متاعب ، والحل لهذه المشكلات كلها لا يقوم به رجال الشرطة ، بل يعتمد على حسن التربية والتزام التقوى ، والوقوف عند حدود الله .

إنه لابد من علم واسع وخلق كريم وتربية أصيلة ، وأهل لهم عدل وإنصاف، وأمة قوامة بأمر الله .

وقد رأيت أن أجهزة التبشير ترقب العالم الإسلامى بمكر ، وتحاول اختراقه من ثغرات تتوهمها أو تجدها ، وقد رأت أن أعدادا من المسلمين تهين النساء ، وتستكثر عليهن ما آتاهن الشارع الحكيم فسعت إلى تنصير المرأة وإشاعة أن المراد إنقاذها من جَوْرِ الإسلام .

وتوجد الآن جمهرة من المثقفات وقعْنَ فى هذا الشرك ، والسبب الأول بعض المتحدثين فى الدين من الجاهلين والتافهين .

كنت فى أحد المجالس فقلت: إن حق الخلع للمرأة يكافئ حق الطلاق للرجل، وإذا وجدت امرأة لا تطيق زوجها بغضا لأسباب تبديها أو تخفيها ، وعرضت أن تعطيه ما ساق إليها من مهر ، فما المانع أن يجيبها القضاة إلى ما تبغى؟

قال أحد السامعين: للقاضى حق التطليق للضرر . قلت: هذا شىء آخر ، إنها لم تشْكُ ضررا ، وإنما تذكر أنها تكره البقاء مع رجلها لأمر ما ، وتريد تعويضه عن كل ما أنفق عليها ، فلماذا نبقيها معه ؟ قال: هذا لا يجوز ، ما دام الرجل راغبا عن الطلاق. قلت: بل هو جائز ، وللقاضى أن يتصرف بالصلح أو بالخلع.

وعلمت بعدُ أن الرجل يتهمنى بما أنا منه براء ؛ لأنه غير فقيه فى الكتاب والسنة ،

وويل للعالم من الجهال» (١).

ومن ذلك أيضا ما أورده فى تفسير سورة الأنفال ، حين تحدث عن القتال الذى يمكن أن ينشب بين المسلمين وغيرهم،وما ينبغى على المسلمين أن يواجهوا به عدوهم ، حتى وإن كانوا أقل بكثير منهم ، حيث استشهد فى هذا الإطار بمواقف واقعية خبرها واطلع عليها ، يقول فى هذا الشأن:

«المثير أن فوارق العدد لا وزن لها فى هذا القتال - أى بين المسلمين والكافرين - فالقلة تتصدى للكثرة ، والواحد يثبت أمام العشرة .

والسبب أن الله ظهير للمؤمن إذا قاتل ، فهو عندما يضرب تضرب معه قوى الأرض والسماء ، إنه غطاء لقدرة الله المنتقم من أعدائه بعدما توقَّحوا وتبجَّحوا .

وهذا معنى الآيات: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ** ﴾

[الأنفال: ٦٥]

وأنا مع المحققين فى أن هذا هو الحكم الأصلى الثابت الدائم . وأن الثبات أمام اثنين هو عند الضعف الطارئ أو الظرف العارض المخفف . فإذا زال رجع الحكم إلى أصله وهو تصدِّى الواحد لعشرة .

وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ **الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾

[الأنفال: ٦٦]

وفى الحروب العادية استطاعت ثلة من الجنود المشاة أن تمزق فرقة من المدرعات اليهودية .

وعلمت أن جنديا مصريا أوهم العدو أن معه قنبلة يدوية ورفع ذراعه مستعدا للهجوم فرفع الجنود اليهود أيديهم مسلِّمين ، وقادهم أمامه أسرى .

إن الروح المعنوية للمقاتل الفدائى تجعل الواحد جمعا: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٩] » (٢).

---

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، ج: ١ ، ص: ٢١ ، ٢٢.

(٢) م . ن ، ج:١ ، ص: ١٣٨ .

ومن نماذج استفادة الغزالى من خبراته وتجاربه فى الحياة فى تفسير القرآن ، ما أورده عند تفسيره لسورة يوسف ، حيث قال بصدد الحديث عن تفسيره عليه السلام لرؤيا صاحبيه فى السجن:

« الرؤى ضرب من الغيوب يتصل بالجانب الروحى من الإنسان ، وهى ـ مع صدقها ـ ليست دلالة خير ولا شر ، إنها دلالة قوة خارقة فى الكيان البشرى يستشرف بها على ما يُعْجز غيرَه من الناس .

وأعرف رجلا كان فى القاهرة،وأراد السفر إلى الريف ، رأى فى منامه جنازة قريب له، والمشيعون حولها ، وهى تخرج من دارهم متجهة إلى المقابر فى موكب معين . فلما سافر إلى القرية شاهد الموكب نفسه على النحو الذى رآه لم يختلف منه شىء . . كانت الرؤيا حقا .

وأعرف من انكشفت لهم غيوب على هذا النحو دون سبب ظاهر ، ومن ذلك الرؤية عن بُعد ، فقد قصوا عن الفيلسوف الألمانى «كانت» أنه رأى حريقا على بعد أكثر من مائة ميل ، وروينا نحن قصة عمر بن الخطاب الذى كان يخطب فى المدينة، فسُمع يقول: يا سارية ، الجبل . وكان «سارية » أحد قواده ، وقد رأى عمر العدو يختلُ المسلمين من ناحية الجبل ، فصاح صيحته . قالوا: وقد سمعها القائد وهو فى الجبهة ، ونجا بجيشه .

وليست هذه الأحداث قاعدة مقررة ، وإنما ذكرناها لتلقى ضوءا على ما وقع ليوسف ، لقد سمع رؤى صاحبيه ، ثم تحدث عن نفسه: ﴿ **قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [يوسف: ٣٧ ، ٣٨] » (١).

٧ـ توظيف خلاصات العلوم التجريبية :

يرى الشيخ الغزالى أن « التقريب بين الدراسة القرآنية وبين ما وصلت إليه الإنسانية وحضارتها ، يحتاج منا إلى أن ننخلع قليلا عن بعض مواريثنا القديمة التى ليست من ثوابت الدين وقيمه الأصيلة ، والإفادة من الحضارة الحديثة وما وصلت إليه من ناحية وسائل فهم الكون ، ومن ناحية مردود النظر فى النفس الإنسانية ، واعتماد

---

(١) م . ن ، ج: ٢ ، ص: ٣٢ .

كثير منها بعد ضبطها بمبادئ الإسلام ومقاصده الكلية » (١) .

والسؤال الذى يطرح نفسه: هل معنى هذا تحويل التفسير إلى بحوث علمية خالصة؟ وهل القرآن أصلا كتاب طبيعة وكيمياء ؟

يجيب الغزالى بالنفى ، فيقول:

« إننا لا نزعم أن القرآن كتاب كيمياء وطبيعة وفلك ، ولكننا نقرر أن الصورة الكاملة للكون ـ كما ترسم ملامحها هذه العلوم ـ تتسق مع الصورة نفسها التى ترتسم فى ذهن قارئ القرآن ، تتلاقى معها على كل حال، بينما تُنسب إلى السماء كتب مقدسة ـ فى نظر أصحابها ـ تتحدث عن الكون حديث راكب الدابة عن الطيارات النفاثة .

ذاك هو الفرق بين كلمات يؤلفها الناس من عند أنفسهم، فهى مزيج من حق وباطل، وجد وهزل، وعلم وجهل، وبين كلمات ينزلها الحق البارئ المصور: ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[سبأ: ٣].

وذلك هو السبب فى أن الإسلام عقد صلحا دائما مع العلم ، بل يسر له السبيل وزين الغاية ، أما غيره فقد دخل معه فى عراك وحشى كان له أسوأ الأثر فى تاريخ الحياة ومسيرة الحضارات» (٢) .

لذلك ، وجدنا الغزالى لا يتردد فى توظيف آخر ما وصلت إليه الكشوف العلمية المختلفة فى تفسير كتاب الله ـ عز وجل ، وخاصة تلك التى تؤكد أن هذا العالم لا ينحصر فقط فى هذه الحياة الظاهرة التى نعيشها ، وإنما له جانب آخر هو عالم الغيب ، الذى نخضع له ونرى آثاره ، ولا ندرك كنهه . وقد رأينا نماذج من هذه الاستفادة عندما تحدثنا عن اهتمام الغزالى بالتعريف بالله وإبراز نعمه على الخلق، ضمن الفصل السابق .

ونكتفى هنا بالإشارة إلى أمر مهم فى هذا السياق ، وهو أن الشيخ لم يكن دوره تجاه هذه العلوم التجريبية دورا سلبيا ، مبنيّا على التصديق بكل ما تتضمنه ، بل وجدناه ينتقد بعض المعلومات الشائعة فى هذه العلوم ،من ذلك ما أورده عند تفسيره لسورة الأعراف ،حين قال معلقا على قصة نوح وقومه التى جاء الحديث عنها فى هذه السورة، حيث قال:

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن ، م . س ، ص: ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) نظرات فى القرآن ، م .س ، ص: ٢٤ .

«إننى بعد التأمل أجد أن الحياة من أيام الطوفان إلى الآن تبلغ ثمانين قرنا . . . فكم سلخت بين آدم ونوح ؟ ما أحسبها تزيد عن هذا الأمد !!

ومن هنا فأنا أشك فى البحوث الجيولوجية التى تخبرنا أن جمجمة آدمية وُجدت ودلَّ فحصُها على أن لها عشرات الملايين من السنين !!

جمجمة مَنْ هذا ؟ لعل هناك خلائق أخرى غير الجان سكنت هذه الأرض»(١).

* * *

تلك أهم الوسائل والأدوات المنهجية التى وظفها الشيخ الغزالى ـ رحمه الله، فى تفسيره الموضوعى لكتاب الله ـ عز وجل ، وأقول: أهم الأدوات ؛ لأن هناك أدوات أخرى وظفها ، ولكن توظيفه لها كان قليلا جدا ونادرا ، ومنها بعض أقوال المفسرين ، وخاصة الشيخ محمد رشيد رضا صاحب تفسير المنار . ومنها أيضا تلك الأشعار العربية التى كان يوردها فى بعض الأحيان للاستشهاد للمعنى الذى يقرره،وهى قليلة أيضا .

ولا شك أن القارئ الكريم يدرك جيدا أننا لم نورد هنا كل النصوص التفسيرية للشيخ،التى وجدنا فيها استخدامه لهذه الأدوات ، وإنما اكتفينا فقط بأهم هذه النصوص فى نظرنا ، وربما تكون هناك نصوص أخرى أهم فى نظر غيرنا ، ولم نوردها، والأمر يختلف حسب التقدير الشخصى لكل باحث ، كما هو معلوم .

---

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم ، م . س ، ج: ١، ص: ١١٩ .

الخاتمة

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية المطاف فى هذه الرحلة الممتعة التى قضيناها مع شيخنا وإمامنا محمد الغزالى السقا ومنهجه فى التفسير الموضوعى . هذا المنهج الذى أعتبره رائدا فى بابه ، وأعتقد أن الغزالى قد أبدع فيه أيما إبداع ، حتى وإن حاول بعض الباحثين ـ وربما دون قصد ، ومن غير اطلاع كاف ـ أن يشوش عليه ويعتبره بحوثا قرآنية متنوعة لا صلة لها بالتفسير الموضوعى ، مانحا نفسه حق إدخال ما يريد من الدراسات فى هذا المنهج وإخراج ما يريد .

صحيح أن الغزالى ليس هو مبدع منهج التفسير الموضوعى ، فهذا منهج يعود إلى عهد قديم ، وقد مارسه بعض علمائنا الأجلاء ، ومنهم ابن قيم الجوزية وغيره، رحمهم الله جميعا ، كما مارسه الكثير من العلماء المعاصرين ، ومنهم من كانوا أساتذة للغزالى وذوى فضل عليه .

لكن ريادة الغزالى فى هذا المنهج ، وفى العصر الحديث خاصة ، واضحة ويدركها الدارس المقارن بين ما كتب من بحوث ودراسات فى إطار منهج التفسير الموضوعى فى العصر الحديث .

فمنهجه يقوم أساسا على الواقعية الهادفة ؛ إذْ كان الشيخ فى كل بحوثه ودراساته فى إطار التفسير الموضوعى واقعيا ، فهو يركز فى التفسير على جانب الواقع ، والإسلامى منه بصفة خاصة ، مبتغيا تغيير هذا الواقع ، وداعيا المسلمين إلى تغيير ما بأنفسهم ، حتى يغير الله ما بهم .

ولم يفعل كما فعل كثير من المفسرين الذين إذا ما قرأت مؤلفاتهم فى التفسير ، لا تكاد تعرف فى أى عصر كُتبت تلك المؤلفات ، ولا إلى أى مجتمع ينتمى أولئك المؤلفون .

ثم إن الغزالى ، لم يكن يهمه أن يبسط القول حتى يبلغ كتابه فى التفسير عشرات المجلدات ، وإنما كان همه أن يجعل هذا التفسير أداة لفهم القرآن ، ووسيلة إلى عودة الناس إلى تدبره والتفاعل معه ؛ إذ أراد أن يجعل من عمله فى التفسير مفتاحا يوظفه القارئ فى فتح ما استغلق عليه من معانى الكتاب العزيز ، ولذلك وجدناه يوجز ، ما

أمكن ، ولا يختار من الآيات إلا ما كان معبرا بصورة واضحة عن الفكرة المحورية للموضوع أو السورة القرآنية . فالرجل لم يكن يكتب بحثا أكاديميا يبتغى به ترقية إدارية، وإنما كان ينشئ دليلا ثقافيا يكون منهاجا يسلك من خلاله المسلمون إلى فهم القرآن .

كما أن من مظاهر ريادة الغزالى فى منهج التفسير الموضوعى فى العصر الحديث، الذى هو عصر هذا المنهج ؛ الفهم الشامل للقرآن الكريم ، فهو يمارس التفسير وهو على وعى بكل مقاصد القرآن وأهدافه وأغراضه ؛ ولذلك تجده يؤكد كثيرا على هذه الأغراض ، ولا يدخر وسعا فى التوجيه إليها وإبرازها . . . يبين أثر تحققها فى الواقع الحياتى للإنسان ، كما يبرز الأثر الخطير لغياب تلك المقاصد عن التحقق فى حياة الإنسان والإنسانية بوجه عام .

ثم إن من مظاهر هذه الريادة أيضا ، استخدام العقل فى النظر والتأمل والتحليل والموازنة والترجيح ، باستقلالية تامة ، فلم يكن ما قدمه الغزالى فى تفسيره صدى لأى فكرة من الأفكار ، وإنما كان نتيجة لتأملاته الخاصة وبحوثه الشخصية . وكل ما قرره من آراء ، لم يكن إلا نتيجة لما قادته إليه تأملاته وبحوثه ونظره العقلى المشفوع بتوجيه الوحى والانضباط به .

ختاما ، أرجو أن أكون ـ بإعداد هذا الكتاب ـ قد أديت بعض الحق الذى للشيخ علينا . سائلا الله ـ عز وجل ـ أن يجعل هذا العمل صدقة جارية يلحق ثوابها برصيده من الحسنات ، وأن يتغمده برحمته الواسعة ، ويجزيه عن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء . آمين ، والحمد لله رب العالمين .

تعريف موجز بالمؤلف

- هو مسعود بن موسى فلوسى .
- من مواليد قرية غوفى بالأوراس الجزائرى ،سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م
- حفظ القرآن الكريم ، ودرس المرحلة الابتدائية فى مسقط رأسه .
- انتقل إلى مدينة باتنة ، سنة ١٩٧٩م ، حيث درس بها المرحلة المتوسطة ، ثم المرحلة الثانوية .
- حصل على شهادة الثانوية العامة (البكالوريا) فى العلوم الإسلامية ، سنة ١٩٨٧م .
- كما حصل على الليسانس من معهد الشريعة بجامعة الأمير عبد القادر - فرع باتنة، سنة ١٩٩١م .
- عُيِّن معيدا بالمعهد الوطنى للتعليم العالى للعلوم الإسلامية بباتنة ، سنة ١٩٩١م .
- حصل على الماجستير من المعهد ، سنة ١٩٩٤م ، فى تخصص أصول الفقه.
- تم تعيينه فى نفس السنة أستاذا مساعدا بالمعهد .
- وفى سنة ١٩٩٧م ، تمت ترقيته من قبل المجلس العلمى للمعهد لدرجة أستاذ مساعد مكلف بالمحاضرات .
- مُسجل منذ ١٩٩٥م ، فى قسم الدراسات العليا بالمعهد الوطنى العالى لأصول الدين بالجزائر العاصمة ، لتحضير أطروحة دكتوراه فى نفس التخصص .
- يكتب بصفة مستمرة فى الجرائد والمجلات الجزائرية ، منذ ١٩٩٠م.

*** له من المؤلفات :**

١- القواعد الأصولية؛ تحديد وتأصيل. ط:١ ،دار الشهاب - باتنة (الجزائر)، ١٤١٥هـ / ١٩٨٥م.

٢- مدرسة المتكلمين ومنهجها فى دراسة القواعد الأصولية،رسالة ماجستير غير منشورة، المعهد الوطنى للتعليم العالى للعلوم الإسلامية - باتنة ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣ـ إضاءات على درب الإيمان ، أكثر من ستين مقالة موجزة ، نشرت فى أسبوعية «رسالة الأطلس» الجزائرية.

٤ـ فى النقد الحضارى: صيحات تائهة فى أمة تداعت عليها الأمم ، سلسلة مقالات نشرت فى الصحف الجزائرية خلال سنوات ١٩٩٠ـ ١٩٩٧م .

٥ـ من وحى الأزمة، سلسلة مقالات تنطوى على تأملات فى الأزمة الجزائرية، نشرت فى الصحف الجزائرية ، خلال سنوات ١٩٩٠ـ ١٩٩٦م .

*** وله من الأبحاث :**

١ـ شخصية المنافق فى القرآن الكريم ، مجلة الإحياء ، المعهد الوطنى للتعليم العالى للعلوم الإسلامية ـ باتنة (الجزائر).

٢ـ البعد المقاصدى فى منهج التغيير عند ابن باديس ، مجلة الموافقات ، المعهد الوطنى للتعليم العالى فى أصول الدين ـ الجزائر.

٣ـ التطور الدلالى للمصطلح الأصولى وأثره فى اختلاف الفقهاء ، مجلة الحضارة الإسلامية، المعهد الوطنى للتعليم العالى فى الحضارة الإسلامية ـ وهران (الجزائر).

ـ إضافة إلى عشرات المقالات والحوارات الصحفية ، المنشورة فى الجرائد الجزائرية.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٧٤١٧ / ١٩٩٩م

I.S.B.N:977-15-0266-2

هذا الكتاب

* **الإمام الشيخ محمد الغزالى** . . . الداعية الغيور !!

عاش بالقرآن وللقرآن . . . وذاق حلاوة القرآن . . . وعرف كيف يتعامل مع القرآن ، ووقف ـ بنظرات ثاقبة ـ عند المحاور الأساسية فى القرآن . . .

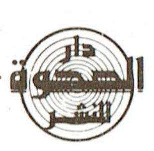
* وكان حصاد هذه الحياة الموصولة مع كتاب الله « التفسير الموضوعى للقرآن » الذى اعتبره الشيخ الغزالى تتويجًا لرحلة حياته مع كتاب الله . . .

* من الكتَّاب فى قرية «نكلا العنب» ، ومرورًا بمراحل الأزهر المختلفة والميادين العلمية الجهادية لصبغ حياة المسلمين صبغة قرآنية . . . وحتى مراحل التأصيل الفكرى والدعوى . . .

* خلال كل ذلك كان **الشيخ الغزالى** ينظر إلى دنْيا الناس بعين قرآنية فيعرف كم هو شاسع ذلك البون بين « عالم القرآن » و« صبغة القرآن » وبين عالم الأهواء والفلسفات . . . فينادى بأعلى صوته التائهين ـ ولاسيما أمة القرآن ـ بأن يعودوا إلى القرآن . . . ليعودوا خير أمة . . . !!

* وهذا الكتاب لمؤلفه المفكر الجزائرى الدكتور « مسعود فلوسى » حول ريادة **الشيخ الغزالى** للتفسير الموضوعى للقرآن إبراز لجانب من جوانب التألق فى فكر **الشيخ الغزالى** رحمه الله . . . فى عالم القرآن فجزى الله الشيخين الغزالى . . . وفلوسى خير الجزاء . . .

أ.د/ عبد الحليم عويس



دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة

مدينة الهدى ـ حدائق حلوان ـ القاهرة

ت: ٣٦٩٠٠٧١



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ ج.م.ع ـ المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠

ت : ٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣